كتاب الهلال

د. مصطفى عبد الغنى

قبل الخروج

السيرة الفكرية (٢)

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن مؤسسة دار الهلال



الإصدار الأول/ يونيو ١٩٥١

الإدارة

القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط). المكاتبات: ص. ب. ١١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ ، تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس:

Telex 92703 hilal un

فاكس:

FAX 3625469

ثمنها - السعودية

عمان ٠.٦ ريال

ج. م. ع ٢ جنيه

البريد الإلكترونى:

darhilal @ idsc. gov. eg

قبل الخروج

مشاهد من سيرة حياة

السيرة الفكرية (٢)

د. مصطفى عبد الغني

دار الهلال

لوحــة الـغـلاف للفنان :

صـلاح طاهـــر

تصـميم الغلاف للفنان :

أحمد أبو السعود

الخــطــوط لــلــفــنـــان:

محمد العيســوى

تقديم
مشاهد اولية

فى الاوقات الصعبة على ، المستوى القومى ,أتردد كثيراً في أن ادلى بدلوي، أعمد أن أنصرف الى قضية أخرى ,قد لاتكون فى حيوية وأهمية القضية المثارة ، أنصرف الى شىء آخر..

لا يكون هذا لاننى أحـــاول أن اهرب من الادلاء برأى ,وإنما لأننى أكتشف - فجأة -ان كل الأقلام التى تعبر عمايحدث إنما تتقارب وتتشابه ,ويختلط فيها الرأى العام بالذات ويغيب الرأى الجاد فى تلافيف النفاق وربما الانتهازية ,وقبل هذا وبعده ,ألاحظ ضحالة مايقال ومايردد بشكل مستمر،

فى هذه اللحظة ؛ ادرك المســتوى او المناخ الذى اصبحنا فيه جميعا ,ومن ثم ، اؤثر ان انصرف, لان الكتابة فى موضوع هذا الوقت سوف يغيب او يقابل بلا مبالاة .

وقد اشتد فى تفسيرى ,فأرى أنه لا جدوى من

الكتابة ,فالجمهور العريض غائب عن القراءة فى الصحف(هل نحتاج الى دراسة ليتأكد لنا بحكم اليقين من يقرأ اوبشكل أدق هل يقرأ أحد أو...) إنني بخبرتى بعد قرابة نصف قرن من القراءة والكتابة أرى أن الجمهور العريض(صاحب المصلحة) لا يقرأ الصحف بعد ؛ بعد ان زادت الأسعار ,وشغلت الصحف بالأعلانات ,فضلا عن النسبة المرعبة من الأمية الهجائية ,بل- والأخطر - هذه الأمية الثقافية التى يعيش فيها الجمهور العريض.

اعلم ان القضايا الكبرى يجب أن نستمع فيها الى صوت الجماهير ,ويجب ألا نصدق صوت(الببغاء) الذى يصف به أحمد شوقى صوت الجماهير فى مسرحيته كليوباترا ,غير أن الأخطر هنا أن من يقرأ ويتأثر بمايكتب ,يظل هامشا غير فاعل بالقدر الكافى فى هذا العالم الذى نعيش فيه

ويقترب من هذا ان المثقف العربى الذى أصبحنا نعرفه نتعامل معه منذ نهايات القرن العشرين حتى الأن أصبح غائبا ,لم أعد لأتعرف على المثقف

الذى يرى أن دوره هو الدور الثورى الواعى كما نعرفه فى الأدبيات الإسلامية ,او هذا المثقف الذى يكتب- فى تعبيرات الغرب- ليحقق(شهوة) التغيير او ليرى الكتابة نوعا من أنواع(الالتزام) او.. الى آخر هذه التعبيرات والمواقف التى عرفناها من مثقفى اوروبا وفلاسفتها منذ عصر النهضة الغربى حتى الآن.

قد يضاف الى هذا أننا نعيش فى حالة من السيولة المعاصرة بحيث لم نعد نفرق كثيرا بين فئة المثقفين وبين النظام ,او غياب الفارق بين(سلطة المثقف) و(سلطة السياسة) ,فقد غاب المثقف فى ضعفه او ذهب الى التاريخ ولم يعد بعد او رضى بالصمت السعيد كيلا يسقط فى براثن النظام..

مشهد(٢)

وقضية تهادن المثقف او تعاونه الى درجات قصوى مع السلطة يمكن أن نجد لها تفسيرات كثيرة ,وقد وجدت تفسيرات كثيرة ;على الإقل على المستوى الشخصى- مع تقدم العمر ,فرحت أبلور اجتهادى عبر

اعـادة النظر فى بعض المواقف التى كـتـبت عنهـا او شهدتها او كنت شاهدا فيها..

ورغم أن إعـادة النظر كـانت تستدعى أحـيـانا العـــود من حـــيث أتيت؛ ؛ أى العـــود الى النظر الى الموقف او الحادثة عبر طبيعتها او فى إطارها الزمنى، فقد توصلت بالفعل الى بعض الاجتهادات التى اقتربت منها او اقتربت منى بحكم التجربة والسنين..

من ذلك إعـادة النظر فى مـــوقف طه حـسين فى سنوات الثورة الاولى خاصة ,حين كان عليه أن يقوم بالعمل العام.. وقد لمته كثيرا ,بل كتبت كتابا كان عنيفا عن طه حسين وثورة يوليو جاء عنوانه الآخير على هذا النحو: (صعود المثقف وسقوطه) ورحت ادلل فيه على سقوط طه حسين أمام عسكر ثورة يوليو بما لايتمشى مع صلابة طه حسين التى عرف بها فضلا عن دلالة التحـول المشين مع أبناء هذه الحـركة التى كان طه حسين اول من أطلق عليها(ثورة)فى مقالته المعروفة فى جريدة(الجمهورية) فى ذلك الوقت..

وقد اسهبت كثيرافى هذا الكتاب فى لوم طه

حسين وتأكيد تعاونه إن لم يكن تواطؤه وصمته .

واذكر أننى كنت قد عرضت لهذا الجانب فى أطروحة الدكتوراه ,وحين جاء وقت التعليق على موقف طه حسين لا أنسى موقف أحمد بهاء الدين- وقد كان أحد المناقشين - أن راح يلومنى كثيرا على ما اتهمت طه حسين به .

لم يكن أحمد بهاء الدين هو الذى لامنى كثيرا, وراح يقول لى فى مدرج جامعة عين شمس بمايشبه التوسل:

- أرجو ان تعاود النظر فى موقف الرجل الذى تعدى الستين حين قامت ثورة. ١٩٥٢ أرجو ان تعاود النظر فى المناخ الذى وجد فيه ,ووجدت معه عائلته فيه..

لم يكن أحمد بهاء الدين وحده الذى لفت نظرى بشدة- ولم أكن لأستجيب له فى هذه الفترة- الى اضطرار طه حسن ,وانما كان قد سبقه حسين(باشا) يوسف ,الذى كان نائبا لرئيس الديوان الملكى وتولى هذا العمل بحرية كبيرة في السنوات الكثيرة التى

سبقت ثورة يوليو,فقد كان قد ردد حدثا هادئا مثل هذا,راح فيه يردد ما سمعته من بهاء فيمابعد .

ولم يكن حسن(باشا) يوسف ولا أحمد بها ء الدين ليستطيعا اثنائى عن هذا الرأى فى هذه الفترة المبكرة من حياتى,مع حماس الباحث,وترديده أن المنهج العلمى الصارم هو الذى يحدد افكاره,وأن(حجاب) المعاصرة مهما يكن,لم يكن ليحول بينه وبين البحث عن الحقيقة,ولم يفتنى أن أقول وأردد منذ قرابة ربع قرن مع هذا أن الحيدة أمر صعب المنال,ولذلك,فقد اخترت موقفى الشخصى بوضوح تام.

ولم يكن احد ليستطيع أن يزحزح قناعاتى قط ؛ اللهم الا مع مرور الوقت,ودخولى فى مواقف ومعارك كثيرة,ومعايشتى لتجارب ومواقف كثيرة أخرى ، واقترابي -بشكل شخصي، من هذه العلاقة المعقدة بين المثقف والأمير.

مشهد(٣)

كان على بعد ذلك أن أردد واتامل الكثير من المشاهد او المقاطع..:

يقول جوته :

- أحيانا يكون الحديث عن عناء العصافير فوق الأشجار نوعا من الخيانة

وقد سمعتها مرة أخرى من الصديق محسن خضر

مشهد(٤)

هناك عبارة قالها السنهورى فى مذكراته التى نشرت بعد رحيله بسنوات ,عبارة تحتاج الى التأمل ، خاصة أن السنهورى كان قد دخل فى علاقة عضوية مع رجال الثورة فى السنتين الاوليتين ,وفى هذه العلاقة بدا فيها موقف السنهورى الذى بدا لدى الكثيرين أقرب الى المهادنة منها الى الحسم والتعاون منه الى قولة الحق .

وأنقل هذه العبارة كما هى قبل أن احاول تأملها وفى الوعى لدى مواقف السنهورى وشخصيته لسنوات قبل ثورة يوليو وبعدها ,نقرأ تحت رقم(٣٨٩) هذه اليومية :

(الاسكندرية فى٣١ يوليو١٩٥٤ عقاب الرذيلة وتسليح الرذيلة

عقاب الرذيلة أفضل من اثابة الفضيلة ,ذلك أن الفضيلة تحمل جزاءها فى ذاتها ,أما الرذيلة فهى فى أشد الحاجة الى العقاب. لايجوز أن تنزل الرذيلة مسلحة الى الفضيلة وهى عزلاء ,بل يجب حتى تنهزم ألرذيلة ان تتسلح الفضيلة.

ويغير تعليق كبير يمكن العود في ذلك الى الفصل الذى كتبته عن موقف السنهورى من ثورة يوليو فى السنوات الاولى قبل أن يعتدى عليه. ويعزل بعنوان الثورة والقانون.. عبد الناصر والسنهورى (في كتاب مذكرات ووثائق لثورة يوليو

(كولاج)

رغم اننى احاول أن انتزع ذاتى من الغياب الطويل التى تعيش فيه ، أسعى هنا- للفهم والبحث عن الإدراك.عن المعرفة فى أعماقى ودخيلتى.

المعرفة كل ما اسعى اليه..

ورغم اننى غير متيقن اننى ساصل الى شىء,فان بعضا من الغرور الذى يغوص فى الذات البشرية يدفعنى دفعا الى المحاولة..

وبعض الايمان الذى احاول ان يكون الضوء الوحيد فى النفق المظلم يدفعنى دفعا الى هذه المحاولة

وبعضا من خيوط اليقظة التى احاول ان اتعلق بها فى اللحظات الأخيرة التى بقيت..

مشاهد غير أولية
عن مشهد التمرد - والعقلانية
(عن معني الجهاد)

ها أنا أحاول أن امتاح الذاكرة.

وها انا أحاول في هذا البحث عن معني(التمرد) او طبيعة(التمرد) لدي .. وغني عن الذكر ان التمرد الذي أقصده هنا إنما هو التمرد الفردي علي المجتمع ليس هو هذا التمرد الذي نجده في كتابات علم النفس او الفلسفة الذي يتمثل في تمرد الجماهير, فما كنت أحياه منذ فترة مبكرة حالة من التمرد الذاتىRebelion ا ,وهو ينم عن كثير من الفعل الصامت منذ فترة مبكرة ,لا يلبث أن ينمو أكثر مع الوقت ,ليتحول الي تأكيد للذات بشكل مغاير عما حوله ، وان لم يمنع ذلك من الاصطدام بكثير من عناصر المجتمع ورموزه سواء علي المستوي الفردي او الجماعي..

وحين يرتبط هذا التمرد بالواقع السياسي او النازع الديني- متجاوزا الواقع الفردي او الميثولوجي الغامض- فأنه يكون بالضرورة ناتجا او تابعا للواقع الفردي منذ السنوات الاولي ,وهو ما لاحظته في علاقاتي بالمؤسسات حولي ,ولا أعرف مدي تقدير

الحكم علي ظاهرة التمرد عندي بالنسبة الي المجتمع حين أتذكر تفسير جرانت Jarres Grant حين يحاول تفسير رد فعل الواقع الاجتماعي والسياسة خاصة علي الأبناء الي البيئة الاولي(العائلة).

فمن المفترض أن يكون رد فعل الإنسان علي الواقع الحالي هو رد فعل لموقفه في طفولته وشبابه الاول من عائلته ,فما أذكره انني قضيت طفولة وصبا متأرجحا بعنف بين الحي الشعبي الذي ولدت فيه(باب الشعرية) وما يقترب منه من أحياء الجمالية والغورية وباب النصر ...إلخ والحي الآخر الملاصق الراقي(الظاهر) الذي عرفت فيه اصدقائي ومناطق اللهو الاولي ,حين كان هذا الحي راقيا الي درجة بعيدة سواء بسكناه او- حتي- بهذا المسجد القديم(مسجد الظاهر بيبرس) قد كانت فيه حديقة غناء أثرت كثيرا علي وجداني في بدايات الخمسينات من القرن العشرين.

وبعيدا عن التأثير السياسي ، ارتباطا بالتمرد الفردي منذ فترة مبكرة ,فقد اسهم في تكويني- الي جانب البيئة الشعبية والارستقراطية- ثنائية أخري لعبت دورا كبيرا في إعادة التكوين او تعميق التطور الجديد ,وهي ثنائية تحددت في درجات الانتماء الديني في رحلاتي مع جدي لأمي إلي(كل) مساجد مصر القديمة للصلاة- فقد كان رجلا متدينا بصدق ثم ترددي علي الأفلام

الغربية خاصة الأمريكية بكثرة لافته فى هذا الوقت حين كانت الاستراتيجية الامبريالية متخفية ، إذ أن هذه الثنائية الاخري اثرت بشكل ما لا أعرف قياسها بالضبط في هذه الفترة.

ومع التاكيد مرة اخري علي ان التمرد لدي لم ياخذ شكل العدوان قط(إذ يربط علماء النفس والاجتماع في الغالب بين التمرد والعدوان).. فإن تمردي بدا داخليا ,صامتا ,غاضبا من كل شيء ,متخطيا أي شيء يقف عثرة ضد أفكاري واحلامي بوجه خاص.

علي ان هذا التمرد لم يصبح موقوفا علي فترة الطفولة النامية او تطور الصبا وحسب ,وإنما ظل مصاحبا لي في كل أطوار حياتي الي هذا الزمن ألذي اكتب فيه هذه السطور في النصف الثاني من الستينات- بداية الألفية الثالثة للميلاد .

صحيح أنني لاحظت هذا التمرد الداخلي يتزايد ويتحدد مع مرحلة الصبا والشباب ، الي مابعد مرحلة بلوغ الحلمPuberty بل ومع التغيرات المعروفة في نمو الفرد الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي ...ربما كان هذا كله جزءا من التكوين الذاتي- لا الخارجي وحده- ,فمن المؤكد أن(حالة) التمرد لدي لم تكن حالة عارضة ترتبط لدي بالعمرأو الجنس وإنما حالة عادية.

أنظر الآن من بعيد الي صور من بدايات حياتي ,فأجد فيهاشكلا من أشكال التمرد ,او شبيها منه.. او كما يخيل الي (استرجاع) في التمرد. ومن المهم أن أشير أن رحلات الجزيرة العربية سواء أكانت للعمرة او للحج دفعتني دفعا الي الانحياز للايمان بمعناه الذي كان لابد من اللجوء إليه في حالة كحالتي. بمعناه الذاتي الخالص.. بمعناه الذي يمكن أن يحسب علي التمرد الذي أشيرإاليه ، أو التمرد بشيء كثير من الدقة حين أربط بينه وبين العقلانية التي امتلكت الكثير منها من التراث وليس- بالضرورة- من قراءاتي الغربية- وإن كنت لا أستطيع ان اقلل من تاثير الغرب بروافده العقلية في وجداني ؛ غير أنني استطيع القول إنني امتلكت هذا القدر الهائل من التمرد او(العقلانية)- كم اوثرأن أطلق عليها- من الدين الحنيف..

كان العقل أكثر الأشياء قسمة بين البشر..

وكان العقل الصارم اكثر الاشياء قسما مشتركا علي كل حواسي ..

وكان العقل يمضي- بشكله الواعي الدقيق النابع من التراث العقلاني وليس المنقلب عليه-.. فالعقيدة الإسلامية- في رأيي تحمل قدرا هائلا من الإيمان العقلاني الحازم الحنيف..

ولاضرب مثلا واحدا قبل ان افرغ الي .. ه .

في السنوا ت التي اقتربت فيها من الستين- منتصف الستينات علي وجه التقريب- انعكس هذا التفكير لدي حين كنت اذهب الي الاراضي المقدسة اما لعمرة او حج.. فقد لاحظت - ولا اقول اكتشفت- هذا القدر الكبير من العقلانية ، التي كانت تنبعث- في المقام الاول- من اعتقادي بل ايماني بمسلمات العقل واهميته في الفكر الاسلامي..

ولإقترب اكثر من المثال الذي اريد ان ادلل عليه اشير الي مفردتي الحج والجهاد.. او بشكل ادق: الجهاد والحج

كان الوقت وقت اداء الحج بالنسبة الي بعد عدة عمرات

وكان الوقت وقت اشتعال حركات الاستشهاد في فلسطين المحتلة

وحين زادت حركة المقاومة وخاصة احدي ظواهرها(العمليات الاستشهادية).. كثر الحديث والجدال- للاسف الشديد- في صحفنا وفي المحطات الفضائية حول الاستشهاد ،، وكثيرا ما كنت اري المقالات المدبجة. المتناثرة ,المتكاثرة من أن لآخر ضد العمليات الاستشهادية ,وكان هذا الحديث يقترن بتحريمها- حتي ولو كان هذا ضد العدو الذي يقتل الاطفال ويستحيي النساء،

ويلقي فى سجونه الضيقة القذرة الشباب العربي الذي جاوز العشرين ألفا كالفئران ....

تماس مع هذا في ذلك الوقت الحملة الأمريكية الشريرة التي خطفت الإسلام وراحت تعيد صياغته لنا في المدارس والجمعيات الاسلامية وعقول مسئولينا من المثقفين والسياسيين وهي ترفع يدها بالنووي والمخصب.. الي آخر مافي الترسانة الأمريكية(والإسرائيلية بالطبع)..

كان الزمن زمن الهزيمة العربية

وزمن التخازل الإسلامي

هكذا بوضوح شديد..

كنت أشهد كل يوم مقالات تتحول الي معارك عن جدوي الاستشهاد من شباب وشابات(وهو يحرمه الدين او المدنية كما يردد) ، وكثيرا ماكانت تساق أسباب كثيرة غريبة ,تعني ان(ليس لنا عقول) ,اقصد تعني ألا نقاوم العدو الذي يحاربنا باحدث مافي الترسانةالأمريكية إزاء شعب اعزل من اي شيء

وفي نفس الوقت لاحظت ان اعدادا كبيرة من الناس تسعي الي الحج ثنائي وثلاثي ,بل اقسم بعض علماء الدين أمامي أن البعض يذهب الي الحج كل عام منذ أربعين عاما.. دون ان يربط

بين الفريضة الخامسة ومعني الاستشهاد او هنا هو إحدي صور الجهاد..

ونستطيع أن نجد في الجهاد هنا وعيا رمزيا لأهم مايحث عليه الإسلام حتي قبل فريضة الجهاد نفسها

وقد روي عن ابن مسعود في هذا الصدد أن الرسول(ص) سُئل:

- أي الأعمال خير؟

قال: إيمان بالله ورسوله .

قيل: ثم أي شيء؟

قال: الجهاد سنام العمل

قيل: ثم أي شيء ؟

قال :حج مبرور

بل أن كثيرا من أبواب التراث ذكرت بوضوح شديدسبق الجهاد علي الحج..

هل هذه عقلانية أحرص عليها أكثر من غيري .

إنها العقلانية الحاسمة التي جاءت من نبع الدين الحنيف, وأنواعها كثيرة

وأنواع الجهاد فيها كثيرة ;فمن أنواع الجهاد- وأنا اردد

بعض مايعرفه بعض مشايخ زمننا ولا يجهرون به .. أن من أنواع الجهادالمفروض علي المسلم الجهاد باللسان ؛ وذلك بالدعوة الي ماتدعو اليه العقائد الموحدة خاصة..

ان الله تعالي امتنّ علي الانسان بتعليمه البيان:

(الرحمن علم القرآن ,خلق الانسان ,علمه البيان)..

وإذا كان الايمان في زمننا هذا ينصرف الي القلم(والقلم وما يسطرون)و(اقرأ..) الي آخر هذه الاية الكريمة.. فان القرآن الكريم اعتبر الجهاد بالبيان والقرآن جهادا ;يذكر ان الرسول(ص) قال :

(جاهدوا المشركين بأيديكم وأموالكم وألسنتكم)..

وهنا احب ان اتوقف قليلا عند الجهاد كما يجب أن نفهمه

فالجهاد يرتبط عندي بهذا القدر الواعي- كما اري- بالعقلانية ,وهل هناك حاجز- اي حاجز- بين الجهاد والعقلانية..

فاذا ربطنا بين العقلانية هنا بالوعي المتمرد علي الواقع الذي لا يعرف الاسلام معرفة جيدة ,او يعرف بعض ممثليه الإسلام ولايريدون ان يضيفوا ما يشير إليه من معني الخروج علي الواقع(- الباطل) دون التصريح بمعناه الحقيقي لادركنا الي أي مدي نحن غائبون عن اهم صور الاسلام قاطبة بعد التوحيد ,وهي

قيمة الجهاد ,وهي قيمة تستمد اهميتها من الايمان بالله ومن ثم الوعي باهمية التمرد علي الواقع الرديء...

وهو مايحفظه لنا الواعون من علماء المسلمين او المثقفون الواعون بهويتنا وقيمنا لا التي تستمد من الماضى- كما يزعم البعض- وانما من تطوير هذا الماضي في ضوء القيم التنويرية ، فيه القائمة علي العقيدة في ضوء المضارع .

(جاء زمن، أثناء غزو بغداد وبعدها أصيب قيه مفهوم الجهاد جدلا سقيما ، وترهات كثيرة.وغموضا أكثر..)

لسنا في حاجة الى الدفاع عن أنفسنا بأننا لسنا من دعاة الماضي

ولكننا من دعاة رفض قطع الصلة نهائيا بالماضي.

وهو ما يتأكد هنا ويتعاظم حين يكون الماضي او من الماضي أنبل ما في العقيدة من قيم تدفع بنا الي التنبه للمضارع ,ثم دفعنا الي(ارادة التغيير) سواء بالتمرد علي الواقع او التشوف الي المستقبل والعمل له .

ولهذا ,كان وعيي الخاص أن إبراهيم- عليه السلام- كان من بين اول المتمرين.علي الواقع ,واقع التخلف والجهل قبل خمسة عشر قرنا من الزمان ,وهو ماتنبه إليه الكثيرون ، ,مما جعلني

اتذكر دائما حديث" علي شريعتي " المفكر الإيراني الكبير ,حين قال في كتابه(الحج الفريضة الخامسة) ما يحفظ تاريخ البشرية لابراهيم- عليه السلام- إنه اعظم متمرد وقف ضد الصنمية والوثنية.. و. . أن اول معركة لإبراهيم ضد الوثنية كانت في بيت(آزر) صانع الأصنام لقومه!

لم يقتصر إبراهيم علي محاربة الأصنام والنمرود فقط ,ولكنه كان يحارب معهما الجهل والطغيان..

كان متمردا علي الرذائل.. رجل دعوة ورسالة وإيمان وعقيدة...

ومن هنا ,فبعد التأكيد علي المفهوم الإيماني(الإله الواحد) فإن مفهوم الجهاد في هذا العصر الذي نحياه قد تغير بل تمت مصادرته تماما ودفن بتعبير "شريعتي " في مقابر التاريخ

الاكثر من هذا يمكن الموافقة علي القول أنه قد حرف عماده المتمثل في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ,وأصبح يعني أن تلوم صديقا لك!..

وهو ما ينتهي بنا الي الحقيقة التي نحياها جميعا دون ان نتمهل كثيرا عندها ,او دون ان نعلن عنها ,وهي ,غياب او ضياع دلالة التصدي لصور الفساد والإفساد الذي بدا أكثر ظهورا في

غياب(نواطير) مصر او(نواطير) عالمنا العربي- بالاستئذان من شاعرنا المتنبي ,فإذا القابضين علي البلايين من اموالنا . . . . .بل أصبحت العلاقة بين رجل الاعمال ورجل السياسة علاقة تفاهم وتحالف وحياة ثم ضياع المعني البدهي من غياب الوعي(العربي) لهذه الاقطار التي تابي- خلال ولاة امرها وعلمائها- حتي اصبحنا عقب عاصفة مانهاتن١١ سبتمبر ٢٠٠١- في موضع الجاني في حين الأمر لايزيد علي كوننا مجنيا علينا بجلاء لا يستطيع أن يخفيه احد- وأن كنا نسعي لاخفائه- بأية صورة-

وعلي هذا أصبح الوعي المشوه سائدا بيننا سواء في معني الجهاد او- حتي- الحج الذي نخصص له عملا آخر(جسر الجمرات)..

وهو مايعود بنا الي قيمة الجهاد الغائبة او المصادرة بيننا .

وعلي هذا النحو ,فإن الجهاد هنا لا يتوقف عند اللسان والقلم وحسب ,وأنما يمتد الي الجهاد بالجسد(المقاومة في الميدان) ايضا ,ومن ثم ,يصبح الإستشهاد إحدي صور الجهاد الهامة في عصرنا..

ولذلك ,ذهبت للحج ,وانا أكتب مقالات ضافية في الأهرام عن شهداء وشهيدات فلسطين في هذه الحقبة التي يسمونها

-(انتفاضة الاقصي).. وإن كنت ا أشدد علي ا أن الشهادة هنا لابد وان تكون مرتبطة باستراتيجية للمقاومة وليست غائبة عنها

وهو موقف له وجهان هنا:

- أن الجهاد في هذا المناخ الرديء حولنا يتحول الي فرض عين

والجهاد بهذه الصورة يصبح ,بل يقدم علي حج الفريضة..

ثم أن الحج يمكن- وحال الأمة علي ماهو عليه الآن من الضعف والتخاذل- يمكن ان يكون في مكانة ثالثة بعد الإيمان والجهاد..

الجهاد هنا يتعلق بكيان الامة وشرط بقائها فلو هلكت الأمة هلك الافراد وضاع الحج وغيره من العبادات والشعائر والاركان التي لايمكن اقامتها واستمرارها إلا بوجود الأمة والجهاد هو الذي يدافع عنها

هذه بعض الأفكار التي كنت أري تيارا عريضا ضدها

كان الناس في هذه الفترة يذهبون الي الحج والوطن يستباح

وكان الناس- والعلماء- يحذرون من العمليات الاستشهادية ويطلقون عليه قتل النفس..

وكانت الأفكار الواهنة تنطلق باسم الدين والدين منها براء .

هذه بعض أشكال تمرد علي ماكان يقال ويكتب بكثرة في هذه الفترة الصعبة من حياتنا وتاريخ أمتنا .

كنت أكتشف- من السنوات الاولي- أنني- قريب من العقلانية والتمرد..— مختلف اشد الاختلاف عمّن حولي .

مختلف ولست متميزا بالضرورة

وهو مايعود بي- ثانية- الى موضع آخر

فقد نشأت وقد تعمق لدي- مع الوقت والقراءات والبيئة- نوازع عديدة ,لعل من أهمها هذاالتمرد العنيف علي كل شيء ,وهو تمرد كان يكمن في أعماقي قبل كل شيء ,ثم كان يعبر عن حالته- بعد ذلك- في اتخاذ مواقفي من الحياة حولي ,سواء في حتمية تغيير البيئة التي أعيش فيها او طريقة معرفتي بالقيم الإنسانية خاصة والعقيدية علي وجه الخصوص..

وربما كان هذا النازع وراء الكثير من التغييرات علي مستوي العالم الخارجي لي ,فقد استطعت- رغم قضاء قرابة ثماني سنوات في الجيش المصري من منتصف الستينيات الي قرب منتصف السبعينيات علي وجه التقريب ,فاستطعت أن أقوم بأشياء كثيرة في وقت واحد، إذ استطعت في هذه السنوات ان اقوم بدرس الفرنسية مساء في اكثر من معهد لغات(من بينها

الجامعة الامريكية التي درست فيها الترجمة الي الإنجليزية) في عام الاستنزاف (١٩٦٩) ,فرغم الطلعات المستمرة للصهاينة في هذا العام ضد المدنيين والعسكريين ,فقد كنت مستعدا أن أذهب من آن لآخر الي الجامعة الامريكية لادرس فيها الترجمة الي الانجليزية ,وهو ما كنت أفعله حين أخفي السلاح والذخيرة في مكان آمن واتسلل وسط المواقع في الظلام في سكون المساء لاذهب وأحاول أن أستوعب الترجمة وأستعيد صورة أبناء العم سام الصامتين.. ولا ألبث أن أعود بعد الدورة في صمت وخطر شديدين الي معسكري لأحمل السلاح والذخيرة ,وأستمر في قضاء المهمة العسكرية...

هل كان هذا نوعا من أنواع التمرد؟

كنت قد قطعت رحلة الحصول علي مؤهلٍ عال ,فلم أتمكن وقت دخولي الي القوات المسلحة مجندا أن أستكمل تعليمي ,ومن ثم ,كنت حريصا علي الانتماء لإحدي المدارس الليلية سواء الليسيه او"راغب مرجان" او.. لأحصل علي الثانوية العامة ثم أنتمي بمجموع كبير الي كلية الآداب ، وأذهب اليها من آن لاخر رغم أخطار الحرب وحالة الطوارىء العسكرية التي اشرت إليها .

هل كان هذا نوعا من أنواع التمرد ؟

كـمـا لم أتوقف طيلة هذه السنوات عن قـراءة(كل) تفـسـيـرات القرآن الكريم التي وقعت بين يدي ,سواء قبل دخول الجيش او بعد دخوله ,فقد كانت السنوات الاولي من حياتي ,التي قرأت فيها كل ما وقع بين يدي من الادب الغربي- الفرنسي- بشكل خاص ,قد عمقت هذا التمرد في اعماقي ,ومن ثم ,كنت واعيا لتأكيد صورة هذا الوعي: عرفت الادب الغربي ونظرياته اوافكار الشك والمنهج العلمي..الخ ,فلانكب الآن علي التراث العربي ببطء وعمق كيلا اصبح طائرا بجناح واحد ,يحاول الطير بالفكر الغربي فقط

ومن هنا ,كنت دائم قـراءة كل مـايقـع تحت يدي مـن اسـاطين الأدب والتـراث العـربيين ,رويدا رويدا تفـرغت للشـعـر فـقـرأت وحفظت اكثره ,ونظمت ودبجت الكثير ونشرت القليل منه ,وفي نهاية المطاف تفرغت تماما في هذه السنوات ,ربما حتي منتصف السبعينات ,في دراسة متأنية وبطيئة ومستوعبة للقرآن الكريم والتفسيرات والكتابات الكثيرة حوله بسعادة وغبطة كاملتين.

فهل كان هذا نوع من أنواع التمرد ؟

نسيت أن أستكمل ايضا ، أنني في هذه الفترة المبكرة لم أغفل تأثير الأدب اليوناني ,فبمجرد أن انهيت قراءات كثيرة في الادب والاسطورة اليونانية ادركت ان هناك مالم استوعبه بالقدر الكافي,

فطلبت من اصدقائي الاقباط ,وقد عرفت الكثير منهم وارتبطت بالكثير بصداقة وود.كاملين ؛ .. بعض الكتب المقدسة ,ومالبثت أن حصلت من المكتبات القديمة بالأزهر وسور الأزبكية حين كان قائما وثريا ، علي النصوص الكاملة للعهد الجديد والعهد القديم, وقراتها ,وإن أنس لا أنسى سهري الطويل حتي الصباح في قراءة القصص التي تقترب من الأساطير الي حد كبير للاسفار الاولي من العهد القديم ، إذ كانت الميثولوجيا الدينية في العهدين تتملك حواس كثيرة مني لفترة ليست قليلة من الزمن ..

وهاأنا اسأل الآن:

هل كان هذا نوعا من انواع التمرد او فلنقل شيئا من الدقة العقلانية ;او بشكل اكثر دقة انها العقلانية المتمرد علي الواقع المتخاذل حولنا..؟

وهو مايعود بي الي جانب آخر

فعلي الجانب العقيدي- كمثال- تأرجحت في السنوات الاولي من حياتي بين تغييرات واعتقادات دينية متباينة ,ومررت بكل مراحل التدين الشديد ,فالشك الشديد ,فالحيرة التي طالت وتداخلت معها مشاعر ومواقف سيكلوجية جديدة حتي وصلت بحكم السن ,وحكم التطور الفكري الطبيعي الي حالة أشبه

بالإيمانية الواعية ,فعلي المستوي الديني ,كنت مؤمنا ,لكنه ليس هذا الإيمان المغلق المصمت المستسلم تماما ,لكنه الإيمان الذي مر بفترات تحول حادة معذبة ,كان ديدني فيها المعرفة بمفهومي البشري المحدد الذي أعرفه تماما ,وتلمست فيها فترات القراءة الطويلة خاصة في الكتب القديمة ,والتقيت بحكمة الرسول(ص) بأن(استفت قلبك) والتعامل مع القلب هنا كان هو التعامل مع المنطقة الواعية في التكوين البشري,

لقد رفضت تماما- مع تمردي- الإيمان الصامت المباشر المتين الذي يعرفه كثير من شيوخنا ,ولكني فضلت الإيمان الواعي المفكر المتمرد ,ووصلت الي الإيمان مرورا بكل قنوات الفكر والممارسة والقلق الذاتي و الالم النفسي ,تداخلت في الصراع تكوينات كثيرة من هذا المجتمع الذي لم يكن ليقبل اى شى ، اللهم إلا المؤمن المصمت ,الذي يتقبل ما مايمنح له من العقيدة, ووصلت- أزعم نني وصلت- بعد مرحلة الايمان فالشك فالإيمان العقلى الي شيء من الايمان توصلت إليه بالقلب السليم الذي تكرر كثيرا في الآيات القرآنية وهو لايغادر هذا الوعي الفطن اللبيب او العقل الذكي الأريب ,القلب هنا هو إناء من المشاعر الفياضة النبيلة في إناء من الوعي العقيدى الصارم الثاقب.

وأزعم أيضا أن هذا الوعي هو الذى ارتبطت به بعد قراءات عديدة ، والتنقل بين إيديوجوليات عديدة وبعد أن اصبحت في يوم ما (كادر) في تنظيم راديكالي ؛ بيد أن هذا كله انتهى حين وصلت الى درجة عالية من الصفاء الذهنى ، وأحسست بهذا القلب الذكى أدرك اشياء كثيرة بعد وعى لم يفرض على وبعد يقين انتهيت إليه .. –

إن القلب يتكرر في القرآن الكريم بدلالة خاصة وواعية جدا ، وهو منطق الحكم السليم علي الأشـيـاء ودائرة اليـقين الصـارم النبيل، ونقرأ في بعض الآيات حين يخاطب الله عز وجل المؤمنين:

(.. واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه)(٨/٢٤)

وفي مرة أخرى:

(.. ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا)(١٨/٢٨)

ولنتأمل أكثر هذه الآية في فهم معاني القلب ،يقول عز وجل:

(ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه و..)(٣٣/٤)

كما أن تامل(حالة) القلب هنا تشير الى(حالة) العقل سواء بسواء، تقول الآيات الكريمة:

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب . واخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تاويله الا الله والراسخون في العلم يقـــولون آمنا به كل من عند ربنا ومـــا يذكـــر الا اولو الالباب.ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ..) (٣/٧و٨)

(يستطيع القاريء اللبيب ان يعود الي الأيات الكريمة ليري حـالة القلب فى الآيات و٨٩/٢٦ و٨٤/٣٧ و٤٠/٣٥و٣٢/٥٠و٣٧ من سورة" آل عمران" ليرى ايالكثير من صورللعقل اوالحث علي التفكير هنا فيساوي الله عز وجل بين العقل والقلب ولدينا علي سبيل المثال الكثير من الآيات)

ومن هنا ,فان الإيمان عندي كان يخرج من دائرة(الإذعان) او(التصديق) بدون هذا التدبر او التامل الذي حث الله عليه عز وجل ,وهو ما تحدد عندي في قراءاتي الاولي ,فرغم أن جدي لأمي لم يكن ليتركني وأنا في سن الصبا ,فيذهب بي الي كل مساجد مصر القديمة لأداء صلاة الجمعة ,ومع أن كل المتدينين من عائلتي وخارجها كانوا يحرصون علي هذا الإيمان الذي كان يصل- أحيانا- إلي حد الدروشة ، فقد كان على أن أمر بهذه الدروب

وأن أسلك طريقي بالعقل الذي هو(القلب الزكي) الذي حث عليه القرآن الكريم وبقية الكتب السماوية..

وربما اسهم في هذا منذ فترة مبكرة من حياتي قراءاتي الاولي التي لم تكن لتخرج عن دائرة يقف فيها طه حسين وزكي نجيب محمود في العصر الحديث..) غير أن حيزا من التمرد كان يصبغ الشكل العام لهذه الدائرة الإ يمانية..

ومع تقدم السن وجدتني اقترب أكثر الي هذا الإيمان الواعي الذي يستمد معناه من القلب- كما تشير اليه الآيات والأحاديث التي تترجم مثل هذه الآيات او كتب التراث الواعية التي لم تكن لتقلل من قيمة ألعقل باية حال.ولذلك ,فمع تعدي سن الأربعين ,كان لابد أن يترسخ في دخيلتي أكثر هذا الإيمان ، خاصة ، ان زوجتي كانت تملك قلبا عامرا بالإيمان , رغم ان هذا الإيمان كان يختلف الي حد كبير عن درجة الايمان الذي انتمي اليه ، كان إيمانها خالصا لا تشوبه شائبة من أعادة تفكير،او استخدام العقل(= القلب) كما انتهيت إليه ؛ ومع ذلك ورغم ذلك ؛ ظللنا في منطقتين مختلفتين وإن كانتا- هاتان المنطقتان- تنتميان للحس العقيدي الخالص ..

كان إيمانها خالصا دون السعي الي التدبر ، إيمانا خالصا

راسخا دون التمهل عند هذه الدرجات التي كان لابد من ان امر عليها في حياتي وتتحول من آن لآخر الي ريح العاصفة الشارد ؛غير أننى سرعان ما كنت أعود الي الشاطيء بحس- كما عتقد - يتنافي مع هذا الحس السائد ..

وكان من الطبيعى أن تنشب بيننا -أنا وزوجتي -من آن لآخر- ومازال - خلافات من نوع التصديق بغير تفكير ,او الفعل كما كان الاسلاف يفعلون ..مع يثينى بالثابت والمتغير في العقيدة ، وكنت - فيما أظن - أقرب الي ابن رشد- في درجهة تقبل الأمور ، وأقرب الي الحس الدينى الفطرى الذي يقترب من الصوفيه في بعض مراحله في وقت لم أغفل فيه العقل(= القلب) بأية حال .

أذكر جيدا ، وكنا في صباح يوم عيد الفطر ,لم يكن أحد من الابناء يقظا ؛ دخلت في حوار ديني طويل مع الزوجة الورعة الطيبة ,ووجدت نفسي أحاول أن اقنعها بأن منطقة العقل هى هي منطقة القلب المؤمن الذكي ,لكنها- رغم الخلاف- لم تكن تبتعد عني كثيرا في درجة الاقتراب من العقيدة ,ومع ذلك ، فقد استيقظ تمردي ، ولم اؤثرالصمت ,بل دخلت حوارا أعرف نتيجته ,ولما اتصاعدت لهجة الحوار ,قلت لها ردا علي سؤال استفزازي:

- اسمعي ،ا نني بعد أكثر من ربع قرن زواج الآن ,وبعد ان أرحل تماما من هذا الكون ، اعرف تماما -تماما-انه سياتي يوم ، ويسال البعض- من خارج هذا البيت- كيف كان يفكر زوجك, وحينئذ ,وانا علي يقين من ذلك الآن ؛لن تستطيعي الحكم علي جيدا..

لن يستطيع احد في هذا البيت فهم الوعي الديني - كما اعتقد- فى تصورى البسيط- كما افهمه انا..

هكذا انهيت الحوار الذي افهم منه بشكل مغاير لما انتهت اليه عقيدتي ..او هكذا تصورت

لم أردد امامها كلمة(التمرد) لئلا تفهم عنى فهما مغايرا ما انا فيه الآن .

المهم في هذا كله ,ان عقيدتي كانت نتاج التكوين والسنوات؛ وفي النهاية نتاج هذا العقل الذي اتعامل به مع كل شيء،ارفض به كل الخرافات او الدروشة التي شاعات كثيرا في السنوات الاخيرة ,وتشيع دائما في سنوات التخلف ,وازعم ؛ازعم ان ايماني العقيدي كان اكثر وعيا وابعد رؤية من سواي ,فقد كان ايمانا خالصا ,انتقلت بين ضفاف كثيرة بين سنوات عمري, وعرفت قراءات اكثر، وتحوات بين احساس القلق المقلق, عرفت

الدين الفطرى عند العامة ، واقتربت من شيوخ وائمة فضلاء، وراقبت انماط من العلماء لا ينطبق عليهم المفهوم الواعي، وذهب الي الأراضي المقدسة(الحج مرات والعمرة مرات) وعدت ولم يفقد العقل عندى قط هذه السمة من التمرد الديني الواعي..

لم ارد لنفسي أن أفهم العقيدة كالعامة... خاصة أن سنوات طفولتى وصباى عرفت مظاهر هذا الدين في مصر العتيقة ، فقد تجولت فى كثير من احياء مصر القديمة، عرفت الموالد ، دخلت مسجد الشعرانى في باب الشعرية ، كما عرفت مسجد السيدة والحسين ، ومررت علي كثير من الاضرحة الاثرية والابواب الصوفيه حول المقطم ، وتعرفت علي شواهد فضلاء مثل عبد الرحمن الكواكبي في هذه المناطق ، وتذكرت شروح الإمام محمد عبده وانا اشاهد من اعلي المبني الذي نشأت فيه الكثير من النساء يقتربن من مقام(السيدة عيشة(عائشة) رضى الله عنها ، عرفت الكثير وأنا دائب لقراءة في الاصول القديمة والحديثة ، وانا دائم التنقل بين المساجد الاسلامية في شتى انحاء البلاد ، واقتربت اكثر – حين شببت عن الطوق – الي كثير من مناطق التراث الدينى فعرفت في دمشق لكثير واقتربت في العراق من الكثير والكثير من الشواد والحسينيات ،وهبطت الي الاردن قبل ان

الى مصر الي لأصعد الى بلاد المغرب العربي لاعاين هذا التاريخ الاسلامي العتيد وراعنا ، وعرفت ثمرات النهضة الغربية بعد هذا كله ، ومع ذلك ، ازعم ، ان يقيني كان يفوق يقين الكثير ممن حولي

هل اسرفت ؟ هل جاوزت الحد وأنا اسهب كثيرا حول هذا ، ارجو الا اكون قد فعلت ذلك ، وارجو ان يسامحني القاريء الكريم علي كل هذا الاسهاب ، فما قصدته ان اظهر ، في صمت انني كنت واعيا للعقيدة من فترة مبكرة ،من خلال تعرفي اليقيني بالعقل(= القلب) وليس تأثري بالخرافات ، وتكوني عند الشائع في هذا المجتمع الإسلامي الذي عانى قرونا من الزمان في التخلف والاستعمار ..

لم ارد لنفسي أن اصل الي الرموز او المجاز في فهم هذه العقيدة... وانما اثرت ان افهم جيدا ان العقيدة تقوم علي العقل لا ما نرثه في كثير من ترهات المشايخ وغمامات الزمان واحاديث الامهات الطيبات ..

آثرت منطقة(التمرد) الواعي النبيل الذي حث عليها الاسلام, وليس هذا الايمان المغلق علي مفردات وأحوال تذهب بالعقل ,وتزيد من الخرافة ,وتكثف– مع مضي السنين– حجم هذ ه المشاعر التي

تتراكم فتحول الوعى السائدالي شيء أشبه بالجمود او التخلف، وتعبر عن نفسها بكثير من التعصب واتهام الآخرين ، في زمن اصبحنا لقمة سائغة للغرب الذي وصل اقصي درجات االرأسمالية االمفترسة وتجليات ترهات ا"لأصلاح" الجديدة مع (عسكرة العولمة) التي جاءت بها الامبريالية الامريكية الشرسة، كان الوعي لدي – كما ازعم – نقي بسيط ..كان الفهم عندى – كما اعرف – لا يركن للغيبات ولا يُغيب في الخرافات ،..

وهوماحرصت عليه دائما–.. لا يغيبُ العقل بأية حال يتفق في هذا اهل(كل) الاديان السماوية ..

التمرد الواعي – كما ازعم– هو ما حرصت عليه دائما..

مشهد: الحزن– الرومانسية–

واســتطرادا لهـذا كله ,فـعلى الرغم من أنني لا أنكر التـغـيـيـرات الكامنة في بنيـة المجـتـمع ,او في طبيـعـة التطور الاجتماعي..فاني اري– وهو أجتهاد لا احسم بصحته– يعود الي طبيعة البنية الفسيو– سيكلوجية لدي..

إنه التكوين الذاتي جدا مرتبطا– وان يكون في مرحلة تالية– بتقدم السن وتطورالمجتمع ومايقدمه للانسان منذ فترة مبكرة: ربما.،

انه اتجاه احاول ان افسره في الحقبةالاخيرة من حياتي, ففاسعى الى تفسيره والخروج منه بهذا الحزن النبيل الذى استولى على والذي يصل في اقصاه الي حالة يسمونها في علم النفس انها حصاد سنوات انتهت معي الي مايشبه الاكتئاب .depression

وهو اتجاه انفعالي ، باثولوجي في النهاية ، ينطوي علي شعور بفقدان الأمل والألم الذي يتسرب في لحظة بعينها ,ويصحبه حال الانخفاض النفسي للتوائم مع الغير في الظاهر ,لكن الحالة تتعمق في الداخل ,بل يضاف الي حالة السكون النفسي الحزين في الداخل ؛حالة- وهو ما بدامع تقدم السن بالفعل- اقرب الي انخفاض النشاط الجسمي النفسي ,من ذلك ، فإنني الاحظ فى الخمسينيات انني كلما اصبت بهذه الحالة من الحزن او مضاعفاتها الكئيبة ,اصبحت وقد اصبت باحباط عقلي وجسمي شديد يودي بي الى المرقد الذى لا أعرف فيه قط السكون او النعاس- الغياب عن هذا العالم ,فأنا بتكوينى ضد النوم ,عقلي يقظ دائما و كثيرا ماكانت اليقظة المضنية تدفع بي لأظل لأيام لا أنام ,فأنا ضعيف في الفراش ,احس بالالم الجسمي الشديد طيلة اليوم ,حتي اذا ما ذهبت الي الفراش نهاية اليوم؛إحس ان

قدراتي الذهنية تستيقظ الي درجة قصوي،، لا اعرف يقظة عقلية هائلة، قط، اللهم فى الليل وتصل هذه اليقظة الكاملة الى قمة صعودها في ساعات الفجر لتمتد الي ماشاء الله .واذكرنه اطلق على بعض اصدقائى من الاطباء اننى (كائن ليلى) !!

وعلي هذا النحو ,كنت أعجب لما يحيط بي من آن لآخر ,فكلما احسست بهذه الحالة من الانفعال النفسي احسست بانفعال جسدي او تعب يظهر بشكل محدد ، و عدم مغادرة الفراش, واظل فيه ليومين او ثلاثة ، لا اقدر علي الحركة العنيفة ,وانهض لانام نوما قليلا متقطعا قلقا حزينا مشبعا بالحزن، مشربا بالكآبة.

ان الدرس السيكلوجي يصف هذا بألفاظ لا اكاد أستوعبها جيدا ، فهي حالة من الجزع النفسي- بالطبع - التي تتميز بمشاعر عدم الكفاية ,وخفض النشاط ، والتشاؤم والحزن النبيل ؛ اذا كان على ان اصف هذه الحالة ..

إنها حالة تقترب في الدقة من الاكتئاب الي حالة من الغم او الاغتمام كما يقولون في الالفاظ العامية- فالاغتمام- djection وهو مرادف ادق يمكن ان ينسحب الي هذه الحالة التي تصل بى لحالة من الغياب من كل شيء حولي والانسحاب من

هذا المجتمع الذي لم اعد افهم شيئا عنه ,بل ان انني في اشد المقربين مني ومن بين اهلي أوثر الانسحاب والابتعاد لأعيش فى هذه الحالة التي تبدو في الظاهر حزنا وضيقا وفي الباطن غما وإجهادا عقليا رهيبا..

وهذه الحالة ,وان كنت قد خلقت بشيء منها؛ فان نشاتي الاولي - فيما يبدو -كانت سببا من الاسباب التي عمقتها, وحولتها الي تكوين ذاتي.. السنوات الاولي أسهمت في هذا بشكل كبير

وحين أحاول ان اعود الي السنوات الاولي من حياتي التي وعيت فيها , أحاول أن استعيد وأحلل ..؛اتذكر سنوات المرحلة الإعدادية ,حين كانت تختلط عندي مشاعر الرومانسية المبهمة بالحزن الشفيف ,بالقلق الغامض..,كنت صبيا صغيرا؛اعاني من(حالة) الضياع لفتي متوثب في بيئة فقيرة ,كانت المرحلة الاعدادية قد رسخت في هذه المشاعر بعنف ,فانا الآت من بيئة فقيرة, اقتربت وتعاملت مع آخرين من بيئة ثرية ,هكذا عرفت شريف وعادل و.. ولأنني وهبت حسا رقيقا ,ولأن بعض زياراتي انتهت الي بيوت هؤلاء؛فقد تعمق الفارق ,فاصبح حاصل هذا المناخ الذي احياه : الحاجة، الثراء،الرومانسية ، الاحلام المبهمة، الواقع

الكئيب ...الي غير ذلك اصبح الحاصل كله يتحدد في حالة عرفتها بانها حزن كامن في اعمق اعماقي..

ليس هو وحده الحزن القابع في اعماق المصريين ، وانما اضيف اليه مايصقله الآن..

وعلي هذا اكتشفت سبب هروبي من بيئتي في فترة مبكرة لاصدقاء ينعمون في الثراء ,وفي مكتبات نويهم التي تزخر بالكتب الرومانسية ,واذكر انني في هذه الفترة قرأت(آلام فرتر).. والعديد من روايات فرنسية رومانسية مرورا بعديدمن الاتجاهات الغربية الاخري..

وعلي هذا اكتشف سبب هروبي من بيئتي ايضا ,حين كنت اذهب من آن لآخر الي احد دور السينما، لاتسمر ولسنوات بعد ذلك ,امام هذه الافلام الرومانسية الغربية ,ثم اتسلل وحدى الي هذه الافلام الامريكية التى خرجت من واشنطن قرب منتصف القرن العشرين ،التي كانت تحمل الكثير من الخيال المرتبط بالبروجندا لتشوفنا للحلم الامريكى الذى تخثر بعد ذلك حين صحوت منه، خاصة بعد سقوطها المريع في فيتنام ، ثم توالى السقوط فى افغانستان والعراق والمنطقة التي يمكن ان نجد فيها في يوم ما غياب الحلم الامريكى تماما وراء الشاشة البيضاء

وامامها ..

في هذه الفترة من نهايات الخمسينات وبدايات الستنيات من القرن العشرين ؛ قرأت الكثير وعرفت الكثير وشهدت الكثير من قبل ان اصل الي العشرين , عرفت هذه الافلام الامريكية التى تركت بي آثارا عميقة؛ في هذالفترة من الخمسينات التى لم نكن لنتنبه فيها لخطر(اليانكي) القادم من أحراش اوروبا وسجونها ليقضي على سكان هذه المناطق ، ورواح الاعلام فى بلاد العم سام بعد ماانتهى من "الهنود الحمر" يتأهب ليترجم الفترة بعد الحرب الثانية بالعمل اكثر لغزو الشروق وابادة"الهنود السمر" كما بدل واضحا في تسعينات القرن العشرين بعد سقوط سور برلين ليتأهب اكثر مع سيناريو(عاصفة مانهاتن) ليهيمن بالاته وعالمه عولمته وغروره واقتصاده ومغامراته الى هذه المنطقة العربية التي اطلق عليها مصطلحا لم تعرفه المنطقة(الشرق الاوسط) لتتراكم مشاريعه الوهمية و"فوضاه الخلاقة".. وذلك مما لايزال يقوم به العم سام مع العم بول مع الصهاينة المسمين انفسهم – زورا وبهتانا–اولاد داوود !!! ..

ومع ذلك كله، حين انظر في بدايات القرن الحادى والعشرين مرورا إلى دراما القرن الماضى اري – واكتشف–ان

هذه السينما الامريكية لم تستطع ان تؤثر في هذا التاثير الذي يجعل صاحبه تابعا لها .رغم ماكان تقدمه من وسائل ابهار واحلام امريكية زاهية ..

غير أن أكثر ما تركته في هذه الفترة – ضمن مؤثرات اخري– حالة من الرومانسية المصحوبة ، بل المركبة ، بحزن قاتم عميق ..

وبعد ان تجاوزت العشرين بسنوات ,كان في دخيلتي هذا الحس الحزين, ؛ أعود . احمل اوراقي القديمة الآن, لاجد صفحات كثيرة كتبت فيها مايترجم هذا الحزن ,هذه صفحة تحمل تاريخ ١٩٧١/١٢/٦ كتبت بالقلم الرصاص ,اما انقله هنا:

ها أنا ذا مرة اخري.. لا اعرف المرة الكام..

ها أناذا.. في لجـــة عـــمـــيـــقـــة من أحـــزاني العميقة..هاأناذا.ووحدتي الرهيبة ,وحريقي الداخلي المندفع الي اقصي حياة لانسان تعس..

ها أناذا ...

او كتب علي أن اعيش طيلة حياتي.. تعس..لا أدري ؟

بقية الصفحات مغرقة في هذه المشاعر القاتمة الزاخرة بالألم المعنة في الحيرة القاتمة بالحزن..

ثم هل انا في حاجة الآن ,وانا اكتب هذه السطور؟ مازلت

اذكر الأغراق في مثل هذه المشاعر الحزينة ,القاتمة بالحزن ,والتي افرغ منها الآن احساس الرومانسية..(كنت في هذه الفترة التي تخلي عني الجميع بعد حصولي علي الشهادة الاعدادية ,ووجدت نفسي اعمل- بكل ما احمله من رومانسية واحلام سابقة-.. في مناطق كثيرة بيدي ,واعمال لا ترقي الي فكري ,وفي مناطق مظلمة اليوم كله ,وهي الفترة التي ادركت فيها تخل الاهل عنى (او هكذا اعتقدت..)فرحت ادرس في القسم الليلي،للحصول على الثانوية العامة ,وكنت قد وصلت الي السنة الثانية الثانوي ,وهي السنة التي لم استطع ان اتجاوزها ,,فمازلت اذكر هذا المساء حين وقفت اخر العام امام شباك دفع مصروفات الامتحان في مدرسة "راغب مرجان الليلية" ,لم اجدمعي ما يكمل هذا المبلغ;، مازلت ذاذكر كيف كنت التهم دروسي بجد طلة العام- رغم الفقر والحاجة والعمل في اعمال تقضي علي الشاب الصغير-.. فلم اجد- بعد ان اكتشف ان ماهو معي لدفع الرسوم لا يكفي ,وبعد ان اكتشفت انه لا احد في هذا الكون يقرضني نصف جنيه لأكمل الرسوم التى تسمح لي ان اؤدى امتحان المرحلة الثانوية ,وبعد ان اكتشفت هذا الفضاء البشع حولي.. اخرجت من طابور الدفع بعد ان نهرنى الموظف فى الشبك ليحلنى من الطابور، مازلت اذكر

كيف مضيت في الطريق وحدي وانا ابكي..؟ ما ابشع هذا اليوم ..

أذكر في هذا اليوم ,انني كنت في حالة مؤسية,الي درجة انني حين صعدت الاتوبيس القديم لاصل الي منزلي ,استسلمت لحزني القاتم ,جلست علي ارضية الاتوبيس , رحت ابكي بشدة فى صمت حرصت عليه، لم يلتفت الي احد،، لم يهتم احد بالامر ، كم كان هذا قاسيا على فتى رومانسى فقير ؛ لكم كان هذا قاسيا ان يضيع عاما من عمرى..؟

هذه هي الفترة التي التقيت فيها ب (شهرزاد).- كما اشرت في الجزء السابق -.. تحدثنا.. واتفقنا.. بعد مغامرات كثيرة ؛ كان لابد من الوصول اليها في "بيت طالبات " تقيم فيه لايام بالقاهرة قبل ان تعود الي بيتها في الجنوب ..

هذه الفترة التي كان الحزن الشديد يعمق الرومانسية المفزعة لاعيش عن- ومع- طيف الأميرة لسنوات بعد ذلك سواء في الوادي الجديد حيث كان الأب يعمل بمديرية الأمن او في الاسكندرية حين انتقلت الي هناك مع انتقال الاب الي مديرية الامن ايضا و..

ولشهرزاد موضع آخر أشرت اليه...

فلاترك هذا كله ولاعد لفترة كتابة هذه السطورفي السنوات

الاولي من الالفية الثالثة..

انني منذ عدة ايام هاجمتني بعنف حالة الحزن بأظافرها الحادة ,فاذا بي افعل العكس مما كنت افعله في حياتي ,النوم لساعات طويلة,، واليقظة من آن لآخر في حالة من الضيق والالم الفيزيقي والنفسي الشديدين..

لكن ,اين حالة التمرد هنا؟

....

وأذكرانني حاولت لفترة طويلة فهم دواعي التمرد الذاتي لدي او فهم بواعثة ,فاغرقت في العود الي القراءات النفسية التي توفرت إلي في المرحلة الاعدادية داخل مكتبة المدرسة او مكتبات دار الكتب واسترحت لبعضها ولم استرح لاكثرها، وطوفت بين كثير من الكتب والمراجع والمعاجم في سنوات اخري كثيرة ,غير ان التعبير الاساسي عن التمرد ظهر الي جانب اتخاذ مواقف حادة من المجتمع ,وضد النظم المغايرة للواقع ,فانني استرحت احيانا الي التعبير الشائع من ان احساسي بالاغتراب كان اكثر التعبيرات التي يمكن الاعتراف بها ,فقد كان الاغتراب سببا ليس في التغيير الذي عشت احاول ان يكون جزءا من حياتي دائما, وان الاغتراب ربما يفسر حالتي الحزن و القلق الشديدين اللذين

عشت فيهما جزء من تكويني النفس ؛ فعن الحزن كنت شديد الولع بترديد مقولة الرسول- ص- فحين أحبط تماما في إحدي المرات راح يردد الدعاء المعروف:

-اللهم.. و.. إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي..

. وعن الحزن الذي لم يلازمني هاتين الكلمتين اللتين كان الرسول- ص- أيضا يرددهما:

- الحزن رفيقي

وقريب من ذلك هذه العبارة التي كان يرددها السيد المسيح كثيرا:

- قلبي حزين حتي الموت .

وعلي هذا النحو ,كان الاغتراب أكثر ما عبر عن تكوين المتمرد علي كل شيء ,وهو خليط من مشاعر متباينة في مقدمتها الحزن والقلق الدائمان ,وربما الابتعاد عن الجماهير ,وعدم الاشتراك- في الغالب- مع عديد من الاجتماعات او المؤتمرات, كما لاحظت حين اصبحت مطلوبا لعديدمن المؤتمرات والندوات في فترة معينة من العمر..

وعلي اية حال ,فان التمرد ,ومظهره العام ,الاغتراب ,كان اكثر ما سيطر علي حياتي وتكويني وسلوكي ,وقابله في الاتجاه الآخر

الوعي والعمل بدأب واستمرار.

أى أن حالة الاغتراب لم تسلمني للانطواء الخالص المرضي ,كما إنها لم تسلمني للثورة المعلنة علي المجتمع ,وانما بدوت في تصرفاتي صامتا مبتسما، وفي نفس الوقت ثائرا محاربا..

كان المظهر العام لتكويني من الخارج يتناقض تماما ، المخبر الحقيقي لطيتي ,في الخارج كنت هادئا وديعا مبتسما في حين كنت من الداخل ثائرا غاضبا مغتربا مع عدم المبالاة..

علي انني لا أستطيع ان اؤكد هنا أن اغترابي الذي هو أهم سمات تكويني المتمرد الذى بدا اغترابا ايجابيا في جميع الحالات ولم يكن سلبيا قط ؛ فلم تنقصني في اية فترة من فترات حياتي الارادة والعمل ، ولم يتسلل الياس الي قط ، كما لم اسمح بان تظهر مظاهر العدوانية والثورة علي قط. ،غير ان حالة الحزن القاتم كثيرا ما كانت تتسلل الي ؛ حينا لسبب ظاهرواحيانا لاسباب غامضة قاتمة آتية من اعماق النفق الانساني الموغل في البعد في الزمان والموغل في البعد عن ظاهر اللحظة الحاضرة ..

وقد زادت(حالة) الحزن خاصة في السنوات الأخيرة, وضاعفت منها- كما اشرت لأكثر من مرة هنا- عدة نتائج

منهامحاولة الألتقاء باكبر عدد من الاجيال الجديدة ,ومحاولة الالتقاء بهم بمكتبى بالاهرام وبشكل دورى ,ومحاولة إحياء نوازع الجد والمعرفة فيهم ، وتركت لهم فرصة التعبير وتركت لنفسي فرصة تركهم يقرأون ويعبرون ويتصرفون بمكتبي الكبير بالاهرام كما يحلو لهم, .

وعلى أية حال ,زادت جرعة الحزن وتعمقت ,وتطورت لدي المشاعر التي كان يشعر بها العديد من المثقفين والشعراء علي مدي التاريخ ,ربما كان اقربهم مني المتنبي ,الذي لقي الامرين من معاصريه ,وتذكرت د. زكي نجيب محمود وانا اجلس بمنزله في الثمانينات ,ففي احدي هذه المرات وجدته ,في حديث عن هؤلاء الذين نعمل معهم من بني جلدتنا ,وهم اقسي علينا من اعدائنا الذين نعرفهم ,فالغرب سواء الغرب البعيد المعروف او الغرب الصهيوني القريب الذي نعرفه هو(الآخر) الذي يكن لنا قدرا هائلا من العداء لاسباب تاريخية ، غير ان الاكثر عداء اصبح هو القريب ,الكثير من بني جلدتنا الذين نعيش معهم وبينهم، ومع ذلك, ، فهم اقسي علينا من(الآخر) القريب، اذكر يومها ، وكنت مع حين قال زكي نجيب محمود:

– هل قرأت اليوم مذ لتي .. ؟

- نعم وعنوانها..

وقبل ان اهم بذكر العنوان آثر هو أن يقول بشكل كله مرارة وحزن ،قال :

- عنوانها (ويل للمعاصرين من المعاصرين)

وكان علي أن أصدق علي كلامه الذي زاد يقينه مع مرور الزمن ،ومع رحيل زكي نجيب نفسه ,لأظل اتذكر واعاني من هؤلاء المعاصرين ,واتذكر دوما بين شعر المتنبي و في هذا الوقت حين قال:

وســـوي الروم خلف ظهـرك روم

فعلـي أي جانبيـــك تـــميـــل

الحزن الثقيل النبيل إذن ,كان مبعثه هؤلاء الروم الذين نعيش بينهم ,ولا يعيشون الا في مواجهتنا

وربما كان لهذا علاقة بتكويني الفكرى اكثر، وبالتبعية ، في كتاباتي ،وهو ما اذكر معه حين بدأت كتابة نص الدراما الشعرى عن البطل أحمد عبد العزيز، كنت اترجم هذا كله ، وانا اصيح معه في كل فصل ..

فان حالة الحزن هذه كان يمكن- اذا استسلمت لآثارها- أن تصل بيني وبين حالة من(الجنون) نعم ,الجنون..

ومهما يكن، فأن الخلاص من هذه الحالة دائما كان أن ابتعد قليلا عمن يسبب لي كل هذه المشاعر مصرا على العمل

ان اعمل

اعمل باي شكل

وأذكر انني قبل منتصف السبعينات بقليل، عشت حالة(الحزن القاتم) المخيف هذا ،ولم يكن أمامي غير أن أترك نفسي فريسة لهذه المشاعر المخيفة، او ان اتوقف في الجانب الآخر-أن أحاول الفرارمنها بالقراءة او الكتابة....

في بدايات السبعينات ، وفي قمة ألمي وحزني الشديدين، وجدتني أحمل إلعديد من أعمال طه حسين وفي مقدمتهم اجزاء " الأيام "- وكنت جمعتها في مجلد ضخم- وأذهب الي احد المقاهي التي كنت اذهب اليها من آن لاخر بمفردي ، واجلس في ركن منها ،واقبض علي القلم الرصاص(المبري جيدا) وأغيب في كتابات العميد العميقة الرقيقة..

وظللت أفعل هذا لساعات من يوم لآخرحتي احسست انني بدأت أتجاوز حالة الحزن السرمدى التى كان من الممكن أن أكون فريسة سهلة لها

اذن ، الوجه الآخر للحزن القاتم هو العمل الجاد ، اكتشفت

هذا مبكرا ..

العمل اذن للفرار من كوابيس كثيرة او حالات قاتمة في مقدمتها الجنون او الموت ..

الجنون ؛ او الموت ..

كنت أجلس قبالة نجيب محفوظ في نهاية الثمانينات في أحد المشارب المشهورة في ميدان التحرير ,وفي الدور الثاني من هذا المشرب سألت نجيب محفوظ فجأة:

-إنني اهتم الآن بقيمة معينة وجدتها في بعض أعمالك

اجابني بسرعة وهو ينظر الى بترقب من خلف نظارته السوداء:

- ماهي؟

- انها(حالة) الجنون..

- نعم هذه حالة متغلغلة في كياني ، ولعل الكثيرين لا يعرفون أنني في سنوات عمري الاولي أصبت بمرض الصرع ,وشفيت منه, او قيل انني شفيت منه ,وكنت محاطا في سنوات عمري الاولي بهذه الحالة التي تشبه الجنون ,لكنني..

وبعد صمت طال اضاف:

-.. لكنني تغلبت عليها بالعمل. بالقراءة والكتابة، بالبعد عن

حالة تحمل بذور عدم العقلانية ،حالة تحمل لي الصمت الذي يصل بي- لو استسلمت - الي الجنون ،الوجه الآخر للصمت هل تعرف الجنون- صمت محفوظ وهو يكرر- الجنون..

وهنا تذكرت العبارة التي كتبها جيفارا الي مدير مستشفي نفسي في٢٦ مايو١٩٦٤(ها انا اتذكر التاريخ ،ذاكرتي اذن مازالت يقظة ;حدثت نفسي) ؛ اقول تذكرت هذه العبارة التي قالها جيفارا:

- صدقني ،المجانين هم الذين يقولون الحقيقة دوما

عدت بكياني الي محفوظ ثانية ،انه مازال يناجي,او يعترف ، او يتذكر ,اضاف:

- أذن ,وجدت في الكتابة معادلا موضوعيا للخلاص من هذه الحالة

- الوجه الآخر لعدم الكتابة هو الجنون، واضاف محفوظ بسرعة كانه يحمل هما ثقيلاً :

- او الموت

أذن بين الجنون او الموت أقف كما هو ملحوظ.

إنها(الحالة) التي استطيع ان ارصد لوجهي فيها..

وبعيدا عن التوقف عن(الحالة) التي اصبحت جزءا من حياتي،

فان المتأمل في فضاء(الف ليلة وليلة) يلاحظ ان الفضاء الرئيسي في(الليالي) انما يقوم علي دلالة الحكاية التي هي- بالقطع- الوجه الآخر للموت .. فمن خلال الحكي المستمر ,الذي لا يتوقف أبدا، نكتشف ان شهرزاد تحاول شراء حياتها بالكلام ,فالصيغة الرئيسية للسرد في الإطار الرئيسي انما تكون بهدف او بوسيلة للهروب من الموت..

إن الصيغة الرئيسية في الحكي داخل هذا الفضاء تتضمن- حين يتوالي السرد- صيغة جزئية اخري تقوم علي نفس المعني...

علي اية حال ,فانني استعيد هذا كله بسرعة وانا في الساعات الاخيرة الآن- وقت كتابة هذه السطور-.. الساعات الاخيرة من عام٢٠٠٢ فمنذ حاولت ان استيقظ في الصباح بعد ساعتين اوثلاث ساعات قلقة(كانت ساعات نومي المتقطعة طيلة هذه الليلة) ;احسست بهذا الفيض المخيف من الحزن الذي يسبق الجنون ..

الحزن الذي قد يكون رومانسيا ,والذي قد يكون- في الغالب- قاتما منطويا علي احساس يفيض(بالفجيعة)!!

والجنون الحالة التي تتربص بي ، او اسرع اليها في اوقات

بعينها !!

وظللت في هذه الحالة لساعات طويلة ؛ فلم اذهب الي العمل, ولم اغادر البيت ,ولم استطع ان استقر في مكان ، وشغلت بمشاجرات مع أبنائى ، نها الحالة الغريبة الحزن او الجنون ، الجنون او الحزن ، الارق الطويل ، الرأس المشتعل بقسوة ؛ ,وبعد ساعات طويلة ,حين هممت ان اعمل ,واعاود قراءة هذه الرواية التي بين يدي لسحر خليفة(صورة وايقونة وعهد قديم) بدأت اشعر بشيء من التوازن العصبي والعقلي..

حاولت ان اتغلب علي الصمت والفراغ والفضاء اللانهائي بالعمل قبل ان اصاب بالحزن الذي يودي بى الي الجنون، او الموت ؛ وكلاهما : الحزن او الجنون حالة للخروج من هذا العالم المتفجر حولنا بأوهام كثيرة

وهذه هي هيئتي التي ظللت أسيرا لها طيلة حياتي,وان كنت في نهاية العمر- الخمسينات - اكتشفت ان ثمة حزنا نبيلا او اقرب الي النبل بدا يتسلل دون ان اشعر علي وجهي ,وهو ما كان يعود- فضلا عن ثقل وطأة المعاناة اليومية علي جميع المستويات- هذه المشاكل الوهمية التي عانيت منها من عدد كبير ممن عملوا معي في صحيفة الاهرام ,خاصة، هذا والمناخ المشحون بالضعف

الانسـاني والقـيم الرديئـة التي زرعت في بلادنا في النصف قرن الاخير او استـزرعت وجدت صدي لها من كثيرين ,غير ان هذا له موضع آخر

والملاحظ ان حالة الحزن هذه وإن سعيت لاخفائها ,فقد كان يلحظها الكثير من القريبين مني.. غير ان الغريب في الامر كله ,ان وجهي في الغالب كانت ترتسم عليه ابتسامة من الهدوء ..

في حين كانت اعماقي تضج بالبركان العاتي العنيف صورة أخري من صور الحزن الذي امتزج بالالم والقلق معا ,كانت هذه الصورة التي التقيت بها وجها لوجه اثناء زيارتي لبيت الله الحرام في احد مواسم الحج.. وهو مـا أسـهبت فيه في المشاهد الذاتية السابقة ..

وهي مشاهد ادعو القارىء الكريم الى استعادتها من المشاهد الاولى ..

مشهد عود الي القلق

عن(الحالة)..

وما آلمني كثيرا هذه الأزمة النفسية المريرة العميقة التي مررت بها او مرت بي ,فتركت في ندوبا عميقة لم تغب عني قط.

او هذه الحالة التي لم تفارقني .

انها الازمة التي ترتبط بالقلق او تسمي بمسمياته

العادية دون اي مؤثرات ,وهو ما يرجعه العلماء عند اصحاب هذه الحالة الي انهم يعانون من نقص هرمون التستوستيرون الذي يوجد في الرجل خاصة ؛ مع أنه لدي في الحالات العادية يستمر في درجة عالية ، وهو ازاء ما يواجهني من ازمات يصل بدرجة القلق هذه الي اقصاه..

وهو ما يجعلني اعيش دائما- اثناء الازمات العابرة او الحياة الهادئة- في مثل هذه الحالة التي ذكرها المتنبي - احب الشعراء اليّ حين قال:

علي قلــق كـــأن الريــح تحتــي

اوجههــا جنوبيـــا او شمـــــالا

لا اكاد أستقر علي حالة(= مقام) كانني علي ظهر الريح ، اوجهها تارة الي الجنوب وتارة اخري الي الشمال ,فاذا كنت هكذا في الحياة الهانئة- وما اقلها- فانا علي هذه الحال العاصفة حين تأتي الأزمات وتشتجر القضايا وتشتد .

وقد عرفت القلق بأشكال كثيرة منها هذا الكمون اللاشعوري الذي يقبع من سني حياتي المبكرة ,وهو يطفو من آن لآخر قبل ان اصل الي الشكل الآخر الذي يدفع به حادث معين الي الطفو..

الاول هو مزيج من القلق الذي يتداخل ويتعمق بحيث لا يمكن تحديد مسمي محدد له والآخر محدد متحدد البواعث..

وسوف اشير الي القلق الاول ,القائم الغائم ,قبل ان أصل الي مثال واضح يثير القلق لكنه يكون مصدرا معروفا ومباشرا له

اولا:-

هذا القلق الاول هو مزيج خفي من القلق ، يمكن أن اجتهد فاعثر له علي ارهاصات تحليلية لدي علوم النفس السيكوبيولوجية او العقلية بجهد المقل

إنني أحاول هنا تفسيره في ضوء ما حاولت التعرف عليه..

استطيع ان اتامل طويلا لاصل الي تفسير لهذه الحالة التي تعتريني الآن ,نحن اليوم٢١ فبراير٢٠٠٣ في الثانية والنصف صباحا اسكن في اعماقي بطيئا وحدي بعد ان ذهبت زوجتي والاولاد لاهلهم ليقضوا الليلة هناك..

منذ ذهبا ، وقد مضي علي قرابة عشر ساعات ولا املك قدرة علي العمل ، ولا استطيع ان ازيح طبقات من هذا القلق الاساسي anxiety,basicو قلق الواقع realanxietyاصطلاح علمي اشعر معه الآن بالوحدة والالم والعجزوالضيق القاتم المرير ولا اكاد أتبين سببا معينا له.. إنه القلق الذي يفسر علميا بانه

يعود الي ازمنه سحيقة في حياة الانسان ,وهي ازمنة لا استطيع تذكرها جيدا او تذكر البواعث التي كونت هذه المشاعر وجذرتها ..

وهذا القلق الشعوري يمتزج- بالقطع- بنوع اخر من القلق اللاشعوري unconscious مما يؤكد اعلى البواعث الجذرية البعيدة في الزمن ,وهو احساس لا يتحدد في القلق كمظهر عام وحسب ,وانما في الاعتلاجات النفسية الرهيبة التي تتحدد في الحركة العادية ,قاسعي لفعل اي شيء اخر غير الشيء الذي اقوم به في هذا الوقت لاخرج من حالة الي حالة..

هكذا كنت أعيد- بتان- المشروعات الاورو- امريكية التي اعلن عنها منذ اسبوع في واشنطن واسبانيا ومناطق اخري من اوروبا, وفجأة ,احسست بهذا الشعور الواعي بالقلق الحاد الذي كان يغذيه شعور غير واع تماما..

انني اعاني من حالات في الاعماق البعيدة اكثر تعقيدا مما اظن ,مايصل بي- مع هذا القلق العاتى العنيف- الي حالة طفو مزمنة لهذه المشاعر او حالة يطلق عليها ايضا مصطلح يرتبط بالحالة العامة والخوف من استجابات خاصة في الذات ,بما يحدث هذا الشعور او الاصطلاح الذي يطلق عليه بطفو

القلق anxiety,free-floatingوعلي هذا النحـو أحس بحـالة القلق التي تقترب من عصاب ذاتي داخلي قد لايحس به المحيطون بي ,لكنه يكون دائما حاضرا في أعماقي ,مستمرا في مهاجمة مشاعري الطبيعية..

هذا القلق يصحبة دائما حالة من الرعشة والارتجاف واضطرابات القلب احيانا ,وربما يزيد علي هذا الا اعرف طعم النوم ,فاذا نمت ,فانا مستيقظ من آن لاخر علي فزع مستمر قاس ..

ورويدا رويدا أقترب الي هذه الحالة التي تسمي القلق العصابي الذي يعمق لدي هذا الحساس بالخوف والالم والحزن الشديد ,فاذا انا لساعات اجلس وحيدا غير قادر علي العمل ، لا استطيع القراءة ,فالأعمال الإبداعية متراكمة لدي من زمن بعيد, والكتابات الفكرية الجادة أعاني للاقتراب منها..

وهذه حالة يمكن ان يطلق عليها في احيان اخري شيئ اشبه بالقلق الموضوعي anxiety,objective وهو هذا القلق الذي يطرأ فجأة لسبب معروف حينا او لأسباب كثيرة مجهولة في غالب الأحيان .

المهم أن ألوانا كثيرة من أسباب القلق تختلط لدي حتي أننى

أستطيع القول أنه في مرات كثيرة يختلط لدي القلق العصابي بالقلق الحقيقي.. والقلق الشعوري بالقلق اللاشعوري ..

حزمة من المشاعر القاتمة تتسلل من التاريخ والجغرافيا والإشارات النفسية والعصابية ,فإذا بي لا أستطيع أن أمارس اي شيء..

وهو ما عرفته وأعيش فيه هذه الليلة.. وهو ما غرقت فيه أكثر الآن ، لان هذه الحالة التي اعيش فيها تتردد علي منذ وعيت, وهي تتردد من آن لاخر ,وفي الغالب اظل اسير لها او- بشكل ادق- اسعي لإخفائها والتحكم فيها..

غير انني في حالات قليلة لا استطيع التغلب عليها..

ومن ذلك ,انني قبل امس استبدت بي هذه الحالة ,وكنت في نقاش عام مع زوجتي ,فلاحظت انني حاولت ان اغمد سيف السكون في اعماقي القلقة الفوارة امام الزوجة التي لا تعلم شيئا ممايعتريني..

ولما كانت التحولات الداخلية تتكثف وتتصاعد ,فلم املك الا ان راقبت تصرفاتي معها ,وجدت نفسي في حالة صمت ,وتحديق طويل فيها ,وسمعتها- دون أن أشعر- تسألني عمايبكيني ؟ وما سبب كل هذه الدموع ..؟

التفت الي ناحية بعيدة, ، احاول أن أجفف دموعي دون ان تشعر ,تحس هي بازمات داخلية او نفسية تعتريني ,تحاول أن تخفف عني. غيرأن حالتي تظل كما هي ,مزيجا من القلق العصابي ,صورفرويد في بعض أبحاثه بكثيرمن التفصيل (يقول فرويد ان القلق العصابي anxiety,neuroticيتمثل في ثلاث صور:اما تخوف عام ,طاف مستعدا لمهاجمة نفسه مؤقتا واما تخوف عام طاف مرتبطا بافكار معينة.. واما بانواع من العصاب القاسية الاخري ..

الغريب ان هذا القلق لا أحس معه بالم حقيقي إلا نادرا ,وانما أستطيع القول أنني أستعيد معه لونا من ألوان الراحة التي أجدها في العزلة بعيدا عن المجتمع ,او هو إحساس من الضيق والراحة القلق والقلق النفسي الغامض..

وإذا كنت لا أعاني من هذه الصورة الاخيرة، فان الصورتين السابقتين من الرهبة الغامضة او التخوف من ماضي بعيد هما اللتان تتحكمان في حالتي.

ثانيا:-

وسوف أضرب مثالا واحدا لمثل هذه الازمات او القضايا ,فاذا انا في هذه (الحالة) المضنية المتعبة الي اقصي حد.

وباختصار ،كنت منذ فترة مبكرة منتبها شديد الانتباه الي محاولة الارتباط معنويا وفكريا بالجيل التالي لي او الاجيال التالية, علي اعتبار انه الجيل الآتي ,فقد كنت شديد التحرك لاحتضان هذا الجيل ,ومحاولة الوصل بيني وبينه ,باية صورة..

وكانت الفرصة قائمة حين اصبحت مسئولا الي- جانب(المقال)الذي اكتبه اسبوعيا بالاهرام-صباح الاثنين- عن الثقافة العربية بالاهرام الدولي ، فوجدت امامي مساحة شاسعة في الصحيفة لابد ان تكون تعبيرا شديد الصدق عن الوعي القومي, وكنت قد طرحت فكرة هذه المساحة بعنوان(ثقافة عربية) علي رئيس التحرير فوافق ، ورحت لسنوات أمارس هذا العمل القومي بشغف ,وأنا ارتبط كثيرا او احاول ان اربط العلاقة بيني وبين الاجيال التالية لي- في هذا الاطار- باثار وثيقة.

ومعذرة لذكر هذا الحادث المغرق في الخصوصية ,لكنها خصوصية نابعة من إحساسي الشديد بالواجب الملقي علي جيلي..

....

ولم اكن لا أرى بمكتبي في الاهرام الابين الكثير من ابناء هذا الجيل، ادفع هذا لقراءة لون معين من القراءة ,واحث ذاك علي

التعرف اكثر علي الثورة المعرفية ,وادفع الي هذا او ذاك بالكتب والملاحظات واعادة النظر فيمايكتبون ,بل انشر الكثير مما اراه معبرا عن هذا الجيل في هذه الفترة الصعبة من تاريخ الامة العربية او الفكر القومي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ..

كان الفكر القومى اكثر ما حرصت عليه ، واهتبلت الفرصة لكى اؤكده الأن ..

زادت حركتي، وتكثف نشاطي ,ولم اتنبه- الا بعد فوات الاوان- الي ان بعض هؤلاء الذين تبنيتهم او حاولت او امنحهم بعضا من الوعي الفكري والقومي ؛ كما اتصور انني احمله.. لم اتنبه الي ان بعضهم كان بغيضا اشد البغض وسيئا في تحقيق اهدافه بشكل اساء الي كثيرا،

وزاد من الامر سوءا ان عديدا من المسئولين لم اكن اتمتع في عيونهم- وهي سمة العصر- بمؤهلات تمكني من تحصين نفسي ضد الوشايات ,فراحوا يرسمون صورة سيئة لرئيس التحرير فى ذلك الوقت ٢٠٠٠-٢٠٠١ م وهو ما اصابني كثيرا في حركة (الترقى) ,بوابل من التجنى والخسارة المادية والمعنوية ؛ وتركت لأمارس كتابة المقالة الاسبوعية فقط كالفطر الغريب ؛ وفى حيز لا

يمشى مع خبرتى وطموحى ...

ولم يكن هذا كله امرا طارئا ,فقد كنت اقاوم بصلابة– منذ سنوات– مناخا فاسدا ؛لم استطع ان اصبح خيطا من نسيجه او احد الوانه الزاهية ,فقد رفضت ان اعمل ضمن هذه(الشلل) او فلنقل بالم؛ هذه(العصابات) التي تنتمي للثقافة ,في حين انها لا تملك منها ادني معرفة او وعي ؛ ربما كان هذا احد البواعث التى دفعتنى منذ حصولى على اطروحة الدكتوراه(في العلاقة بين المثقف والأمير) ..؛ لأواصل فى كثير من كتاباتى التعرف على "انماط" المثقفين ، ولدى طموح يعود الى اكثر من ربع قرن مضى لأنجز قاموسا يضاهي المعجم الذى نشر في التاريخ المعاصر ؛ لكنه الآن - كما اعدله بالفعل - عن(قاموس المثقفين) فى منهج جديد واطار غير مسبوق ؛ فمعرفتى للمثقف (كان هو عالم الدين فى تاريخنا الاسلامى) يدفعنى لأواصل العمل الذي اعمل له من حقبة بعيدة ، خاصة ، وانا المعاصر المعاصر لهذه الفترة من تاريخنا الحديث والمعاصر .

..

ووجدتني وقد عدت من الأراضي المقدسة في صيف عام٢٠٠١ وانا اعاني الكثير من التجني علي شخصي وفكري.

لم اكن لا توقف عن العمل ,وكثيرا ما كنت اركن لعديد من الكتابات او التفسيرات البيانية القرآنية ,غير انني مع هذا كله كنت مشغولا بشكل مكثف(بمشروعي) الفكري الخاص الذي انجبت فيه- منذ صدرت كتاباتي الاولي- اكثر من ستين كتابا ..

لم اجد الفراغ ,ولم اجدنى اعاني الوحدة ,وانما زاد الحزن مما يحدث حولي، وعرفت الالم الشديد وعاينته في هذا المناخ

وكثيرا ما كنت اردد دعاء الرسول الذي ينتهي دائما

(اللهم إن لم يكن بك غضب علي..)

ومع هذا كله لم أحس بوطآة الالم النفسى تخف

ولم احس ان قبضة الحزن الشديد تخفف من علي قلبي

ونال مني الضعف البشري كثيرا :الضعف الإنساني الحزين النبيل.

لقدضيق علي في كثير من السبل ..

وهذا التضييق كان يعود الي سنوات حين حدث اكثر من حادث مع رئيس التحرير ووشى بى اقرب الناس الى في العمل فأنتهى بى الامر الى تحويلى الي محقق قانونى(رئيس قسم التحقيقات)، وكادت التحقيقات تنتهى الي الفصل من صحيفة الاهرام (بما ينص عليه العقد) ، وهذا الحادث اشرت اليه اكثر من

مرة في السيرة لأهميته والأثر الذى تركه بى .

والواقع اننى وقعت في وشاية مشينة لينتهى بى الامر -وانا جالس امام مصطفي البرتقالي - رئيس قسم التحقيقات - بتصعيد الامر الى الفصل ، هكذا !! وكدت افصل - بالفعل - لولا ان د.عبد المنعم الشرقاوى - المحامي الكبير وشقيق عبد الرحمن الشرقاوى - تدارك الامر بسرعة ، وانقذنى من هذا المصير ، من الفصل من الأهرام ، وكان الامر يتلخص في ان المحامى الكبيير عبد الرحمن الشرقاوى زارنى في يوم ما بمكتبى ، وكنت اكتب مقالة فى ذكرى عبد الرحمن الشرقاوى ، فقد كنت قريبا منه ، وانتهيت من كتابين عنه، ؛ اقول زارنى الشقيق في ذكرى الراحل ، وعاتبنى لأننى لم اكتب عن الراحل في ذكراه ، دهش وانا اقدم له مقالتى التي انتهيت منها وهو يزورنى ، فطلب في شبه توسل ان يقرأها ، الليلة ، وسأرسلها لك الغد ؛ هكذا اكد لى ، لم استطع الرفض ، وفي الغد ؛ هذا الغد وجدت المقالة منشورة بالاخبار ، فأسرع اكثر القريبين منى بالعمل ابلاغ رئيس التحرير ، الذي بادر على الفور، لأضع في هذا الموضع بين يدى رئيس قسم لتحقيقات -وها هو القانون صريح بالفصل من الاهرام، وتعرضت لهذه الصفعة العنيفة في وقت تلفتت حولى

فلم اجد من يعينني ,(!!). ،مازلت اذكر هذا بألم شديد

استيقظت فجأة وانا مهدد بالفصل من الصحيفة التي اعمل بها اكثر من ثلث قرن لوشاية دنيئة، واكتشفت اننى امام هذا الواقع المخيف .

هذه هي الحقيقة اذن .وقد انقذنى الله من هذا المصير لعامل خارجى كان ورائه عبد المنعم الشرقاوى نفسه ، ولاتهم التفاصيل هنا قدر ما يهم هذا الواقع الذي عشت فيه فى هذه السنوات التى تشهد واقعا سائدا مخيفا ....

لا أملك - مثل الاخرين - الواسطة - انما الامر انتهى بالمصادفة ، ورحت استعيد الصفعة، والخداع الذي غرربى لاتلفت حولى ،

انا لا املك(واسطة) لاستعيد بعض حقوقي المهنية ,ولا اعرف(شخصية) كبيرة ,تمكنني من استرداد بعض ما فقدته.. في حين ان الموهبة او(الكفاءة) او(الوعي) او(الانسان).. هذا كله لم يعد معيارا للتقدير....وهذا كله هو السائد الآن ؛ اذن كيف يكون مصير عصامى مثلى ؟

لم تعد المعرفة وحدها كافيه لاواصل طريقي الذي فقدته منذ العشرينات من حياتي وحاولت العثور عليه في الثلاثينات

كان ينتابني(حالة) حادة من الالم النفسي :لم اجد امامى غير اللجوء الي بعض العقاقير

كانت حالتي تسوء الي درجة تصل بي في حالات كثيرة الي الجنون

وعلي هذا النحو ,عشت هذا الباعث النفسي المخيف لفترة طويلة من حياتى.... غير ان وجهي لم يتغير ابدا طيلة هذه السنوات ..الابتسامة المحايدة دائما ... وفي قرارة نفسي كنت اطوي مشاعري علي احساس موجع من الالم والمرارة.

كنت الجأ لجرعة كبيرة ممايزيل(حالة) الالم النفسي والقلق الممض ,كنت اسعي للهروب من حالات الاكتئاب العصبي التي هي- في الاساس- جزء من كياني وحياتى الآن- تتضخم وتزيد في حالات الازمة ,كنت احاول جاهدا التغلب علي حالات(الهياج النفسي) ,وكنت شديد الارق الذى لم يكن يفارقني ابدا ,فلم اعرف النوم قط في هذا الليل الطويل

ا لم اجد فى السنوات االأخيرة غير اصرارى للتغلب علي اثنين:

- تكويني الممتزج بالقلق والارق.
- الواقع الذي يزيد من ضراوته .

لم اجد امامي الان غير الاستمرار في السكون الى حزني النبيل لاتجاوز به حدة الانكسار النفسي والانساني ..

ومع كل ما اعتراني ,لم اتخل قط ,عن هيئتي اليومية , الوجه المتحفظ ,الاقرب الي الابتسام ,او السعادة ,العيون الساكنة المتحولة في كل اتجاه

في صمت وغموض .

لم اكن لاصل الي مكان النوم إلا بعد ان اتناول ما يمنحني الهدوء النفسي ويحول بيني وبين التذبذب النفسي الحاد..

كانت حالتي هذه ليست نتاجا لظروفي الانية الحادة وانما عمقتها هذه الظروف بشكل جهدت ان اخفيه عن زوجتي واولادي اولا ,والاخرين بعد ذلك

بيد ان الاستطراد اكثر حول هذا المفهوم قد يفسر لي- الى حد بعيد – حالة(القلق) التي كانت اهم سمات شخصيتي

....

وبالعود الي الوراء ,ساتذكر جيدا ,وبين يدى أوراق صفراء كتبتها من سنوات بعيدة-.. أن احساس القلق كاد يصبح احساسانفسيا حادا ,كان الاحساس يهبط ويعلو من آن لاخر بسبب ما مر وبدون اسباب مفهومة لما حدث.القضية ببساطة انني

اردت ان يتحلق حولي جيل من الشباب استطيع ان امنحه بعض خبرتي ووعيي في هذا العالم ، أردت جيلا أستطيع ان اؤثر فيه بالايجاب فاحاول تغييره ..

حاولت بشكل "يوتوبي" ، ربما ، احداث تغيير في الجيل الجديد، دهشت وأنا أسأل نفسي .. لكن ماذا حدث لهذا الجيل ،؟انه يقابل ما افعله بشررمضاعف ، لماذا ؟ لا أعرف الاجابة حتى اليوم ..

....

ومهما يكن ، حين احاول مجدداان افسر باعث القلق لدي اسعي الي عدة ملاحظات او تفسيرات منها:

- سمة الانطواء التي لاحظتها لدي منذ سن العاشرة ,فقد كنت عازفا عن التفاهم مع الاخرين ,او احس احساسا صبيانيا- ربما- ان مشاعري الدقيقة اكبر من ان يفهمها احد اقراني ,ومن ثم ,آثرت الانطواء علي الذات

- الميل العصبي الحاد الذي كان اهم سمات الذات لدي ,ففي الغالب كنت اكتمه فلايظهر واحيانا كان يفور المرجل فلا استطيع, فيطفو ,لكن في جميع الحالات ,لم اكن لأسمح له ان يصل الي اي احد من اقراني او من ذوي القربي..

انه الميل العصبي عند البعض ، اوهو الحس المرهف عندي كما اعزوه اواحاول تفسيره ...

– كان الشكل العام الذي يتجسد لظاهرة القلق علي وجهي تلك الابتسامة التي لا تختفي ابدا: كنت في الداخل اعاني المرجل العنيف وفي الخارج ارسم الهدوء والابتسامة الوادعة.. لم تكن هناك علاقة او تشابه بين الداخل والخارج

وربما لهذا كنت اعاني ازدواجيه ما ربما اجد تفسيرا لها هنا، فيمابعد..

كان القلق في اوقات المحن يمثل لي شعورا بشعا ,يحطم قلبي, فابدو شاردا في المنطقة التي كنت اقطن فيها وانا لم اتعد العشرين ,اذ كنت انطلق الي هذهٔ المنطقة الشاسعة التي لا يتخللها في الحى الذى كنت اقيم فيه غيرقضبان السكك الحديدية ,ولا يعكر سكونها دائما غيرصوت القطارات الاتية من هنا وهناك علي فترات ,وكثيرا ما كنت استيقظ من تاملي وصمتي علي صوت القطار القادم خلفي بغير تمهل فانحرف قليلا بعيدا عن طريقه قبل ان يبتلعني..

. كنت قلقا لشيء أعرفه مرة ,لكنني كنت قلقا لمجهول لا اعرفه آلاف المرات..

وقد سعيت كثيرا في هذه الفترة لاكشف عن سرّ هذا....

اذكر انني فعلت هذا في تلك الفترة المبكرة- لاعرف سر هذه المشاعر الدفينة الثائرة من آن لاخر ,حاولت ان اعرف نوعية هذا القلق واصله في علم النفس ,فعرفت ان القلق العام General Ahxietyوهو ذلك القلق الذي يتخلل طبيعتي فينعكس في كل شيء بما يشبه القلق العائم الطليق .FreeFloatingانه نوع من القلق الغامض الذي لا استطيع ان اسبر غوره لتعريفه ,انما احاول عبر ما تقدمه لنا ادبيات علم النفس ان افهمه او افهم به ذاتي ,فكثيرا ما كنت ابدو معتدلا ,وكثيرا جدا ما كنت احس- فجأة- ان هذا القلق يتلبسني بشكل غامض(كالجان) لا اعرف سببا واضحا له فلا استطيع أن اتخلص منه قط ,فمن المؤكد انني كنت اخضع لهذه القوة المتجبرة بلاهوادة ,فاقع صريعا لها في كثير من الاحيان.

على انني بالبحث عن سبب يقربني من الفهم ,رحت اطرق الابواب اكثر ,فاذا كان هذا النوع من القلق العام ظاهرا محددا في مظهره الخارجي- على الاقل- ,فان التحديد Specificيظل في المرتبة الاولي ,فان هناك نوعا آخر لا استطيع ان اجهله يستبد بي يبدو اكثر وضوحا من مبعثه وهو جهازي العصبي الحساس..

علي انه في الحالتين ,كنت احس باحساس القلق العاتي يستبد بي ويستمر لدي لوقت اكثر بكثير من اي وقت آخر ,او يتملكني لفترات طويلة لا تقارن بجانبها فترات الهدوء او السكون...

كانت فترات السكون عندي متلاشية او تكاد..

وبقدر ما كان هذا الاحساس يسيطر علي بقدر ما كنت احاول ان اعرف السبب -كما اشرت- وقد توصلت في مرة الي ان بعض علماء الانثربولوجيا يذكرون ان الاكتئاب الحاد يرتبط باختلالات جنينية متوارثة من الازمنة البعيدة ,غير انني لا اتذكر أن احدا من عائلتي عاني هذا الغول العاتي ابدا ,فقط ,كنت من عائلة يغلب عليها نوع من الغضب الذي ياتي بسرعة ويمضي بسرعة ,غير ان هذا الاحساس الذي كان يقترب بي من حافة الجنون احيانا كاد يكون علامة لمشاعري الخاصة والدفينة ..

واذكر -في سنوات حياتي الاولى هذه الحالة من التخيل والانقلاب العاطفي والاستمرار الغامض لأشياء تسكن في عقلي الباطن ، ومن هنا ، كانت اقرب الحالات الي، كما اظن ، هي حالة من حالات الجنون في درجاتها المتباينة ، او هي غموض الكيان الانساني حتى اليوم ..

ومهما يكن ، لأجاوز هذه المشاهد المتباينة ، لأقترب بسرعه من مشاهد اخرى من السيرة ، اكثر ادراكا للواقع ، وابعد من الذات الغامضة القابعة في هذا المجهول، في هذا الكيان .....

(١)
دراما المثقف المعاصر
شهادة

شغلنى المثقف العربى المعاصر كثيرا

وبالأحريى شغلتني مشاهد المثقف طيلة حياتى ؛ عرفته قبل ان اقترب منه في الدراسات الاكاديمية بالجامعة ، عرفته داخل التاريخ وخارجه ، وعرفته - اكثر - حين شغلت في اطروحتى ألجامعية - لاكثر مكن مرة - وكتاباتى الفكرية - فيمابعد- لاكثر من مرة ، فى داخل مصر وخارجها في الوطن العربي او في العالم الغربى ...

عرفته في نهايات القرن التاسع عشر ، وعرفته في نهايات القرن العشرين، ثم عرفته ، واقتربت منه اكثر في بدايات القرن الحادى

والعشرين الذى أحاول ان ارصد منه الآن بعض المشاهد من هذه الدراما المعاصرة ..

ففى حياة المثقف المعاصر مشاهد كثيرة التقينا بها ،

ونلتقى بها من ان لآخر

مشاهد عامة وهوامش أكثر من دالة ؛ تعود بنا الى دراما المثقف المعاصر ..

لنتمهل عند بعض هذه المشاهد ...

– مشهد

اكثر ما حيرني في الفترة الأخيرة العبارة التي تطلق الآن كثيرا علي المثقفين ,وتصفهم ,بالخيانة ;رغم أنني عرضت– علي المستوي الشخصي– والعلمي– لهذه القضية كثيرا ,بل اكاد اجزم انها تمثل مساحة شاسعة من(مشروعي) ,اقصد طبيعة العلاقة بين المثقف والسلطة ,ومن ثم ,موقف المثقف.

ورغم انني كنت اكثر ابناء جيلي عنفا ضد المواقف السلبية للمثقفين ,فانني في الفترة الاخيرة االحظ ان هذه السلبية تلفت النظر اكثر

ان المثقفين الآن يقفون علي هاوية الغياب والسقوط ؛بل انهم – بالفعل –غابوا وسقطوا ؛غابوا عن الاحداث الضخمة في حياتنا وسقطوا عن القيم التي كان يجب ان ينافحوا عنهاوالتي قضي عدد كبير من المثقفين من قبل في المدافعة عنها..

فبعد ان كنا نبدي اعجابنا لهذا المستوي الواعى

لهذا المثقف او ذاك ,فاذا بنا الآن امام فراغ بعيد ,يخيل للبعض فيه انه يري المثقف، يغيب- وان لم يخل هذا الخيال من ضباب الرؤية وسراب الحقيقة-.

اصبح للمثقف العربي الآن وجه قبيح أو غريب ..

لم يعد المثقف الذى نعرفه يدافع عن كلماته او يبذل قوه لتاكيد هذا الراي ,او يفعل ماينبغي ان يكون من اجل ان يوجد مايكون..

ومع هذا ,او رغم هذا ,فان العصر الذي نحياه الآن قبل نهاية القرن العشرين من السبعينات حتي الآن شهد تغييرات نالت النخبة السياسية ونالت من النخبة المثقفة

لقد مرت الأحداث حولنا منذ ثلث قرن بل وربما منذ اكثر من نصف قرن(منذ نكبة ١٩٤٨)دون أن نتنبه الي الهوة القادمين اليها جميعا ؛دون ان نتنبه الي إن التاريخ لا يعاقب الطغاة فقط ؛ بل ويعاقب الغافلين والمتغافلين ايضا

....

لا اقصد من هذه المقدمة تبرير مواقفهم ,او البحث عن تبرير لمايمكن ان يسمي(بخيانة المثقفين) وهو مفهوم ردده اكثر من مثقف غربي ، ووصل في الادبيات المعاصرة الي استبداله بمفهوم آخر هو(موقف المثقف).وانما قصدت اعادة النظر لفهم دور

المثقف في ضوء الواقع الذي يحياه والمناخ الذي وجد نفسه فيه, خاصة ,اذا كان هذا المثقف ينتمي الي الطبقة المتوسطة التي تتطلع بتكوينها الي(الحراك الاجتماعي) الي اعلي ومن ثم تتوفر لديها فرص كثيرة انعدمت فيها في الفترة الاخيرة- للتغييرات الحادة علي مستوي العالم ؛ خاصة وعلي مستوي وطننا العربي علي وجه اخص- انعدمت فيها فرص الخلاص ووسائل الجهاد بالشكل الذي كان سائدا من نصف قرن او يزيد..

واذكر انني في اطروحتي الاولي عن علاقة طه حسين والسياسة ان رحت ألوم طه حسين بشكل عنيف خاصة في الاربعينات فما فوق ، حتي انني ما أن انهيت اطروحة الماجستير حتي كنت انشر هذا الكتاب ومالبثت ان نشرت بعده كتابا آخر اسميته- وللاسم هنا دلالة كبيرة-(صعود المثقف وسقوطه- طه حسين وثورة يوليو) ,ومالبثت في طروحتي الثانية لنيل الدكتوراه ان جاوزت الرصد الرأسي للمثقف - طه حسين - الي الرصد الافقي - كل المثقفين بين عامي١٩٤٥-١٩٦٨ مارا من العصر الليبرالي الي العصر الناصري الي آخر وزارة شكلها جمال عبد الناصر قبل رحيله..

مشاهد كثيرة هنا لايمكن أن اغفلها .واذكر انني اثناء

المناقشة- وقد كان د. صلاح العقاد مشرفا- رحمه الله - ان ظل احمد بهاء الدين وقد كان مناقشا للرسالة - يلومني كثيرا علي هذا اللوم الشديد للمثقفين الذين تنازلوا عن الكثير،وهادنوا بعد تمرد..

واذكر انني في الفترة التي كنت علي وشك الانتهاء فيها من هذه الدراسة ان جلست الي حسن يوسف(رئيس الد يوان الملكي بالنيابة).. وبعد حوار طويل عن المثقفين راح يهدأ من ثورة الغضب لدي- وكنت ما ازال اعيش فترة تمرد الشباب وغضب الباحث العاصف .. وراح في الوقت نفسه يبرر عديد من مواقف المثقفين المهادنين باسباب كثيرة لعل من بينها الوصول الي سن متاخرة لدي هذا المثقف او ذاك ومن ثم كان الحرص- في نهاية العمر- علي مايعينه علي حياة هادئة لا يتوفر فيها- كما كان الحال- سلاح المثقف الشاب ومهادنة السلطة الليبرالية.. الخ

....

اثار هذا كله في هذا الحوار الذي قراته اخيرا في صحيفة(العربي) الناصرية٢٢ سبتمبر٢٠٠٢ وراح فيه عالم جليل احترمه عن بعد هو د. عبد الباسط عبد المعطي . أن راح يتحدث عن المثقف بشكل اشعل في اكثر جذوة الحيرة التي كنت اعيشها في

السنوات الاخيرة

من ذلك ان د.عبد الباسط راح يعرض للمثقفين باكثر من اسلوب..

انه مثلا يقول هذه العبارة في الماضي كانوا يتهمون الناصرية "باهل الثقة واهل الخبرة بل بالمحسوبية والعلاقات الخاصة التي اخذت شكل المصاهرة والاحتفالات.. اليوم لا توجد آليات واضحة بل تنكشف قضايا الفساد لاسباب اخري"

ما معني ذلك، ، معناه انه رغم ما كان يحسب علي ثورةيوليو من تفضيل ولاء علي ولاء(رغم ان عبد الناصر اختار عددا من الفنيين) ;فان الامر لم يصل- كما نراه اليوم الي هذا الحد من المسخ الذي يطلق عليه المثقف ,والذي يذهب بنفسه لينتمي لهذه الجهة او تلك ,ويحارب بسيفها وياكل خبزها ,وكأنه لا جهة اخري غيرها اجدي او اكثر اهمية ,وفي هذا الخضم ,تناسي المثقف القيم التي من اجلها كان من قبل يعترض او القيم التي جاء من اجلها الي هذا الكون(قال فولتير مثلا: جئت الي هذا العالم لكي اعترض).

وبهذا ,لن نعدم الان مثقفين ليس لهم ولاء الا لمصالحهم الخاصة ,وبالتالي ,فهم ينتمون لجهات سياسية ليس لها ولاء الا

لمصالحها الخاصة ,وعلي هذا النحو ,فان تقابل الولاءين- ولاء النظام وولاء المثقف- اكثر تحديدا بدرجة المصلحة الذاتية :او فلنقل بشكل اكثر صراحة بشكل من اشكال الانتهازية المبتذلة..

اذن ,فهي الانتهازية لدي المثقف التي تركت لنا اما مسخا مهادنا واما مسخا تابع لشلة تقوم فيها المصالح بدور المباديء والفعل الايجابي

واما مسخا يظهر بمظهر الفارس المعارض ؛ حتي إذا ما اقتربت منه ,وراقبته لبرهة ,حتي تكتشف انه يمتطي فرس دون كيشوت للتعمية وهو وا ع تماما لمايراد به ، وهو وا ع اكثر لما يراد به، وهو وا ع اكثر لما يريد ..

كما لانعدم هنا هذا المثقف الذي لايقع تحت عجلات نظام بعينه ,وإنما ينتمي الي حزب معارض او في هيئة تشريعية او تنفيذيه اختار فيها ان يكون مستقلا ,اي يلعب دوره ديموقراطيا ...

. ان كل هذه الانماط لا نعدمها اذن في مثقف اليوم ,خاصة, هذا المثقف المستقل ,وهو الذي يلاحظ هنا استاذ علم الاجتماع موقفه فيصوب اللوم اليه(انا ارفض لوم المواطن العادي البسيط ، بل اوصوب اللوم اليّ.. وكذلك المثقفين حتي المستقلين لا يتفاعلون..

ماذا فعلوا؟

ونترك السؤال لنعود الي هذا المثقف الذي يتهم بالخيانة, فندافع عنه- ونحن نعلم في قرارة أنفسنا- انه لا يستحق دفاعا .. فندافع عنه قائلين: وهل يستطيع هذا المثقف ,في ظل مناخ له مثقفوه ومصالحهم ومصالحه- اي النظام والمثقف- ان يقوم باي فعل معارض..

انه اذن يقوم بفعل معارض لمصالحه الخاصة

واذا تجاوزنا المصالح الخاصة ووصفناها بالأنتهازية ,فاننا ازاء سؤال آخر يفرض نفسه علينا هنا

هل- وهذا هو السؤال- اذا قام المثقف المستقل- دعك من المتمرد- باي فعل معارض او ناقد للنظام يستطيع بعدها ان يقف في صف هذا النظام ,او يصبح ممن يمتلكون جزءا من القرار السياسي او جزء من السلطة(التي هي مركزية في مصر) ويستطيع ان يحمي افكاره- وليس نفسه-

ان الصورة الاخيرة لهذا المثقف انه سيدفع به بالعنف او بالهدوء الي الهامش وفي هذه الحالة الاخيرة ,لن يستطيع ان يفعل اي شيء

اي شيء لشخصه او للجماهير

انه - بوضوح شديد -في الهامش ،بعيدا عن المركز ,,وبعيدا عن اقطابها البعيدة ,انه دفع به دفعا الي خارج الدائرة ,الي مربع الصمت..

وهل يستطيع بعد ذلك ان يحول المربع الي دائرة؟

هذا سؤال يظل معلقا ايضا .

غير ان تعليقه يظل درسا بليغا للمثقف الذي يحاول ان يلعب دوره ،ولن يلعب هذا الدور الآن ابدا ,فقد تمت الازاحة به خارج الدائرة ؛بل ان الربع قرن الاخيراو الثلاثين عاما الاخيرة اكدت لنا انه تم تهميشه بالفعل. ، وان المثقف نفسه لم يخل في مواقفه وتصرفاته من مسئولية جسيمة.

لم يعد المثقف داخل الدائرة او قريبا من المركز بعد...

ان عصر(العولة) وتطبيقاته الشائهة في المجتمع العربي لم تترك للمثقف اي حيز ليقوم بدوره المطلوب منه في اخطر فترات تاريخنا

لم يعد المثقف- المتمرد او المعارض- من بين ابناء الفئات الحاكمة

ولان المثقف ينتمي الي فئة وليس طبقة ,فقد ظل خارج دائرة التاثير في هذا العصر الذي عسكرت فيه عاصفة "مانهاتن "الكثير

من المصالح والحدود والمساحات والقيم.. وكان من بين من تم تطبيق(استراتيجية) العم سام تهميش اي معارض للنظام العالمي الجديد.

لقد تغيرت المعادلة في النصف الاول من القرن العشرين عنها في الفترة الناصرية في الخمسينات والستينات من هذا القرن الماضي ,لنري معادلة اخري وتحالفا جديدايقبض علي خيوط القوة في العالم اليوم.

وهنا نلتقي مع راي عالم الاجتماع اخيرا حين يقول بوضوح شديد(طبيعة التحالف القائم حاليا هو كبار البيروقراطيين والصفوة السياسية وكبار رجال الاعمال)

هل غادر احد منهم دائرة المركزية الحاكمة الي مزبع التمرد الاجوف ..؟ هل ينتمي احد منهم الي فئة المثقفين الفرسان السابقين في ملاحم المعارضة ..؟

الاجابات كلها معروفة وقائمة ؛ لكن يظل السؤال الذي يحيرني مازال هو: هل حقا المثقف خائن ؛ الآن ..؟

واذا كان ذلك كذلك: فهل يمكن تبريره ..؟ واذا كان يبرر: هل يمكن قبوله؟

واذا كان.. فلنصمت ولنفكر بعيدا عن دائرة التحالفات

القائمة..قبل ان نصل الي المربع الاول

.... فلنتمهل عند مثقف آخر ، مشهد آخر من هذه الدراما.. القاتمة ..

مشهد

ولنبأه بهذا السؤال الذي يبدو بعيدا :ما هى العلاقة بين سقراط ونانسي عجرم ؟

هذا ليس سؤال للبحث فيه عن اجابة و؛ انما هو سؤال من نوع هذه الاسئلة التى تبعث على الدهشة لتصل بنا الي العجب الذي يصبح – مع الوقت – بدهيا – ولاتتحول البدهية لتصبح نوعا من انواع القنوط ..

وكثيرا ما يعيد القنوط هنا أنتاج أسئلته الساذجة : لنعيد طرح السؤال قبل ان نحاول الأجابة عنه ..

ماهى العلاقة بين سقراط ونانسي ؟

....

ولكي لا اطيل علي القاريء الكريم، او اصل به مع البدهية الي القنوط والاسئلة الساذجة.وما الي ذلك اعود به لاشير الي ما لفت نظري على الشبكة الدولية اخيرا، حيث تشيع ابواب(الروشنة) للشباب ، وحيث نجد كتاباتهم التي تتفرق بين

التعليقات الغاضبة او ردود فعل "الشاتينج" المدهش او هذه النكات التي اصبح لها بابا كاملا .. احد ابواب النكت في الشبكة ، نعثر علي الكثير منها – اي النكت – وتقف بنا الكثير منها عند منطقة الضحك الاسود المرير والذي لايخلو من دلالة لاولى الامر الآن(من يدلنا عليهم .. ؟) ..

ان احدى النكات – وما اغربها واكثرها – نكته تقول بالحرف :

– سقراط يرفض تناول السم مع الكوكاكولا
بعد ان عرضت عليه الشركة مليون دولار.

تصوروا كيف ان هذا الرجل الذي نسمع عنه في الحضارة اليونانية يرفض مليون جنيه(مليون جنيه ، ياالهي) لأنه يرفض تناول هذا المشروب الذي يقدمه له العم سام .. اما العلاقة بين سقراط هنا ونانسي عجرم فهى بسيطه (!!) ،نعرفها نحن مدمنى الشراب الامبريالي(وعذرا لوقاحتي) ونلقاها في سيناريوهات على الشاشة البيضاء ونراها في شوارع العواصم العربية خاصة من المحيط الي الخليج . لأن نانسي عجرم ونحن نعرفها جميعا لم ترفض الطلب الامريكي بان راحت تتناول المشروب لكن بعد ان حصلت من الشركة على عدة ملايين ..

نانسى عجرم – لمن يتابع نشاطها الجم الوقور– منذ بدأت علاقتها بمكاتب الكوكاكولا واخواتها العالمية والمحلية حصلت على ملايين كثيرة حتي ترضي ان تنهل من هذاالمشروب ويشكل مثير علي ان يكون هذا مصوراعلى زجاجات المشروب وعلب المشروب وهي كثيرة نلتقي بها اليوم في كل مكان ولا نهتم كثيرا بنتائج مؤتمر عقد الايام الماضية فى البلد العربي تونس تحت عنوان"القمة العالمية لمجتمع المعلومات " وفيه رفض اصحاب الكولا المشروب الاملي التنازل علي السيطرة الكاملة على ادارة الانترنت عالميا فى كاليفورنيا حيث مركز شبكة الشركة الخاصة بالانترنت ICANN ..

لنترك اخبار المؤتمر الذي حقق فيه اصحابه نصرا كبيرا بالسيطرة علي الشبكة العنكبوتية ، فمالنا والويب الآن ، ولنعد الي نانسي وملايينها فهو حديث اكثر اشراقا وليونة واغراء.

ان نانسي – كما كثيرات غيرها الآن في ا الفضائيات وخارجها– هم الاهم من هذا الحديث الثقيل في زمن اصبحنا نجدفيه اخبار اولئك اكثر شيوعا واحدث تتابعا علي الشاشة البيضاء والزرقاء وعلي الحيطان والاعمدة والشركات المهمة في اكثر من بلد عربي ..

وإخر اخبار نانسي ا أنه في دايات القرن الحادى والعشرين الذي نعيش فيه إذ أنها حصلت من مكتب واحد بمصر وهو مكتب اقليمي واسمه(نانسي كولا المكتب الاقليمي) من الشركة الام مبلغ قيمته مليونا جنيه مصري، لا لاستمرار "تدوير" اعلاناتها في المشروب او علي الاعلانات وانما فقط لهدف واحد هو "إنتاج أفلام ترويجية لكوكاكولا"..

ملايين ، ملايين ، ملايين ..

وتستطيع عزيزى القاريء الإطلاع علي ملف نانسي عجرم في المخابرات الامريكية ورجالها ممن يعملون بالاقتصاد الامبريالي وان تعود الي موقع نانسي عجرم علي الويب وهو موقع ضخم فخم بحكم مافيه من ملايين ومشاريع تزيد حصيلتها علي اية ميزانية عربية ..

نستطيع ا أن نعود الي ذلك على سبيل المعرفة او الفضول فقط لنعرف او لنري كم حصلت امرأة عربية بمواهبها الكثيرة علي ملايين ؟،

وكيف تنقل تأثيرها من المشروبات الي اشياء كثيرة مقصودة بذاتها ، وبنفس الارقام المالية الخيالية بهدف(عجرمة) العديد من القيم والافكار والفضائيات المفتوحة والميادين الواسعة

والعلاقات بين الافراد في شرقنا العربي علي الاقل .وفي اي قطر عربي علي الاقل ..؟

وكيف انصرفت اكثر من فتاة عربية عن قيم المجتمع الايجابية الشائعة الي قيم اكثر اثراء ، اقصد اكثر ثراء ورفاهية ، فالمواهب التي تمتلكها مثل هذه الفتاة يمكن ان تجلب الكثير وليذهب الوعي والقيم والعقيدة الي بعيد ؟

هذه اسئلة تصلنا الي اسئلة اخري عقيمة قديمة :

اذن، فان ماتحصل عليه نانسي عجرم لا يحصل عليه اكبر كاتب يحصل - حتي - على جائزة نوبل فى اي فرع منها ..؟

ونعيد طرح السؤال بشكل اكثر سذاجة :

اذن هل معنى ذلك ان ماتحصل عليه نانسي عجرم لا يحصل عليه اكبر كاتب او مثقف عربي علي هذه البسيطة؟

اذن ، فان ما تحصل - وحصلت عليه بالفعل- نانسي عجرم يفوق ما حاولوا تقديمه لسقراط؛ اكبر فيلسوف اغريقي او عربي وربما عالمي حتي اليوم..

اليست نانسي - اذن - اكثرثراء من اي كاتب يردد الواجب ، او مثقف يسعي الي الفعل الايجابي ، أوأي انسان يسعي - مهما تكن موهبته - للوصول الي مرتقي هذا اللون ؟

ازعم انني لا اعرف اجابات لمثل هذه الاسئلة الصعبة الغامضة ، فالساذجون امثالي لا يعرفون السبب المهم والاهم الذي جعل سقراط البائس الذي ينتظر حتفه يرفض تناول السم مع الكولا بعد ان عرضت عليه الشركة مليون دولار.

بعد هذا كله ، مازلت اقف في المربع رقم واحد وانا اعود واعيد طرح السؤال :

ماهى العلاقة بين سقراط ونانسي ؟

او..هل تقول الآن ألمثقف العربى؟

مشهد

بدهية لابد وأن نشير اليهافى هذا المشهد قبل ان نحاول ان نجيب عن هذا السؤال ..

هل تقول المثقف العربى؟

والبدهية هنا ، هى ، ان السؤال عن الفنان هو سؤال مضمر - وليس بلاغيا - عن المثقف العربي ، فالفنان العربي الواعى الملتزم بقضايا امته ، عبر الشاشة الزرقاء(الفضائيات) او البيضاء(السينما) هو هو المثقف الذي ينتمي الي امته ، ويحاول ان يعبر عنها او بها عما يحيط بها من ويلات او نكبات ونوبات أكثر ما نراها الآن في اوطاننا العربية (لاحظ اننا لا نقول وطننا

عـالعربى) - كـمـا يتردد حـتي الآن - وانما هـي او طـان عربيـة ، تترامي متـعثرة علي الخارطة التي ننسبها للخرائط التقليدية ، او هـي ضـمن (الشرق الاوسـط الكبير) او (الشـرق الاوسـط الاكبر) كما عرفناها في المشروعات الغربية حيث تترامي هذه الاوطان من مراكش غـربا والي اقصي شـمـال افـغانسـتان او حـدود ا روسيا الجنوبيـة حـيث تسـتـحوذ علي قـارات ثلاثة مع ذلك ، مـازلنا نري اوطاننا (لا الوطن العـربي) كـمـا كنا نطلق عليـه هو الذي ننتـمي اليـه الان ، وهو الذي نشـيـر اليه هـنا حين نشـيـر الي الفنان او المثقف ، فقد اصبحت بلادنا شظايا في محيط الالفية الثالثة ..

وهو مـايعود بنـا الى المثقف او الفنان (وهـمـا صـفـتـان) لاسم واحد الآن ..

من البدهيات الى الواقع ،نعتذر عن هذه البدهية - المقدمة - لنعود الي سؤالنا :

أين المثقف (= الفنـان العربي) فيما نعانيه الآن من نكبات مصـيرية على المسـتوي الانسـاني وليس بالضـرورة علي المسـتوي العـربي ، فكمـا نعلم جـمـيـعـا - ايضـا - ان القرآن الكريم كان يخاطب من نزل عليهم بعبارة (ايها الناس) ..

ومن هنا ، فان السؤال ينصرف :

اولا : الي المثقف الواعي سواء اكان في الفضائيات او الاستيديوهات او في صفوف المعلمين او الفقهاءوعلماء الدين ..

وثانيا : مازال سؤالنا ينصرف الى الانسان(ايها الناس) ، والانسان هنا بشكل عام هو الانسان العالمي ، وبشكل اكثر عمومية وتدقيقا ايضا الانسان المسلم ، ثم هو - قبل هذا وبعده - الأنسان العربي المسلم ..

اين هو المثقف الانسان اذن ؟ أين هو المثقف الفنان اذن ؟

ان البدهيات او التحديدات قادنا اليها ما نراه الآن في حياتنا الثقافية ، فما نراه او نعرفه جميعا أن النكبات تحيط بنا جميعا دون ان يتخذفينا - على الاقل - هذا المثقف موقفا واضحا او فعلا ايجابيا ينبثق من طبيعة الوعي المعربي المفقود ..

وقد تنبه الي هذا البعض ، لكن لم يتنبه اليه االكثيرون ..

وسوف اضرب مثالا واحدا لمن تنبه اليه فنحن نضرب مثالا اخر - واحدا - لمن لم يتنبه اليه .. ومن تنبه اليه واحدا او اكثر فرادي في حين ان من لم يتنبه اليه كثيرون فى حياتنا العربية ..

ومن النوع الاول عرفنا هجوم الفنان مارسيل خليفة ضد الفنانيين او المثقفين عقب كارثة (تسانومي)، بل ان عقد مؤتمرا

صحفيا - كما نعلم - في بيروت بمناسبة انطلاق عمله الايجابي القصير(ونحن نحب الحياة) التي يعالج فيه بوعي كارثة تسانومي ، فقد تقدم بكليبب او فيلم قصير تضامن فيه مع ضحايا اسيا لم تزد مدته عن سبع دقائق، ولا تظهر خلاله سوي مشاهد دامية من المأساة تتهللها مقطوعة موسيقية لخليفة .

ان المثقف هنا روع لماحدث فى تسانومي ، ثم روع اكثر لما حدث للمثقف ، فالكارثة فادحة غاب فيها - كما تقول التقارير الرسمية الدولية - اكثر من ثلثمائة الف قتيل ..

ولا نريد ان نقول ان هذا العدد من المسلمين

ومع ذلك - او رغم ل ذلك لم يتحرك احد من مثقفينا الكبار او الصغار ، لم نجد في صفنا او شاشاتنا من يقوم بعمل وا ع او فعل ايجابي يصب في ضمير البشرية - وليس المسلم او اليهودي او المسيحي -

وهو مايطرح السؤال ، البطل ..من البطل ؟

بل العكس هو ما عرفنا ، ففي حين خرج اعلامنا المرئي او المكتوب باخبار عامة تصف هول المأساة ، ثم عم السكون ، فاذا بنا امام اعلان ، بل اعلانات ضخمة تلقى فى تيار الاعلانات المشبوهة التي تلغى الاحساس بالماساة التي نعيشها سواء في

غزة – الارض الفلسطينية – او العراق او الماساة التي لا نعيشها كما راينا فى كارثة آسيا في حين ان الدراسات العلمية تشير الي اهمية الاعلانات على وعي المشاهدين ووجدانهم عبر الكليبات او الاعلانات المباشرة ؟ ؟ ؟؟ ...التي اصبح تاثيرها علي المشاهد يفوق الثمانين في المائة..

وخاصة ، اذا انصرف الامر الي فنانة مشهورة مثل نانسى

ان هذه الفنانة اصبحت مشهورة في (الكليبات) العربية العبقرية في الالفية الثالثة ، وقد تركت وراء ظهرها كل ما يقال او يجب ان يقال – فضلا عن الفعل – لتقوم (بعد الحصول بالطبع على مبالغ طائلة هائلة) لاعلانات الكليبات والويب بوجه خاص حيث تتوزع الإعلانات علي أعلانات كثيرةتبدأ بالصدور والعيون والصبايا ولا تنتهي بالتعاقد مع شركات عربية كثيرة بل وشركات العم سام في اعلانات او حملات اعلانية مشهورة من مثل بيبس ميوزيكا او شركات الكوكاكولا فى عصر العولمة السعيد.

ان نانسي اصبحت هى (البطل) .. وغاب دور المثقف العربي ؛ اليس كذلك ؟

ان هناك العديدد من المواقع التي تتعدي المئات التي تخصص لهذه الكليبات و،الاعلانات التي تسهم الي جانب الاعلانات

المتنوعة في هذا الواقع السيء التي تصبح فيه نانسي هى البطل- بالفعل -وتتواري رويدا رويدا كارثة او مأساة مثل هذه المأساة التي نعرفها في بلاد الاسيان؛ أو مثل مأساة المثقف العربي ؛ هل تقول المثقف العربى؟

......

هل نحتاج الى مشاهد اخرى

فلنتمهل - ايها السادة -حتى نصل الى مشاهد اخرى دامية فى دراما المحرقة.

(٢)

سيناريو الحزن: وادى النيل

حين أحاول استعادة أهم ماأحزننى على المستوي الشخصى لا القومى وحسب - .. يتداعى الى بسرعة سيناريو وادى النيل الذى يعلن على الملأ بسياسة (الفوضى الخلاقة) التى تعد استعادة لطفرات الخسة الامريكية فى نهاية الاربعينات اثر اعلان الصهاينة دولة لهم واذا كان الحديث عن غياب فلسطين حديث حزين فان مايحدث وحدث وسيحدث للسودان يجسد هذا الحزن السرمدى فى كيانى منذ فترة مبكرة من حياتى حين كنت استمع الى انات جدتى الريفية عن السودان ابان اضطرابات مصر وبعدها لنيل الاستقلال وقد وجدت نفسي وانا استعيد قبل ان تجف الاقلام او تطوى الصحف استعيد ما يحدث للجنوب فى السنوات الاولى من الالفية الثالثة ..

وكيلا اغرق فى الحزن السرمدى القانى فسوف انقل هنا عدة مرات من الكتابة عن السودان وهو يغرق فى الدنوب قبل ان يستعيد شيئا من الامل ويكاد يغيب منه مرة اخرى في دارفور ..

وقد يكون من المهم هنا أن استعيد هذه الكتابات على النحو

التالي :

(١)

كدنا نقول عن الفرح والحزن....

هكذا لولا ان المقام لايتسع هنا لذلك ;ففي حين سعدنا فيه بفوز الطيب صالح بجائزة ملتقي القاهرة للابداع الروائي قبل ايام ;عمنا الحزن الشديد حين تذكرنا احداث السودان ,القطر العربي الذي يواجه الآن اشرس حملة(امبريالية) لتغيير هويته بعد البدء في تحويله الي جزرمتناثرة بدءا من الجنوب صعودا الي الضلع الثاني من المثلث في دارفور مرورا بكثير من دوائر الاشتعال او الانشغال بقضايا وهمية عن المصير المحتوم التدويل بموجب الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة!!..

أقول لازمني الفرح لفوز كاتب عربي كبير والحزن لتغييب قطر عربي كبير عبر٢١ عاما ماضية من الحرب في الجنوب وسنوات آتية لايعرف غير الله عدها في قري ومعسكرات دارفوروغيرها

واذا كان الحزن هنا يترك تأثيرا اكثر من الفرح الذي شهد مشاركة وشهادات اكثر من مائة وخمسين ورقة بحثية وشهادة في هذا الملتقي ,فان هذاالحزن يدفع بنا نحن في المنطقة العربية خاصة والسودان تشكل(ظهرنا) العاري في مصر علي وجه

اخص.. الي تأمل(حالة)هذا الوطن العربي الذي يرسم مصيره- العم سام والعم بول وبقية اعمامنا في الغرب.. ليصبح- الحزن- هو السمة الغالبة بعد اعلان فوز الكاتب الكبير هنا ,وليس هناك..

بل ان اعتماد الجائزة للكاتب الكبير هو- وهو ما احسسته بقسوة- مغالبة الحزن- بشكل ما- لما آلت اليه امتنا العربية ,فها هي السودان- بعد غيرها من اقطارعربية..- تواجه مصيرها في المخطط الجديد.

ومن قرأ اتفاق نيروبي اخيرا بين الحكومة السودانيةوالحركة الشعبية لتحرير السودان(لاحظ دلالة هذا الاسم) ومن يعرف ان اكثر من٧ آلاف شخص اجنبي من خارج السودان سيوجدون بعد شهر من اتفاق الجنوب(عقد في بدايات يناير) يعرف اشياء اخري لا يمكن ان تمر مرورا عابرا علي المواطن العربي الواعي او تخلو من دلالة الاتفاقات التي نعرف ان لها دورا محددا في التاريخ الحديث.

من ذلك أن لدينا في هذه الاتفاقية انه سيتم عمل بعض الاجراءات لتصبح السلطة المركزية بين الجنوب والشمال ثم دمج الجيش ليستمرفي التطور الذي اريد له خلال٦ سنوات يستطيع الجنوب في نهايتها اجراء استفتاء علي الانفصال.. كما يحتوي

الاتفاق علي اشياء اخري لا يمكن ان تمر مرورا عابرا كأن سيبقي علي تطبيق الشريعة في الشمال دون الجنوب ,ويتم تقاسم الثروات منها النفطية خاصة.ويصبح قائد هذا التمرد جون قرنق نائبا لرئيس الدولة!!! وما الي ذلك ما يدرك معه- دارس التاريخ- ان الاخطار تحيق بهذه الاتفاقية او بمستقبل السودان كما هو الحال في عديد من الاتفاقات التي وقعت علي ان يتم الاندماج بعد فترة او حقبة وكانت تنتهي- في الغالب- بالانفصال..

وما يقال عن الجنوب يقال الان وفيمابعد عن الشرق- دارفور- فلا شك ان القوات الغربية ومبشريها وجنودها تأتي الي السودان بتسميات مختلفة ,وان سكان دارفور اصبحوا يدركون ان الحل السياسي لابد آت وانه آت مع القوات الاجنبية في تدخلات ليس لها مكان او زمان ,بل ان الاحداث تكرر نفسها في الشرق كما كررت نفسها في الجنوب ,وترشح لها مناطق جغرافية اخري في انحاء السودان..

هو ماردده وزير خارجية السودان نفسه حين ابدي انزعاج بلاده لمثل هذا التدخل الاجنبي خاصة ,وهو مايعنيه عندما تقوم دولة محددة بارسال سلاح انتهاكا لقرار مجلس الامن لاقليم دارفور وتدريب المتمردين فيه فان ذلك يهدد الامن القومي

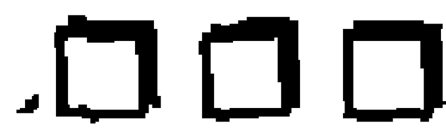
السوداني والافريقي والعربي ,وبالتالي فان ما تقوم به اسرائيل يقلق الحكومة السودانية..

الواقع المحزن جدايقول ان السودان الآن يشهد انقلابا علي الفكرة العربية بشكل شبه كامل ,فالحركة الشعبية في الجنوب لاتتحدث عن انتماء عربي وانما بانتماء مسيحي غربي صريح وافريقي واضح بعد ملايين من القتلي والمذابح ,و(التجمع المعارض) في الشرق لايتحدث عن مثل هذا الانتماء ,وانما يتذرع بالانتماء الاسلامي المختلط بمايقرب من نصف مليون قتيل و٦.٢ مليون لاجيء فضلا عن المهازل والمذابح التي يرتكبها الغرب.

بل ان رصد تصريحات قرنق نفسه ترينا ان مايحدث في السودان سينتقل الي مناطق كثيرة ,فاننا- يقول- نهتم ايضا بقضية جبال النوبة وقضية الشرق وحلفا والخرطوم نفسها , ويستطرد في تصريح آخر وحوض النيل الازرق ومنطقة ابيبي..الخ

وكان اكثر مالفت نظري وآلمني هنا- علي المستوي الشخصي- ماصرح به قائد الجنوب لاكثر من مرة ,من ان السودان في المقام الاول هو افريقي وليست له اية علاقة اخري بالمنطقة ,انه لا يتحدث عن سودان عربي ,كما لايعنيه ان يتحدث عن وعي(استراتيجي) للمنطقة في مواجهة الغرب الذي لا تخلو اية اتفاقية

من اصابعه ,كما انه يعرف اكثر من غيره التدخلات الغربية في الجنوب قرابة ربع قرن الاخير كان لزيادة اشعال هذه الفرقة بين جنوب البلاد وشمالها. ان السودان- ياسادة- يواجه الآن باجندات متباينة: اجندة(الانقاذ) في الشمال حيث ثقافة مركزية اسلامية عربية ,وفي الجنوب حيث ثقافة انجلوفونية مسيحية متنافرة ,وبافكار الحركة الشعبية لمعارضة الوجه الاسلامي العربي في الجنوب فضلا عن هذه القوي الشعبية- كما تسمي- غير الممثلة في بروتوكولات السلام والتي تنطلق من اجندة اخري ترفض التوجه الحضاري وترفض البديل الافريقي الي آخر ما يردد أمامنا كل يوم..



.. حين تنامي الي الخبر، جاءني من الذاكرة النائية صوت احد اعمامي في الخمسينات وهو يترنم بهذه الكلمات التي كان يرددها في شبابه

في الاربعينات ؛ وقد كانت نغمة سائدة:

يامقلي خالص علي الصواني

يالوز بلادنا يافول ياسوداني

الحمد لله الي أتينا

ولقينا في سكتنا تسالي
قرب يامرقس ويا أمينة
أهو بتاع الفول أهو جانا
خد ياجدع يابتاع الفول
وريني فوله من اللي معاك
اخلص بس الناس شايفاك
دا اللي يعرف ابوه ليقوله
تملي المصري الناس بصين له
يامنا خايف تكوني نسياني
ونسيت يامصري ياسوداني
دا ارجع تقول كده تاني
بذمتي وديني وايماني
هما العوازل قالوا أم عادوا
عمر المصريماينسي سوداني

(٢)

مازال الحديث عن الطيب صالح يثير فينا الكثير من المواجع علي مايحدث في جنوبنا العربي(السودان) امام المؤامرات التي تحيط بنا جميعا من اقصي المغرب في افريقيا الي اقصي المشرق في اندونيسيا ,مما يذكرنا بالمصير الذي يعمل له حثيثا مشروع

فيه عن الديمقراطية والحرية وحقوق الانسان وتمكين النساء.. وما الي ذلك مما يحول المنطقة الي(تفتيت) وليس(تقسيم) يذكرنا بسايكس بيكو.. خاصة ان متمردي دارفور هذه المرة مازالوا في موقف العناد من الحكومة المركزية في الشمال ويميلون الي تصاعد الموقف اما برفض المفاوضات التي تطرح عليهم في(ابوجا)لانهاء المشكلة او بالادعاءات المستمرة بسوء الاوضاع الامنية والانسانية من جانب الحكومة في الشمال.. وما الي ذلك مما يشير الي نية مبيتة لإعادة(سيناريو) الجنوب علي مراحل!!!-

وهو مايحدث الآن- بالفعل- ونسمع صداه ,ليس في دارفور وحسب ,وانما ,في نداء المتمردين للرئيس بوش مرة والي اللجنة الدولية مرة اخري..(هل هذا معقول!!)

... بنقول مازال الحديث عن الطيب صالح- بكل وعيه وتاريخه الروائي الشامخ- يعود بنا الي مايحدث في السودان اليوم ؛ والملاحظة الجديرة بالتأمل هنا ,انه برغم ما يحدث للسودان ,فان السؤال الذي وجه اليه الطيب عما يتعرض له السودان ,فابدي حزنه الشديد حين قال بحزن شديد .. لكنني بكل تأكيد متألم لما يشهده وطني من ازمات وحروب واضاف في بطء شديد وانا , اري ,ان اتفاقيات السلام ,ظلمت الشمال ,كثيرا ..

وانتهي التصريح الوحيد للطيب لجريدة يتيمة ,لتستمر عمليات الاحتفال بفوزه بالجائزة ,ويستعيض المتحدث اليه او السائل له بمايحدث في السودان في كثير من الصحف او الفضائيات بالجائزة التي حصل عليها .. وهو ما يستمر معه صدي مرارة الطيب صالح بظلم الشمال في اتفاق الجنوب ,وهو ماردده منذ ايام الصادق المهدي رئيس حزب الامة السوداني المعارض وامام الانصار حين اشار الي ضرورة احداث توازن في اتفاق السلام السوداني..

وهو مايعود بنا الي ابعد من الجائزة مرة اخري.. وهو مايعود بنا الي المصير المشئوم الذي يمضي اليه السودان الشقيق في هذه الفترة الحرجةالتي تمر بها الامة العربية بمنعطف خطير فقدت فيه الكثير من اسلحتها ,واغفلت فيه- الكثير- من قيمة الوعي(بالكتلة) وان كانت تتنوع في الداخل فان تماسكها الخارجي يحول بينها وبين السقوط في هوة التردي او التغييب في هذا الزمن الذي لا يعترف الا بالقوة ,والوعي الكامن وراء القوة ولدينا امثلة كثيرة علي ذلك..

واذا كان ما حدث في الجنوب- وقد اشرنا اليه سابقا- يضرب مثلا كبيرا لتقاعس ابناء اليوم من العرب في ترك السودان

الذي لا نستطيع ان نلغي فيه ايضا مسئولية الحكومة السودانية ايضا ,فان امامنا- كما نكرر بكثير من الالم الدامي- مأساة اخري غير ماحدث في الجنوب ;وهي مأساة مايقع او مايوشك ان يقع الآن في دارفور..

ان أمامنا مأساة دارفور الآن وقد تفاقمت باحتقانات شديدة ازاءالمجتمع الدولي مرة والمجتمع العربي مرات غير ان مسئولية الحكومة الحالية في السودان الآن تستحق العتاب الأول ,فالحكومة القائمة الحائرة اخيرا في موقف سيىء ,اذ قدمت للاتحاد الافريقي كل ماطلبه منها لتنشيط المفاوضات مع متمردي دارفور وانجاحها من منح حكم ذاتي لدارفور بصلاحيات واسعة ومشاركة للمتمردين في الحكومة المركزية الانتقالية ونسب في نسبة الثروة تتماشي مع قاعدة اتفاق الجنوب ,ومع ذلك فان قيادة المتمردين رفضت هذا الطرح وكل طرح سابق له..!!

وعلي هذا فنحن امام صورة سريالية اخري- وفي اوراق المخرج اوراق اخري لم يأت اوانها بعد-.. لمايحدث في السودان:

- ان حكومة الجنوب(بقيادة قرنق..) لم تستقر بعد في قناعاتها وما حصلت عليه.. وهو ما ينعكس- بالتبعية- علي مايحدث في دارفور.

- وان الحكومة السودانية في موقف مرتبك ومحتار بمايحدث سواء التهديدات التي تأتيها من الامم المتحدة بعقوبات او بتمردبغيض من دارفور.

ثم هي امام مشروع امريكي خرج في اوقات المساومات الامريكية الداخلية والخارجية- ابان الانتخابات الامريكية- بضرورة معاقبة هذه الحكومة.

- وهناك ايضا تعنت المتمردين انفسهم علي حكومة السودان وهي تهتبل فرصة مساعدة الجنوب لها وتأرجح مواقف الامم المتحدة تحت ضغوط امبريالية كثيرة

وهناك- كما اشرنا- موقف الامم المتحدة نفسها ,وهو موقف اقل ما يوصف به الآن العودة الي التسميةالاثيرة لدينا لهذه المنظمة الدولية التي افتقدت الكثير من صلاحياتها ممايمكن ان تسمي(بالامم المتحدة الامريكية) ;ان ابناء السودان من الواعين المتنورين اصبحوا يدركون الدور السلبي الذي تلعبه هذه الهيئة الدولية ضد وحدة السودان وتماسكها دون ان يتجاوز ذلك دور الفكر الي الفعل شأن مثقفي العالم العربي اليوم..

وهو مايعود بنا الي مارردده الطيب صالح وغيره من المراقبين الوطنيين من ان اتفاقيات السلام ظلمت الشمال كثيرا فاتفاقات

السلام تلك مع ماتحمله من نموذج قابل للتكرار والاستمرار ;فان ثمة واقعا آخر اكثر قسوة يجري في دارفور ,ويتبناه حركتان متمردتان ترفضان- حتي- عقد اية اتفاقية سلام رغم كل الوعود والعقود والاتفاقات التي تقدم لهم ,فيبدو ان حركتي دارفور المتمردةتحرير السودان والعدل والمساواة مازالتا تسعي الي الضغط علي الحكومة السودانية- رغم كل مايقدم- واهتبال اية فرصة للنيل من قادتها حين تطلب محاكمة(البشير ونائبه) علي حد التصريحات التي تطلق من آن لآخر..!!

المهم في هذا كله ,أن هذه الحركات في دارفور- وغيرها- التي تظهر كالفطر في انحاء السودان تتمثل في هذا الخطر ,الذي اعلن عن نفسه ,او الذي مازال يعقد اتفاقات الغدر وراء ستار ,وتسعي لتأكيد مطالبها ضد(السودان) الوطن الجريح ,وآخر هذه المطالبة المخادعة ان تتولي الامم المتحدة رعاية المفاوضات علي ان تدخل في المفاوضات(وتأمل معي عزيزي القاري هذا الشرط) ان تدخل في المفاوضات الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي ,وهو النص الذي اعلن عنه متمردو دارفور ويصرون عليه في عناد شديد..

وتبقي علامات تعجب من داخلنا ,او تبقي حيرتنا التي تتحول-

بشكل خـاطف- الي الواقع الذي يعكس المؤامـرة ,وليس ضـد السودان وحسب ,وانما ضد الامة كلها.. فالتنوع لا يخدم التوحد, والجماعات الداخلية الاثنية او الثقافية ترفض التعايش في فلسفة الدولة الواحدة القوية في

حضور حقوق المواطن ايا تكن انتماءاته والديموقراطية التي زاد الحديث عنها الآن لا تصل الي القطر الشـقـيق ,وفي هذا الاضطراب الكبير ضد المركزية لا نسمع شيئا عن ضرورة تغيير الدستور الشمولي واجراء انتخابات حرة وتأكيد مواد الدستور مع حرية تكوين الاحزاب وحرية

المسيرات وتأكيد دور المجتمع المدني وما الي ذلك ممايردد في مشروعات امبريالية لم يأت وقتها بعد في السودان.. الي غير ذلك..

تري ما الذي يحدث في السودان الصغير في جنوب مصر ,او ما الذي ينتظر السودان الكبير داخل السودان وخارجه بدءا من اقصي المغرب في بنجلاديش الي اقصي المشرق في بنجلاديش

ما الذي يحدث

من يجيب عن هذا السؤال ;ايها السادة الأماجد!!

(٣)

..مازالت دراما السودان ,أقصد ,وادي النيل ,وهي دراما محزنة دامية تسيطر علي كياني ولا أكاد انصرف عنها الي دراما اخري كفلسطين او العراق اولبنان وسوريا الا لاعود اليها ثانية..انها تسيطر علي كياني بمرارة شديدة طيلة الوقت..

ويزيد الامر مرارة أن نتذكر ان وادي النيل لا يمثل البوابة الشرقية ,كما كنا نردد دائما حين نتحدث عما يحدث في فلسطين, وانما تمثل بقية مساحات البيت المصري العربي نفسه. فوادي النيل يمثل في الجغرافيا المعاصرة مساحة تمتد' من السودان جنوبا حتي القاهرة شمالا' أما في عمق التاريخ فإن المساحة بين مصر وجنوبها تتماهي فيه المساحات حتي لا نعرف حدودا معينة حتي ان الواقع يحدثنا ان نهر النيل يمتد من اقصي منطقة ينبع فيها في الجنوب ويصب الي اقصي منطقة يصب اليها في الشمال ,وعلي هذا النحو فان ما يحدث في- أو- لوادي النيل الان يحزنني..

اقول هذا كله لما يرد الينا دائما من احداث مأساوية تنال هذا الجزء الجنوبي من وادي النيل فما كدنا نري مهزل اتفاق الجنوب الذي فقد فيه الشمال الكثير كما لاحظ الطيب صالح حتي تتناثر

مناطق اخـري تعلن الحـرب الاهليـة ضـد السلطة المركـزية في الخرطوم فبعد جبهة الجنوب ها نـحن نقرأ عن جبهة الشرق وحركة متمردين التي تسمي نفسـها العدل والمساواة وتحرير السودان في دارفور وبعد ان تمت اتفاقية نيفاشا بكينياو ماسميت اتفاقية سلام الجنوب حتي تعالت الاصوات من الخارج ,خاصة ,تدعوالي تطبيق نموذج نيفاشا ولو علي حساب وحدة السودان وسلام اهله..

وفي حين تنتشر مناطق المعارضة في انحاء السودان نعجب من رد الفعل العالمي فنعلم ان مجلس الامن الدولي!! لاحظ عزيزي القاريء ان هذا المجلس في (منظمة الامم المتحدة)..

هذا المجلس يقر مشروعية لقرارغربي بغالبية١١ صوتا من دون اعتراض ,وامتناع٤ عن التصويت علي احاله قائمة مغلقة تضم١٥ شخصا من المشتبه في ارتكابهم جرائم في دارفور علي المحكمة الجنائية الدولية وذلك بعد مجادلات استمرت طويلا انتهت باعفاء المواطنين الامريكيين ,وليس في دارفور ,حدها بل في اي مكان في العالم ,ومن تبعات هذا القرار وهنا يطرح السؤال نفسه: لماذا الاجابة هي لمحاكمة مجرمي دارفور الاكثر من هذا ان المشروع الفرنسي تم تعديله في اللحظة الاخيرة بعد رفض فرنسا

ان يسكون القرار باسمها فيقدم بالفعل تحت اسم بريطانيا وينادي بمحاكمة المتهمين في المحكمة الجنائية الدولية ,وهو مادفع البعض ليعلقبوضوح ان اصحاب العضلات بامكانهم الحصول علي اي اعفاءات يريدونها واضاف ان الاحالة الي المحكمة الجنائية الدولية هي اداة لممارسة التفوق الثقافي وفرض ثقافة المتفوقين لقد بدا واضحا استخدام المحكمة الجنائية الدولية كسلاح ضد الدول الفقيرة..ان القرار يتقدم باسماء عدد كبير لمحاكماتهم.

طيب ومن هم الذين تتقدم باسمائهم الدول الخارجية لمحاكماتهم انهم اعدادا كبيرة من المسئولين السودانيين في السلطة المركزية في الخرطوم واحيانا مايضاف اليهم اسماء اخري ممن يسمون بالمعتدين او المجرمين!!

ولابأس ان نعرف اول امس ان وزيرة التعاون التنموي الهولندية تجري مباحثات في الخرطوم من اجل ما يحدث في الخرطوم لا بأس من ان تعلن انها وغيرها من دول غربية اخري- سوف ترسل مراقبين عسكريين من خلال الامم المتحدة او من خارجها وكما نعرف.. ولا باس ان نقرأ هذه الايام عن بعثة اخري وقوات اخري اجنبية تدخل الي السودان(او تنتشر في ست

قطاعات) كما تنقل لنا وكالات الانباء ونعرف ان مساحات شاسعة من السودان ستصل اليه هذه القوات الاجنبية لحماية اهل دارفور هكذا يردد داخل دارفور وخارجها.

ان الذي اعلن بالفعل انه سيتم انتشار قوات اجنبية في الخرطوم وجوبا وملكال وجبال النوبة وأبيي وكسلا.

ونسمع مرة أخري ان هذه القوات جاءت بناء علي اتفاقية شاركت فيها الرموز السودانية بينما يتردد بشدة في اكثر من مكان أنها جاءت والكلام هنا علي لسان ممثل القوات الدولية لتأخذ زمام المبادرة في السودان أو غزو البلاد والسيطرة عليها.ونعجب لمايقال ويحدث ـ بالفعل ـ في جنوب وادي النيل لم يكن الوقت قد مر بعد حين عرفنا أن قرار١٥٥٩ قد أعلن في المشرق العربي ضد سوريا في بيروت وكان الهدف منه انسحاب القوات السورية من الأرض اللبنانية(الامم المتحدة) وذلك بتفويض البعثة الدولية فيما تراه في السودان ضد السوٌدان.

ان الخطر لا يأتي هذه الايام فقط وانما نعرف منذ عقدين ان قوات من الولايات المتحدة الامريكية ومجلس الكنائس العالمي دخلا الي جنوب وادي النيل من أوسع ابوابها: اريتريا واثيوبيا وكينيا واوغندا ومن أبواب النفوذ السياسي والاغاثي والاعلامي

والعسكري والعمل يتم من الغرب بدأب شديد ضد اخواننا في الجنوب وسط التصريح مرة بأن وادي النيل يحتاج الي قوات عسكرية لتستقر فيه وتحافظ علي الامن ومرة اخري للحفاظ علي البعثات المسيحية المستمرة والتي تعمل بدأب ونشاط ؛وامامنا الجنوب الآن لنري كيف استطاعت هذه القوي المعادية ان تقوي الجبهة الجنوبية(وقد اصبحت مسيحية) وتعلي من العنصرية الافريقية(وقد رفضت الانتماء العربي) وهذا وغيره اصبح معروفا ومعلن عنه بغير مواربة.. ان هذا كله يعمل- ومازال- في السودان.. ومايحدث الآن له مرجعية لايمكن اغفالها من التاريخ.

فمن يعود الي التاريخ القريب يلحظ كيف سعي الانجليز منذ احتلوا مصر في نهايات القرن التاسع عشر للنيل من وادي النيل بدءا من السودان وكيف كان الدأب الغربي حثيثا للفصل الثقافي والجغرافي بين القاهرة والخرطوم وعلي سبيل المثال وهو مثال واحد يذكرنا الآن بمايحدث في أقطار عربية كثيرة في الخليج تسعي فيها الدول الغربية لتعميم الانجليزية ؛فقد سعت انجلترا إبان الاحتلال للسودان لتكون لغة التعليم في السودان بالانجليزية بل اصبحت كل العلوم في كلية جوردن ابان الاحتلال الانجليزي للسودان في القرن الماضي تدرس بالانجليزية عمليا ونظريا.

فتاريخ العرب والاسلام يدرس باللغة الانجليزية وتاريخ السودان بل كل شيء ماعدا اللغة العربية والدين يدرس بالانجليزية كما لاحظ ابراهيم الحاردلو في كتابه المهم عن الرباط الثقافي بين مصر والسودان.

والوثائق بين ايدينا التي تؤكد علي الدور المشبوه لانجلترا في جنوب الوادي ;كما هي الوثائق في المحكمة الجنائية الدولية الآن.

وهو سيناريو نقترب منه اكثر

(٤)

....ررأينا أن مايحدث في السودان اليوم له جذور في مؤامرات الاستعمار الغربي في القرن الماضي ,و كيف ان التحالف بين الاحتلال الانجليزي(الاستعمار) أمس والولايات المتحدة(الامبريالية) اليوم ليس غير نتيجة طبيعية لحركة الاستمرار الاستعماري في وادي النيل

راينا أيضا كيف ان تاريخ العرب والاسلام كان يدرس في النصف الاول من القرن العشرين باللغة الانجليزية وتاريخ السودان بل كل شيء

ماعدا اللغة العربية والدين يدرس بالانجليزية(كما لاحظ ابراهيم الحاردلو في كتابه المهم عن الرباط الثقافي بين مصر

والسودان)بل نكتشف اكثر من هذا انه بعد ان عمت الانجليزية في السودان بدأ المسئول الانجليزي في طريق السعي الحثيث للفصل بين الجنوب السودان عن شماله

في اربعينات القرن العشرين ليسلك طرقا كثيرة ادت فما بعد الي التغاير والتباين الثقافي والعقيدي بين الجنوب والشمال في السودان نفسه فان المسترنيوبولد رئيس مجلس الكلية-' درج علي ارسال الطلبة السودانيين من الاقليم الجنوبي في السودان الي جامعة ماكرري بلندن ولم يرسل منهم احدا الي كلية جوردن والوثائق في هذا كثيرة منها تلك الوثائق التي عثرنا عليها في السفارة السودانية بالقاهرة قبل ان يرحل عنها الانجليز: والوثائق الكثيرة حول هذا لم تعد سرا منذ زمن بعيد.

وعلي هذا النحو كانت السياسة الغربية(= الانجليزية) في النصف الاول من القرن العشرين ان لم يكن قبل ذلك تسعي بدأب شديد الي(نجلزة) ابناء وادي النيل في الجنوب اما لفصل جنوب السودان عن شماله وهو كان هدف يعمل له بدأب ونشا كبيرين واما لعزل التعليم بالسودان عن التعليم في مصر والاتجاه به نحو الغرب قبل عصر(العوله) التذي تعرفنا عليه في بداية الالفية الثالثه الان.

والتاريخ يقول لنا ان لامصر ولا السودان من ابناء وادي النيل تقاعسوا علي المستوي الجماهيري قط ضد كل هذه الحملات التي استهدفت النيل من وحدة وادي النيل وقد يكون من المهم ان نمر مرورا سريعا امام صفحة من التاريخ المصري قبل ان نصل لصفحة من التاريخ السوداني لنري الي اي مدي ظلت مصر والسودان يعيان جيدا انهما ينتميان الي شجرة عربية واحدة لا يفصل بينهما اي فاصل .

....

التاريخ يقول علي سبيل المثال- انه في يوم٢١ فبراير١٩٤٦ وازاء ما يحدثه الاستعمار الانجليز استجاب الشعب في مصر للجنه وطنيه للمطالبه بحقوق سودان وادي النيل استجابة كاملة فشلت حركة المواصلات وتوقفت جميع المصانع والمحال التجارية عن العمل واقفلت المدارس والكليات وخرجت من الازهر مظاهرة كبري شاركت فيها الجماهير اتجهت الي ميدان الاوبرا حيث عقد مؤتمر شعبي اتخذ قرارا ت بمقاطعة المفاوضات واساليب المساومة والتمسك بالجلاء عن وادي النيل والغاء معاهدة١٩٣٦ واتفاقية١٨٩٩ الخاصة بالسودان وعرض القضية علي مجلس الامن ,ثم زحفت المظاهرة الكبري الي ميدان قصر النيل(التحرير

الان) حيث الثكنات البريطانية(موقع فندق الهيلتون الان) واتجه قسم منها الي ساحة عابدين وكانت المظاهرات تسير في نظام تام دون اعتداء علي احد

ودون التعرض للممتلكات او جنوح نحو التخريب فاذا ببعض السيارات العسكرية البريطانية المسلحة تخترق الميدان وسط الجماهير فجاة لتدهم بعضهم تحت عجلاتها وكان الرد الطبيعي من جانب المتظاهرين رجم الثكنات البريطانية بالحجارة فرد الجنود البريطانيون باطلاق الرصاص فكانت مذبحة اثارت ثائرة الجماهير فاشعلوا النار في معسكر بريطاني بالميدان(كان يحتل موقع مبني المجمع الان) وبعض المنشات العسكرية البريطانية الاخري وظلت المظاهرات التلقائية الي جميع احياء القاهرة دون استثناء كما انتشرت في الاسكندرية والمدن الاخري متخذة طابع العنف.

ثم زحفت المظاهرة الكبري الي ميدان قصر النيل(التحرير الان) حيث الثكنات البريطانية(موقع فندق الهيلتون الان) واتجه قسم منها الي ساحة عابدين وكانت المظاهرات تسير في نظام تام دون اعتداء علي احد ودون التعرض للممتلكات او جنوح نحو التخريب فاذا ببعض السيارات العسكرية البريطانية المسلحة

تخترق الميدان وسط الجماهير فجاة لتدهم بعضهم تحت عجلاتها وكان الرد الطبيعي من جانب المتظاهرين رجم الثكنات البريطانية بالحجارة فرد الجنود البريطانيون باطلاق الرصاص فكانت مذبحة اثارت ثائرة الجماهير فاشعلوا النار في معسكر بريطاني بالميدان(كان يحتل موقع مبني المجمع الان) وبعض المنشآت العسكرية البريطانية الاخري وظلت المظاهرات التلقائية الي جميع احياء القاهرة.

وان يكن تكريما للمصري الذي احب السوداني ابن واديه(وادي النيل) فاستجاب بطريقته غضبا لمايحدث

والتاريخ يقول لنا ان السودانيين- ايضا- بذلوا جهدا كبيرا لعدم احداث هذا الفصل بين مصر والسودان وهو الجهد الذي فعله المصريون خاصة حين جاءت ثورة١٩٥٢ فانها في البداية تطلعت للوحدة بين الاشقاء ، غير أن الواقع كان يشير الي ضرورة احترام ثورة يوليو الا انْ السودانييين يفضلون الاستقلال مع الاحتفاظ بصلة الود والصداقة مع مصر فاعلنوا تاييدهم لما يراه السودانيون وظلوا يأملون في الوحدة الكبري لكل الدول العربية والسودان واحد منها وهذه شهادة السودانيين انفسه(انظر الي شهادة د. ابراهيم الحاردلو نفسه) وهو ما اكدته الوثائق بالفعل فيمابعد..

وعود الي مايحدث في السودان الآن فان مانراه يؤكد نظرية (المؤامرة) ولا ينفيها وهو في الوقت نفسه يشير الي التقاعس الذي لحق بنا زمنا طويلا ولا يخفف منه ابدا الحركة التي تتصاعد الان (امـــام ثلاث قـــرارات من مـــجلس الامن للنيل من وحـــدة وادي النيل.١٥٩٠ ١٥٩١ و١٥٩٣) والقراران الاخيـران خاصة انصرفا الي ازمة دارفوربتسليم من تورط في ارتكاب جرائم في دارفور تدعو ضمن من دعوالي محاكمة عدد كبير من رموز المركزية في الخـــرطوم مما يطرح علينا سـؤالا بدهيـا ;اذن: مع من يريدون الاتفاق الذي يتحدثون عنه ولا يقتربون منه

في الوقت نفسه تتصاعد صيحات الغضب لما يحدث ,ففي الوقت الذي يصدر فيه مجلس الامن قرارات ظالمة يستثني فيها اصحاب(العضلات) من الامريكان الذين يرتكبوا الجرائم في كل مكان لدرجه ان المأزق امام تغيير القرار لحمايه الامريكان دفع بفرنسا لتنسحب، ويحل محلها انجلترا لتأكيد المؤامره العالميه باستثناء الامريكان لعدم مثولهم امام المحكمه الدوليه ، وتحدث هذه' الازدواجية' التي تتكرر دائما كلما تعلق الامر بالعم سام..!!

....

وبعد ، ها نحن الآن امام استمرارمؤامرات(ليس مؤامرة

واحدة) تحيط بنا من كل جانب ولم تعد القضية هنا كما يردد بعض الكتاب اننا وصلنا الان الي مايشبة اتفاقية (سايكس بيكو) التي اتت الينا في بدايات القرن الماضي وانما نحن امام حالة اكثر ايلاما تمضي بنا مع مشاريع الغرب الي شيء اكثر سوءا أتت به هذه الاتفاقية فاذا كانت(سايكس بيكو) سعت الي تقسيم بلادنا العربية ، فان المشروعات والمبادرات التي تحل بنا الآن سواء جاءت من واشنطن او من سي ايلاند او حيكت في مجلس الامن!!.. اقول ان كل هذه المشروعات والمبادرات التي تاتي الينا من الغرب لاتتوقف عند التقسيم التقليدي ,وانما الي(التفتيت) المستمر داخل كل قطر عربي ولا بأس من ان تنهال علينا عمليات الاصلاح ويعاد انتاجها وتراكمها من جديد.. ومازال سيناريو وادي النيل يمضي من السودان اولا صعودا الي الشمال و مازلنا نقف- أيضا- في المربع الاول..

حاولت التعبير عن هذا كله لتأكيد ما أدعو اليه في كتاباتى المتوالية بالاهرام وفى عديد من المؤتمرات التى دعوت اليها في ذلك الوقت ؛ ولأسجل خطورة ترك الجنوب، السودان ، حيث تعبر بنا اللبننه من الشرق الي العرقنه في العراق ثم تسعى الى الجنوب ، جنوب مصر العربية (= والسودان الشقيق) .وهو ما بدا اكثر

ظهورا فيما بعد سواء في دارفور او الصومال.. الى غير ذلك...

بيد ان متابعتي لهذا كله جعلنى اصبح كثيرا عبر المكتوب او المسموع الي اننا نعود كل مرة الي المربع الأول ..

لكننى سجلت الشهادة

(٣)

لعبة الجوائز.. شهادة أخرى

قد يكون من المهم ان اتمهل عند هذه"الحالة" التى تتكررفى منتصف كل عام ؛ اى شهر اعلان جوائز الدولة ..

قد تكون الحالة عادية فى شكلها العام غير ان كم الحزن القاتم الجاثم على صدرى يدفعنى دفعا الى هذه الكتابة والحالة تتعلق بعلاقاتى الفكرية خلال كتاباتى بالاهرام تعكس طبيعة هذه الازمة النفسية التى اعيش فيها واذا كنا نتحدث كثيرا عن العلاقة بين المثقفين والسياسيين فقد اضيف اليها هنا هذه العلاقة بين المثقف (الذى هو انا) ورجال الاعمال الانتهازيين الذين يسعون بكل الامكانات للنيل ممن يحاولون الكشف على علاقاتهم بسواهم ممن يحملون وعيا دافقا كمثقف واع ضد الطبقة الانتهازية الجديدة ..

والمعروف ان فئة رجال الاعمال ظهرت منذ السبعينات ، منذ هذا الأنفتاح الذي اطلق عليه (السداح مداح) فى وقتها ، ثم استشرو اكثر في الحقبة الأخيرة من تاريخنا ، حتى انه يصعب

التأريخ لهذه الفترة فيما بعد دون التمهل عند هذه الرأسمالية الشرسة الجديدة التى سعت - فى الغالب - الى استخدام اي{ وسيلة للثراء ، وتحالفت مع عدد من السياسيين، فأقترنت العلاقة بينهما - رجال الأعمال والسياسيين - بهذا الواقع الفاسد التى تعيش فيه بلادنا* ..

وقد يكون من المهم التشديد هنا على ان الجائزة ، اية جائزة سواء يعلن عنها فى القاهرة او الرياض او استكهولم .. الخ فانها- وهو مايؤكده الواقع دائما - فانها ، اى أية جائزة - غير بريئة قط ..

الجائزة كما أردد دائما غيربريئة فى منحها لهذا او ذاك ؛ لقد منحت لشخصيات قاموا فى حياتهم فى الغالب بجزارة للجنس البشرى(هل نذكر ماذا فعل شارون) ومنحت لشخصيات كانت تعاد ايديولوجيا المجتمع الذى يعيش فيه هذا المثقف (هل نذكر باسترناك) وحين نصل الى جائزة مثل جائزة الدولة التى تمنح فى مصر على سبيل المثال فاننا لانبرئها من ذلك بل على العكس خاصة السنوات الاخيرة من القرن العشرين والاولى من القرن الحادى والعشرين وقد اهتممت بشكل شخصى بهذا الهراء والخداع بالنسبة للجوائز وخاصة جائزة الدولة رغم اننى

حاصل على الجائزة التقديرية (غير ان ظروف منحها لى كانت ظروفا غير عادية تحمل فيها قدر كبير من التصدى والنزاهة د. الطاهر مكى) .. اقول اختممت بهذا الزيف الذى يمنح به الجائزة وقد تعججت مناطق اهتمامى بين جوائز الدولة الرسمية للدولة او غير الرسمية رجال الاعمال - ولم امنع نفسى ان اعبر بصراحة حادة فى كثير من الاحيان ..

وقبل ان اصل لمهزلة منح الجائزة من رجل اعمال من نسل رجال اعمال سابقين من السبعينات (زمن الانفتاح السداح مداح) سوف اشير الى ما اهتممت به على المستوي الرسمى اذ تصديت بعنف لطريقة منح الجائزة ووجدتنى اكتب بالاهرام ٣٠ مايو ٢٠٠٥ العد يد من المقالات بدأتها بهذا العنوان : الإصلاح السياسي.. وجوائز الدولة!! ورحت اربط العلاقة بين الأصلاح السياسى الذى كان يردد بأيعاز من الخارج والداخل لفترة طويلة..

ونحن نتحدث هذه الفترة عن سيناريوهات الاصلاح الذي اصبح يحاصرنا من الغرب باشكال كثيرة تقترب فترة اعلان جوائز الدولة.. غير ان اقترابها- في رأيي- ليس مثل كل عام فنحن الآن نتحدث عن الاصلاح ونحن الان نعزو الكثير من

مشاكلنا الي التجاوز في قضايا(التنمية الانسانية) بمستوياتها المتباينة وقاضاياها الاشكالية- كما اشار تقرير الامم المتحدة الاخير ثم اننا- قبل هذا وبعده- اصبحنا وجها لوجه أمام هذه القضايا حتي ان الرئيس مبارك يولي القضية اهتماما كبيرا في شتي المجالات خاصة في مجال الثقافة والمثقفين كما رأينا لدي الرئيس في اجتماعاته وخطبه الاخيرة..

اتذكر هذا كله والفترة التالية تحمل الينا اخباراعلان جوائز الدولة التي يحصل عليها المثقفون ويمنحها لدينا المثقفون ويعمل لها لسنوات- قبل الحصول او بعدها- المثقفون.. فلا يمكننا لوم الامير علي امر ما لان الدولة تسعي الي منح المثقف الكثير وتحاول اضفاء الكثير من هالات الفرح والنفوذ علي مرشحي الجائزة دون ان تتدخل هي في منح هذا المثقف او ذاك انما ينصرف الامر الي المثقف وحده' فهو الذي يجب ان يقوم بدوره الذي عرفناه به في فترات تاريخية مهمة ;غير ان المثقف الآن- علي العكس مما عرفنا عالم الدين في تاريخنا الاسلامي- يقوم بدور مفكر الامير وحسب دون ان يبذل جهدا كبيرا في لفت الانظار الي مايجب ان يكون.

بيد ان ثمة ملاحظة هنا لابد من الاشارة اليها قبل الاسهاب اكثر في هذه العلاقة- فنحن مازلنا نؤمن بانه يوجد بين ظهرانينا

المثقف الواعي ;غير ان القضية لاتقف عند الكيف وانما تتعداها الي الكم حيث ان عدد المثقفين الواعين مازال قليلا وهو مايعود بنا الي بدهية كثرة المثقفين الآخرين..

هذه ملاحظة آثرت بل عمدت الاشارة اليها في البداية لاعود- بهدوء وثقة الي المثقف الامير الذي يسهم اسهاما كبيرا في الجانب الآخر من المسرح حيث لا يستطيع ان يقوم بدور ابي حنيفة المثقف المثالي الواعي في تاريخنا باية حال بل علي العكس يقوم بالدور التابع الذي يعبر عنه في التعامل مع الامير في الداخل او في الدور التغريبي الذي يقوم به بشكل مزدوج في الداخل والخارج..

وهو مايعود بنا الي هذه الجوائز التي تمنح في كل عام ويعلن عنها بشكل جدي ورسمي فيتقدم المرشحون لجوائز مبارك والتقديرية والتفوق من خلال ترشيح الهيئات العلمية والثقافية والجامعات لهم حيث تتقدم الهيئة المرشحة بتقرير علمي عن المرشح يتناول انجازه الثقافي وسيرته الأدبية أو العلمية بعد ذلك تقوم هيئة الجائزة وهي المجلس الأعلي للثقافة بفحص التقرير والتأكد من استيفائه للشروط القانونية ليدخل المرشح الي المسابقة وحين تعلن الجوائز تكون قد مرت بمحاولات وجولات وحكايات لانعرف عنها الا مانسمعه.. وفي السياق الاخير لانعدم كل عام الا

هذه الهمهمة التي تصمت حينا وتعلو احيانا وتجمع كلها في ان اغلب هذه الجوائز لا تمنح لمستحقيها كما يجب..

ولانه لايمر عام تمنح فيه الجائزة الا وتعلو اصوات النقد والركض وراء اسئلة تتجدد و تتحدث عن ظلم يحيق بالكثيرين فان الامر يظل معلقا حول السيناريو الذي تمنح به جائزة الدولة وهو سيناريو يتعلق بالمثقف اكثر من الامير ويلوم الجهات المنوط بها منح الجائزة اكثر من الجهات التي تمنح ثمنها وهو يدفعنا لطرح اسئلة كل عام قبل ان تعلن الجوائز قريبا وقبل ان تنتهي لجان الفحص وآليات التصويب من عملها الآن ;فان لدينا اسئلة كثيرة مازالت تبحث عن اجابات لها وربما كان اكثرها فزعا للعقل العربي في عصريسعي حكامنا فيه الي التغيير الايجابي من الداخل ما قيل عن استبعاد من رشحوا اعمالهم بأنفسهم واكتفت لجان المجلس بمن رشحتهم الجهات التي لها حق الترشيح وذلك- ما اعلن- من اجل تقليل عدد الاسماء المرشحة!!!!!!!(علامات التعجب من عندنا ومن عند غيرنا، وهو مايعود بناالي آلية المنح أو المنع حسب مزاج من لا يملك:

- هل يقرأ احد- بالفعل- من لجان المنح السيرة الذاتية لكل مرشح ؟

- هل تقوم لجان الفحص بالدور المأمول منها حقا؟
-- هل تلتزم الآلية الاخيرة في منح الجائزة بما انتهت اليه مثل هذه الجهات التي يفترض انها تقوم بدور التحكيم والترقيم.. ؟
فاذا افترضنا ان الاجابة عن هذه الاسئلة تمضي في سياق صحيح وهوبالتاكيد صحيح ننتقل الي حزمة اخري من الاسئلة في سيناريومنح الجائزة منها:
مادور العلاقات العامة فيما تنتهي اليه لجان الفحص بل ما هو الدور الحقيقي للجان الفحص بل ما هي معايير ترشيحات هذه اللجان بل ما جدوي لجان الفحص اذا كان الامر يخرج من السياق العلمي الي غيره كما يردد في الواقع وما هي لعبة التربيطات التي نسمع عنها كل عام ومن يقف وراء هذه التربيطات التي تتم كل مرة وتردد في الصحف في كل مرة ثم ما هي قصة "الشللية"وقد اصبحت ميكانيزم مهما يحرك كثيرا من الامور في حياتنا الان- في منح هذه الجائزة لهذا او ذاك وكيف يكون تصرف لجان التحكيم ازاء هذا كله ، في حين لم يعد يلتفت الي المثقف خارج المؤسسة..
نقول هذا كله ونحن نعرف مايردد كل عام ايضا من ان جوائز الدولة في الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية أصبحت محل انتقاد

شديد فاللجنة المكونة والمقترحة التي تقرر منح الجوائز غير سرية واعضاؤها معروفون سلفا وثابتون كل عام كما يمكن للمرشحين من المحظوظين المنتمين لمؤسسات الآتين من جهات شتي بعيدا عن الذاتية والعصامية.. المتقدمين للجوائز أن يتصلوا بهم ويؤثروا فيهم او يتدخلوا بطرق كثيرة في منح هذه الجائزة او تلك ثم ان.:

والاسئلة لاتنتهي غير ان الاسئلة هذا العام ليست مثل كل عام فان قضية الجوائز اصبحت ترتبط ارتباطا كبيرا بسيناريو الاصلاح كما نذكر سادتنا من المثقفين المنتمين للمؤسسة وملحقاتها.... بل ان التأمل في عبارة الرئيس مبارك في حفل توزيع الجوائز الاخير يرينا ان العلاقة اكيدة بين الاثنين- الإصلاح السياسي والجوائز- فحين تحدث الرئيس مبارك في الاحتفال الاخير في حفل تكريم الفائزين بجوائز الدولة الاخيرة راح يؤكد علي ان' قضايا الاصلاح بمحاورها المختلفة تحظي باهتمامنا المستمر والمتزايد ولا تنفصل ابعادها الاقتصادية او الاجتماعية او السياسية عن جوهرها الثقافي.. و.. واذا كان المثقف هو ضمير وطنه والاقدر علي التعبير عن همومه واحلامه وطموحاته فان دور المثقفين والمفكرين يتعاظم في هذه الفترة الواعدة من تاريخ وطننا كما يتعاظم دور المؤسسات الثقافية والعلمية والبحثية..' الي أخر

ما اكده الرئيس في تأكيده علي ان سيناريو الاصلاح لابد ان ينبع اولا واخيـرا من الداخل وان هذاالداخل لابد أن يفـجـر الطاقـات الابداعية الكامنة في مجتمعنا كما يفسح الطريق لها ممايؤدي الي تحديث البنية الثقافية للمجتمع من خلال التركيز علي كل لابعض المخ.

تاركين المحظوظين المنتـمين لجـهـات ،وان يتم في اطار من الحرية والديموقراطيةالثقافية..

وهو مايعود بنا ويؤكد علي الوعي بطبيعة الاصلاح من الداخل لا الخارج ايها السادة وان هذا الوعي في حالتنا هنا لابد وان يرتبط بالمثقف وان المثقف لابد ان يكون له دور في هذا الاصلاح بعيدا عما نتحدث عنه كل عام الي مايجب ان نتحدث فيه هذا العام عن الاصلاح في مجالات كثيرة خاصة في مقدمتها سيناريو الاصلاح علي وجه اخص ثم سيناريو الانتقاء والاختيار علي وجه الخصوص!!



قيل ان أبا جعفر المنصور نقله إلي بغداد ليوليه القضاء فأبي فحلف عليه ليفعلن فحلف أبو حنيفة أن لا يفعل فأمر بحبسه وقيل أنه كان يرسل إليه في الحبس أنك إن أجبت وقبلت ما طلبت منك

لأخرجنك من الحبس ولأكرمنك فأبي فأمر بأن يخرج كل يوم فيضرب عشرة أسواط فكان يخرج به كل يوم فيضرب فأكثر الدعاء فلم يلبث إلا يسيرا حتي مات في الحبس مبطونا سنة ١٥٠ هجرية. فأخرجت جنازته وكثر بكاء الناس عليه وصلي عليه خمسون ألفا ودفن في مقابر الخيزران في بغداد'- رحمه الله..

وعدت للكتابة ثانية (١٣ يونيو ٢٠٠٥ :

.. فمازالت قضية الجوائز- كما هو الحال كل عام- تفرض علينا من النقاش والغضب اكثر مما تفرض من الارتياح والرضا, ويبدو ان تكرار الحيرة كل عام اسلمنا من جديد الي هذه الحالة من الغضب شجعتنا عليه ما تسهم به الدولة في الاصلاح السياسي من جهد كبير بدا خاصة في اهتمام الرئيس مبارك شخصيا- كما عرفنا-وهو مافي خطبته الاخيرة امام المثقفين اثناء توزيع جوائز الدولة.

واذا كانت قضية الجوائز تثير كل هذا الغضب الذي يتكرر كالواجب الثقيل المفروض علينا ,فان نوعا من الغضب المكتوم راح يجد طريقه هذا العام بعنف الي صدور اكثر المثقفين عصامية ووعيا بعيدا عن مثقف الامير والهيئات الرسمية ,فعدا قضايا اشكالية كثيرة كانت تثار كل عام مثل هيمنة موظفي الوزارة

وتأثيرهم في عملية التصويت وما يلحق بها من(تربيطات) و(شللية) لا نستطيع ان نلغيها من (اللعبة) قبل اعلان الفائز فيها بايام او ساعات.. فان ثمة اشكالية غائمة تفرض نفسها بعنف هذا العام سيما مع ارتفاع اعداد المتقدمين للجوائز,خاصة ,التقديرية, التي تقبل ترشيحاتها فقط وفقط من الهيئات والجامعات ,وهو مايعني الاستبعاد الصريح لعدد كبير من المثقفين لم يجدوا سبيلا امامهم غير جائزة التفوق التي اصبحت ملاذا أمنا لهذه الاسماء التي تيأس دائما من امكانية ترشيحها عبر جامعة أوهيئة علمية, فضلا عن يأسها من الترشيح للتقديرية المغلقة علي الهيئات والمؤسسات فقط..

والقاريء الكريم لاحظ اشارات كثيرة علي هذه الصفحات في اثارة قضية المرشحين لجائزة التفوق التي يزيد ضحاياها كلما زادت آليات التحكيم وقبلها حتي وصل الامر الي اعلان انه تم استبعاد الترشيحات الفردية لهذه الجائزة من التحكيم القادم, ورغم ان بعض المسئولين بالمجلس الاعلي للثقافة بادر- كما رأينا اخيرا- الي التراجع عن هذا الاستبعاد ,فان الاخبار السرية التي تتردد بين المحكمين والموظفين داخل المجلس وخارجه تشيع ان هذا كله كلام في كلام وانه تم استبعاد المتقدمين بانفسهم ;بالفعل. هل

هذا معقول!!

وقبل ان نصل الي ثورة الغضب المرير غداة اعلان الجوائز. وكيلا يكون كلامنا مزيجا من الالم والصمت الرهيب- فاننا لا نملك- نحن المثقفين او المتعلمين او المجتهدين اسوة بنظائرنا من الرواد في بداية ميلاد الجوائز- غير تذكير السادة الجالسين في سدة المجلس الاعلي للثقافة ,والذين سيجلسون اخيرا لاعلان الاسماء..نقول لا نملك غير تذكيرهم بقانون الجوائز الذي لا يلتزم به في الغالب وعلي الاقل بالنسبة للعصاميين المتقدمين بدون هيئات ووساطات وتربيطات وتهديدات.الخ... فالمادة٦ مكرر٣ من القانون رقم٢٤ لسنة١٩٨٩ هذا القانون المعدل بالقانون٣٧ لسنة٥٨ بانشاء جوائز الدولة تؤكد- ايها السادة - ان المجلس المختص- المجلس الاعلي للثقافة واكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا- تعلن سنويا عن جوائز الدولة للتفوق قبل اليوم الاول من شهر اكتوبر كل عام, ويتقدم من يرغب في نيل احدي هذه الجوائز الي المجلس الاعلي المختص ,خلال ثلاثة اشهر من تاريخ الاعلان ,ويمكن في الفترة نفسها الترشيح لهذه الجوائز من الهيئات المنصوص عليها في المادة٥ في هذا القانون. ومادة٦ تذهب الي انه تتولي اللجان المنصوص عليها في المادة٦ من هذا القانون النظر في ترشيحات

وطلبات جوائز الدولة في التفوق والتأكد من مطابقتها للشروط المعلنة ,وتقدم نتيجة فحصها الي المجلس الاعلي المختص في موعد غايته آخر مارس من كل عام..

ما معني هذا كله معناه هنا ان الجائزة فردية يتقدم لها الافراد ممن لايملكون التأثير في هيئة او جامعة ولا يعرفون(شلة) او(عصبة) ,فليس امامهم غير التقدم والاستثناء الوحيد- كما يقول القانون- هو(الامكان) المنصوص عليه في المادة من انه(يمكن) للهيئات ان تتقدم لهم ,هل قلت الهيئات ,هيهات بالطبع ان يحدث هذا لافراد ليس لهم غير الخالق وبعده تأتي العصامية والذاتية المحبة للعلم والبحث.

وهنا نصل الي المأساة التي نسمع عنها ,وهو ماتردد ويؤيده البعض ثم ينكره البعض الآخر ,واقصد به ما كان قد اعلن انه سيتم استبعاد الترشيحات الفردية ,فهذا- اذا عدنا الي القانون, وهو كل مانملك في هذه البلاد- فان هذا القراريعطل هذا النص القانوني الصريح الذي لا يمكن للمجلس او غيره تعطيله ولو بلائحة هذا النص لأن اللائحة- كما قال المختصون- لا تعلو علي القانون.

والعود للمادة٦ مكرر٤- كما اشرنا- تنص ان هناك لجانا

مشكلة بالمجلس لجائزة التفوق،خاصة ،ووظيفتها التأكد من مطابقة المتقدم وعمله بالشروط المعلنة.وهي شروط شكلية يعرفها اصحاب القانون..غير ان المهم هنا هي الشروط الموضوعية التي تتعلق بقيمة العمل المقدم ،وهو مايعود بنا الي الاصلاح السياسي الذي يكاد يغيب هنا ،مع آلية الفحص والاعلان ،عبرا اسئلة كثيرة منها:

- من الذي يقرأ- ايها السادة الكبار- ال٢٠ او ال٥٠ كتابا التي يتقدم بها المرشح(عرفنا ان السادة يكتفون بالسيرة الذاتية)..

- ثم اين ايها السادة الافاضل- لجنة القراءة هل عرفتم لجنة قدمت بالفعل دراسة او اشارات علمية تشير الي القبول اوالرفض

- ثم اين- ايها السادة الاماجد-تقاريررفض او قبول هذا العمل او ذاك

ما ردده امامنا فقهاء القانون اننا لم نجد ابدا مثل هذه التقارير او الفحوص العلمية الجادة وانما تقدم اشياء اخري كثيرة لانعرفها في الجوائز التي يعلن عنها الآن خارج المجلس من بعض رجال الاعمال ومن بعض المثقفين العرب.. ;وفي فمنا ماء كثير.

ومالبثت بعدها ان انصرفت الى جائزة رجل الاعمال قبل ان اعود اليها ثانية



وكما يمكن ان ينصرف الذهن فى حالتنا حين نتحدث عن دور رجال الاعمال الى رجال الاعمال المصريين كذلك ينصرف الذهن الى رجال الاعمال العرب بل ان رجال الاعمال فى الغرب يمكن ان يقوموا بهذا الدور ؛ دور تشجيع المثقف والاسهام فى العلم والحضارة ليس بالضرورة اهتبال الفرص كرجال الاعمال العرب للافادة من الواقع الردىء ونهب الاقتصاد العربى ..

وحين نقول هذا كله نضع فى اعتبارنا هذه الدرجات التي يمكن ان تكون بين مواقف رجال الاعمال بالقدر الذى نعى به اننا نعيش هنا فى المنطقة العربية خاصة وفى مصر على وجه الخصوص حالة من التردى فى كل المجالات مما اسهم فى جانب المال فى غياب اخلاق رجال الاعمال وبدلا من ان كنا نعرف دورا ايجابيا لاثريائنا فى النصف الاول من القرن العشرين اصبحنا اليوم على العكس من ذلك نتعرف على وجه آخر قبيح قمىء لرجال الاعمال خاصة بعد غياب الحراك الاجتماعى الصحى والوطنى وحين اصبح فساد رجال الاعمال جزء من المنظمة السياسية والاقتصادية والثقافيةفى المنطقة العربية .

وانماط رجال الاعمال كثيرة ..

القضية المرعبة فى هذا كله هى التعاون بين الاقتصاديين

والسياسيين فى زمن اصبح وهذه نتيجة منطقة التدهور السائد فى كل المجالات واصبحت المشاريع الجديدة تقام فى المقام الاول - لصالح رجال الاعمال

وحالتى يمكن الاشارة اليها هنا،منذ سنوات حين تحدثت فى احد مواسم كتاب(الاسرة) فى نهايات القرن العشرين عن غياب رجل الاعمال الواعى الذى يجب ان يقوم بدور ثقافى بين اعماله الاقتصادية خاصة ونحن نعرف ان نسبة تصل الى ١٠٪ من امواله لايحتسب عليها ضرائب اذن فالدور يجب ان يقوم والدور فى الوقت نفسه كما نرى حينئذ- غائب او غائم .

.....

وقد يكون من المهم هنا ان اثبت جهدى فى "لعبة الجوائز" لمرات عديدة تطرقت اليها سواء فى نهاية القرن العشرين او بدايات القرن الحادى والعشرين ..

وعلى هذا النحو يمكن العود اليهم فى نهايات القرن العشرين وقد تمثل هذا فى التعبيير عن الدور الغائب او المغيب بفعل رجال الاعمال انفسهم منذ عصر (الانفتاح) الذى بدأه السادات فى السبعينات وقدي يكون من المهم ان نقل هنا على سبيل المثال ؛ ما كتبته فى نهاية القرن العشرين وتحديدا عام ١٩٩٩ قبل ان

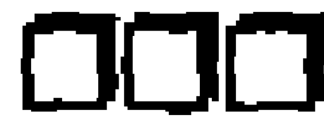
انتقل الى بدايات القرن الحادى والعشرين وفى العام الاخير من القرن الماضى لمقالتين بشهر اغسطس احد فيها أكثر هذا الدور ...

هذه دعوي لاشتراك رجال الاعمال في العمل العام

هذه دعوي لا تنقصها الجدية- فقد اثبت مشروع القراءة للجميع جديته لتسع سنوات- خاصة للمركزية التى يتمتع بها ..

ومن هنا ,فان ماسياتي بعد ذلك لا يزيد علي(دعوة) نرجو ان يسهم فيها رجال الاعمال من المصريين بدافع وطني خالص, وبعيدا عن دوافع اخري يسؤنا ان نذكرها .. وهو الدافع الذي يؤكد به رجل الاعمال دوره الوطني لهذا الوطن الذي لم يضن عليه بشيء

لنبدأ من حيثيات الدعوي قبل ان نصل الي خطوطها العامة



اشرنا الي ان المركزية من اهم عوامل التغيير في مجتمعنا ولو لم تكن السيدة سوزان حرم الرئيس وراء مشروع(ألمركزية) لمانال مثل هذا النجاح الكبير الذي لا يتمثل فقط في نشر الكتب وتبنيها سياسة ايجابية خاصة في(مكتبة الاسرة) وانما- ايضا- لتبنيها سلسلة من المكتبات العامة للطفل ,وربط هذه المكتبات بشبكات

الانتـرنيت وامـتـداد النجـاح الي الاقطار العـربيـة فـضــلا عن الموسوعات والترجمات المتباينة.. وما الي ذلك.

وقد سبق أن اشرنا الي أن تبني السيدة الاولي لهذا المشروع/ المشروعـات دفع لجنة دولية عقـدت باسـوان الي أن تعـزو نجاح التجربة الـي الشخصية المحورية التي تستقطب حولها عديدا من الهيئـات والوزارات والجـمـعيـات لتلقي كل هذه الجـهـود في تيـار التغيير ,بما يحول فلسفة المشروع الي واقع للتغيير.

وقد بلغ من نجاح هذه التجربة الرائد ة بهيئة اليونسكو الي أن تعلن علي لسـان مديرها- فريدريكومـايوي- الي تقديم مـايسـهم في تاكيـد هذا المشـروع وإطراد تطوره ,فقـررت تقـديم٢٠٠ الف دولار دعما للمشروع ومثلها لكل دولة ستطلب تطبيق المشروع لديها, اضف الي هذا مـبلغ آخـر سنويا وبصـفـة دورية يزيد علي٣٠ الف دولار.

علي أن أكثر مايلفت الانظار في تجربة رائدة مثل هذه التجربة انها تستمر بقوة الدفع المركزي لدي عدد كبير من المنضويين في(منظومة) المشروع دون أهم عضو فاعل في المجتمع المصري اليوم, ففي حين نقرأ في كل كتاب يصدر عن هذا المشروع انه يشترك فيه: جمعية الرعاية المتكاملة المركزية ,وزارة الثقافة ,وزارة الاعلام,

وزارة التعليم ،وزارة التنمية الريفية ،المجلس الاعلي للشباب والرياضة(فضلا عن الجهة المنفذة وهي هيئة الكتاب).. فإننا نفتقد هذا العضو الفاعل الآن خاصة في المجتمع المصري وهو يتمثل في رجال الاعمال.

كل هذه الجهات إلا رجال الاعمال

من هم رجال الاعمال وأين هم الآن ممايحدث في مصر وما هو حصاد وعيهم الثقافي وليس الاقتصادي وحده

هذه اسئلة تستأهل ان نتمهل عندها اكثر

وعدت مرة اخرى كي اؤكد دلالة هذا السؤال :

من هم رجال الاعمال؟

إن رجال الاعمال في مصر الآن فئة تضخمت ليس في عددها فقط وإنما في تاثيرها أيضا؛ لقد بدأوا يلعبون دورا ماليا ضخما في الواقع المصري منذ منتصف السبعينات ،خاصة ،وانهم لم يعودوا- كما عرفناهم- ففي نهاية السبعينات وطيلة الثمانينات عرفنا عددا من رجال الأعمال الذي يمتلك كل واحد منهم عدة ملايين(لدينا في مصر وصدق او لا تصدق ،أكثر من٣٠٠٠ رجل اعمال من اصحاب الملايين)

في حين نجد إن الإحصاءات الرسمية في نهاية التسعينات

تشير الي أن في مصر الآن عددا من رجال الأعمال يقترب بسرعة من الثلاثين لكن من بين هؤلاء الذين تخطو حاجز المليونيرات الي المليارديرات..!!

هذه أرقام لا نستغرب لها بقدر ما يسعي أصحابها الي العمل العام .

وبعيدا عن نشاطاتهم وعلاقاتهم المتناثرة في شبكة مترامية الاطراف في شتي أنحاء العالم- المعروفة منها اوالمخفية- فان نشاطهم يمتد الي كل شيء

ونستطيع ان نتعرف علي بعض من هذا من أعمال المقاولات والاعمال البحرية وحقل البترول والعقارات السياحية والتوكيلات المستمرة وأيضا في سعيهم الي الصحف سواء التي يسهمون فيها أو التي يملكون رخصتها ,وهم إلي ذلك لا يتوقفون عن محاولة الحصول علي نوافذ صحفية جديدة ,ولا بأس من أن يقترب بعضهم من التليفزيون بهدف اعداد مشروعات.وافتتاح(شركة انتاج تليفزيوني)او الرياضة كالتنس ,بل يتولون احدي المحطات التي تصبح إحدي الشركات الراعي الرسمي لبطولة كاس العالم لكرة اليد.

وكما اشرنا من قبل فإنهم زحفوا الي دور السينما فاصبحوا

يمتلكون عددا ضخما من هذه الدور لعرض الفيلم الامريكي الماكر سريع الربح والحضور ,وتقول الاحصاءات الموثقة انهم اصبحوا مالكين لقرابة٢٥ شاشة حديثة من نوع يطلق عليه(مالتي بلاكس او بيما بلاكس) الي غير ذلك

والملاحظة الهامة هنا ,انهم يستمدون موقعهم في الاساس الاول من وجودهم الاقتصادي حتي وان اخذ شكلا ثقافيا ,بالقدر الذي يستمدون به وجودهم من علاقاتهم السياسية وان اتخذت اشكالا وطنية وهو مايطرح السؤال المحوري هنا:

ولماذا لا يستمدون قيمتهم في المجتمع- فضلا عن الاقتصاد والسياسة- من الثقافة ايضا ؟

ليس بوازع رسمي أو سياسي وإنما بوازع وطني

لماذا لا يستثمر رجل الأعمال بعض أعماله او اسمه في تبني مشروع ثقافي علي غرار(مشروع القراءة للجميع) او حتي يسهموا في بعض انشطته بقدر لا ينقص من ارباحهم بقدر مايضيف اليها؟

الواقع ان رجال الاعمال لا يهتمون كثيرا بما من شانه أن يضيف قليلا او كثيرا الي المشروعات الثقافية..

هذه حقيقة لا تحتاج الي برهان

والا فمن يقول لنا لماذا لا نجد لاحد من هؤلاء إسهاما حقيقيا ومستمرا في مشروع(القراءة للجميع)؟

لقد كتبنا من قبل نعجب من موقفهم من الدعوة التي جاءت اليهم من هيئة الكتاب فلم يلبوا ,وتفصيل ذلك انه في العام الماضي أقيمت ندوة باسم(رجال الاعمال..) ودعي اليها عدد كبير منهم, فلم يحضر احد ,فقط ,للإنصاف ,جاء بالنيابة عن البعض مستشار الاتحاد لقد اعتذروا جميعهم ,ولم يحضر احد

هذه واقعةلا نريد أن نزايد عليها

هل تريدون مثالا آخرَ حسن ؟

في هذا العام أقيمت ندوة أخري بعنوان(دور رجال الاعمال في دعم التنمية الثقافية) بمكتبة مبارك ,وأيضا لم يحضر أحد, فقط ,وللانصاف اتصل صاحب اندلسية(محمد تاج الدين من الخارج) معتذرا لعدم وجوده في مصر ,أما الاخرون ,فلم يكلفوا أنفسهم- حتي- مشقة الاعتذار

هذه واقعة اخري لا نريد- ايضا- ان نزايد عليها ؛ وهو مايدفعنا الي ان نخلف الحيثيات الي مابعدها .

ماذا نريد من رجال الاعمال ؟

مانريده ,بوضوح هو ان يسهم رجال الاعمال في مشروع(

القراءة للجميع) خاصة ,وهو في ذروة نجاحه اليوم ,ومصر تستقبل به القرن الحادي والعشرين ؛ والاسهام يكون بطريقين:

الطريق الاول: ان يتقدم رجال الاعمال ، او من يتوسم في نفسه قدرة التصدي للعمل العام خلال(مشروع ناجح) مثل هذا المشروع ليسهم عبر لجنة يمكن ان تسجل برئاسة السيدة سوزان نفسها ,وتعتقد انها لن تمانع في عقد هذه الندوة او توفير المناخ الذي يسهم في انجاحها ,ومن خلال هذه الندوة(الذي ستكون هيئة الكتاب هي الهيئة المنفذة ب).

والا ,فان هناك وسيلة اخري للاسهام ,اكثر بساطة ,ان يتولي كل من يريد الاسهام في المشروع ,طبع كتاب جديد(ضمن الخطوط التي تحددها اللجنة) ,وتنتهي مهمته- علي الاقل- بمجرد الانتهاء من طبع كتاب ,كتاب واحد.

وأعتقد ان السيدة حرم الرئيس لا تمانع في هذا ,فهي تتوق لمثل هذا الاسهام الفريد في الدائرة الثقافية وخاصة أننا نعيش في عالم أصبحت المعرفة فيه- كما اشرنا مرارا وتكرارا- هي السلاح الوحيد والاكيد في هذا العالم .

هذا هو الطريق الاول، الاسهام في تولي إخراج كتاب جديد, اما الطريق الآخر ,فهو الوعي اكثر بالعصر الاليكتروني القادم .

وهذا العصر يكون صلب تعامله الرئيسي عبر(المنشورات الرقمية) ,وعلي غرارمايحدث في أوروبا الآن ,يمكن لرجال الأعمال- بشكل جماعي أو فردي- الإقدام علي تنفيذ مشروع إنشاء مركز للمطبوعات الرقمية التي تحتوي علي أية مطبوعة تراثية هامة او اسطوانة مدمجة حديثة.

هذا المشروع يسعي في الاساس الي تنفيذ مايعرف اليوم بالمكتبة الرقمية digital Library في مقابل المكتبة الورقية.....

وهذا المشروع(كسابقه) يكون عبر لجنة تسهم فيها السيدة الاولي مع اللجنة التنفيذية التي تتولاها الهيئة العامة ايضا.

وهذه الفكرة تضيف الي الشكل الطباعي التقليدي- ونحن علي مشارف ألفية اليكترونية جديدة- الشكل الطباعي المدمج RON-CD وهو يسهم أكثر في أن يعيش الكتاب او المادة المقروءة فترة زمنية اطول

وفي الحالتين ,يكون الاسهام واعيا وفعالا وهو اسهام تتمني ان يحدث السيدة الأولي في مصر الآن لتوقها الي التغيير الثقافي الايجابي ,ومن يقتربون منها ,في هذه الفترة ,يلاحظون انها تتمني لوعرض عليها هذا الشكل او ذاك إسهاما من أبناء مصر لثقافة

مصر ووعيها..

هذه دعوة لرجال الاعمال ,فمن يلبي العمل الوطني في مشروع عملاق..

(الآخر) والبحث عن رجال الأعمال!!

ردود أفعال كثيرة جاءتني عقب نشر المقال السابق حول دور رجال الأعمال.

وهو دور كان يمكن أن يكون أكثر فعالية لو استجاب رجال الأعمال للدعوة التي وجهت اليهم في وقت تشهد فيه نجاح المشروع الذي تقوده السيدة الفاضلة قرينة السيد الرئيس ,وتوقها ليسهم رجال الأعمال في حركة التنمية الثقافية السابق الاشارة اليها.

ان مشروع (القراءة للجميع) الذي عرف من بداية التسعينات واشرف علي عامه السادس بصورته المضيئة عبر(مكتبة الأسرة) يشهد اطرادا مستمرا في الدور المركزي الفعال الذي تقوم به السيدة سوزان لتأكيد حركة التنمية الثقافية علي أكثر من مستوي سواء في تدعيم الكتاب نفسه أو فتح مكتبات عامة أو انشاء دار نشر لتأكيد القيم التي تدعو اليها فضلا عن البدء في العمل لاصدار موسوعة للطفل ,وهو مالاحظنا معه ردود الأفعال التي

جاءتنا لتأكيد الدعوة التي وجهت لرجال الأعمال في هذا الصدد فلنرجيء ردود الأفعال تلك لنري بعض الصور حولنا قبل أن نعود اليها.

صورة أولى

ان الصورة الأولي لما يجري حولنا كانت تشير الي انماط شتي لرجال الأعمال ,كان من بينها هذه الصور في فيلم يوسف شاهين(الآخر) وهو يعرض في دور العرض في وقت كان صورا وانماطا أخري متعددة تجري خارج الفيلم سواء في مصر أو خارجها والاقتراب من الفيلم كان يطرح علينا سؤالا هاما لايلبث أن يتحول الي حلقة من الأسئلة في سلسلة البحث عن رجال الأعداء.

سؤال: من هو(الآخر) ؟ وتتوالي حولنا بقية الأسئلة: هل هو(الآخر) الذي تمثله الولايات المتحدة الأمريكية أم هوالشعب المصري الذي يكون بالنسبة الي غيره هو(الآخر) الذي يعبر لدي الغرب عن(الآخر) أم هو ذلك الآخر ممثلا في حالة الارهاب التي لاتري العقيدة عندنا إلا ممثلا لها ام هو الوجه الآخر من النفس ـ أي نفس ـ علي حد تعبير يوسف شاهين في احدي المقابلات الصحفية ـ وهذا الآخر المتوحش عدم تهديده لي ـ وعدم خوفي

منه ـ ولكن اتفاعل معه ما الآخر ـ في نفس الاتجاه واقرب اليه على الشاشة البيضاء ـ هو هذه الفئة التي طفت على سطح وجودنا منذ منتصف السبعينات وعرفت برجال الأعمال كما نراها في هذا الفيلم حيث يتحالف(كل) رجال الأعمال من كل الديانات والجنسيات في عصر احادي القطبية

ان رجال الأعمال هنا يتجمعون في شرم الشيخ ويرفعون كؤوسهم وهم يصيحون بصوت عال:(ـ كاس العولمة)

اهم صنف جديد من رجال الأعمال فيهم المصري كما أن فيهم العربى كما أن فيهم الأمريكي كما أن فيهم الانجليزي.كما ان فيهم المصري الأمريكى او العربى الصهيونى ..الخ

عرفت من هؤلاء صنفا آخر من رجال الأعمال .

وهم صنف من رجال الأعمال فيهم من يصلي راكعا ومنهم من يرسم علامة الصليب واقفا ومنهم من يرتدي القلنسوة على رأسه.

والفيلم ـ في احد جوانبه وأهمها ـ يرسم صورة واضحة تجمع عددا من المؤسسات ورجال الأعمال لبحث بناء مجمع للأديان الثلاثة في سيناء اختيرت خلفية للعمل على اعتبار أنه يمكن أن يبدأ منها المشاريع الوهمية التي تسعي للسيطرة على العالم(بالسوق) أو(بالنظام) العالمي.

وتبدأ الدراما حين تسعي فتاة مصرية للكشف عن شبكة الفساد التي تراها تتخذ من المشروع - مجمع الأديان - ستارا لجمع الأموال بأية وسيلة والإستيلاء علي أراضي الدولة.

عبر هذا نري سمات كثيرة لهذه العولمة الشرسة المتمثلة في المشروعات الاستثمارية العملاقة في هذه التبرعات الوهمية والأعمال الخيرية الوهمية ,وتحديدا عبر رجال الأعمال الذي تدير عقولهم كما يدير مشروعاتهم وقروضهم حمايتهم الدور الأمريكي الصريح واستغلال التكنولوجيا الحديثة - بما فيها الانترنت - لتحقيق هذه المشرووعات الاجرامية والارهاب الذي يتخذ مسميات كثيرة ,ان شخصية رجل الأعمال هنا تبدو أكثر وضوحا - لتحقيق هذه المشروعات الاجرامية والارهاب الذي يتخذ مسميات كثيرة, ان شخصية رجل الأعمال هنا تبدو هنا أكثر وضوحا - ويهمنا منها شخصيا رجل الأعمال المصري - هو الانتهازي ,الذي يجيء الي مصر ليكمل دائرة خراب البلاد عبر دوحة أمريكية(!!) مع شلة من النصابين الذين يصورون في زي رجل الأعمال.

وخلال الأحداث نكتشف أن رجل الأعمال المصري هذا ينجح في عقد الصفقة يتعاون مع ممثل السلطة(الصامت) وموافقة العم المهندس(الرومانسي) وهدف هو توفير فرص لأبناء بلده.

وهذه الصـورة تجسـد لنا أنماط رجـال الأعـمـال عندنا الذين يحتكرون صـفقات التليـفـون المحمـول والأعمـال البـحرية وأعـمـال المقاولات والبترول والمطارات وخدمات الطيران وعقارات وشركات سيـاحيـة في مناطق نادرة مثل الجمـال مثل شرم الشـيخ أو علي ساحل كاليفورنيا وصادرات غير عربية المعني أو المبني من أمثال- ومعذرة لهذه الأسـمـاء الأجنبيـة التي تكتب بالعـربيـة - مـارلبـورو ووكالة شركات المكياج ونسمع هنا أسـمـاء غريبـة تعمل فيـهـا هذه الفئة(بوكسـترا اكسبورت كربوريشن وبيتشـاير كرايفت وكمتكس وكليـروبروك وكوهيـرنت كـونيكشن سيـستن وكمسـات فضـلا عن التـوكيـلات الغريبة(=الأمـريكية خـاصـة) التي حصلوا عليـهـا في مصر. كيف لانعرف.

وبعيدا عن سرد الحدث الدرامي(وهو متشوش الي حد كبير بفعل كـاتبـه) يكون علينا أن نكتشف هنا أن رجـال الأعـمـال هنا يتمتعون بقدر كبير من :

- تأييد النظام العالمي(= الأمريكي)
- الاسهام في صنع(رجل أعمال) مصري
- ارهاب المال والسلطة
- غفلة المصريين وطيبتهم

- الاستفادة من عصر السادات

ان الفتاة تسعي الي كشف الفساد في الحركات المريبة لرجال الأعمال عبر الصحافة في حين أن المرأة الأمريكية المتغطرسة تكون أداة ورأس سهم للاستيلاء علي سيادة الدولة وأرضها ,ان المرأة الأمريكية تقول عن المجتمع وهي في طريقها للاستيلاء علي فكرته واستغلالها:

(- السادات حلم بيه.. وانا ح ابنيه)

وهذه الصورة داخل دراما(الآخر) تقودنا الي صورة أخري خارجها.

صورة أخرى

من الصحف العربية التي نعرفها نقرأ هذا الخبر - علي سبيل المثال - ان سيدة(أعمال طبعا) ,شهيرة وجهت انتقادات شديدة لرجال الأعمال في العاشر من رمضان بعد حضورها لاحد الاجتماعات لرجال الأعمال لمشروعات بيئية - هذه السيدة يضيف الحبر - اقسمت أنها لن تساهم الا بعد أن تتأكد من أن هذه الشركة التي يتحدث عنها.

ونقرأ في صحيفة أخري أن القضاء المصري أصدر أمرا بالقبض علي بعض رجال الأعمال يليها اتهام آخر لعدد يصل

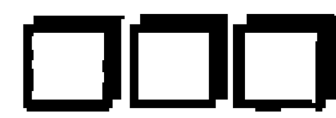
الي٣٢ من رجال الأعمال والمصرفيين من بينهم أربعة في قضية اطلق عليها(قضية نواب القروض) وأمامنا اتهامات يتحدث عنها القضاء وتشير الي الحصول علي قروض مصرفية كثيرة جدا بغير ضمانات قليلة.

نقرأ في صحف أخري أن رجل اعمال مشهور - ربما كان أشهرهم - يقيم حفلة صاخبة(فاجومي) كبير ,وينفق فيها ارقاما فلكية وحين نسأل عن السبب ،نجد اجابة، شافية ولايمضي وقت قليل حتي أن نفس الرجل - رجل الأعمال - يرعي حفلا لنجم غناء معروف بالاسكندرية فضلا عن الأحداث الفنية الأخري!! دعك من الثراء الفاحش في الشمال والجنوب صورة لانعرفها.

نقرأ أن رجال الأعمال في الغرب يوزعون أموالهم علي الجامعات ويسهمون بها في الأعمال العلمية والاختراعات المجدية والاتجاهات المعرفية ,وآخر هذه الأعمال ماقرأناه منذ يومين اثنين فقط أن مؤسسة وليام جيتس فانديشن - هل تذكرون رئيس شركة مايكروسوفت المشهورة شاركت(في تقديم الدعم للعديد من المؤسسات التعليمية في بريطانيا مثل جامعة كامبردج بمبلغ وصل الي١٨ مليون دولار.

وهنا نستعيد من فيلم(الآخر) صورة مثالية نبيلة لبعض رجال

الأعمال المصريين من الشرفاء ,نحن أمام رجل أعمال يظل مصريا نقيا مثاليا واعيا ومعه فريق من معاونيه الواعدين.. وهي صورة لانعدمها هنا وهناك ,غير أن وجود بعض النماذج الطيبة تؤكد شراسة البعض الآخر من رجال الأعمال الذين يمكن أن يمثلوا(الآخر) الذي يقف في معسكر ضد ارادة الوطن ومستقبله.



واذكر جيدا فى هذا الوقت فى الشهور الاخيرةمن القرن العشرين اخذت اعبر عن هذا الدور الغائب لرجال الاعمال بعديد من المقالات بالاهرام حتى حادثنى المسئول عن مكتبة الاسرة فى هذا الوقت ان رجال الاعمال اتصلوا به ، وان المسئول الثقافى الذى سيقوم بدور يضطلعوا به فى مجال الثقافة هو (فلان) وهو مسئول كبير كان مكتبه فى مبنى الاذاعة والتليفزيون وان هذا الرجل يريد منى الاتصال به ..

وقتها ذهبت الى الرجل الكبير فرحب بى وجلس معى طويلا وكان ملخص ما اراد ان يقوله لى أن كفى الهجوم على رجال الاعمال فقد تقدمواالیه شخصيا كمسئول رسمى كبير بمشروع للاسهام الثقافى وكل مايطلبونه هو ان اصمت ليمكنهم الاضطلاع بالامر ..

وقتـهـا حـاولت ان احـمل اوراقى الى كـتـاب لينشـر الكتـاب بمقالاتي واصمت ..

وجاءنى من يقول بعدها ان بعض رجال الاعمال اسهموا عدت لاسأل لم اجد اجابة شافيه ...

يومـهـا ، واذكـر جيـدة ، وهذه شـهـادة ؛ ان سألت د.سـمـيـر سرحان وقد كان مسئولا عن المشروع الكبير : هل اتصل بك احد من رجال الأعمال؟ ولما اجاب بالنفي سألته فمن هم الذين تقدموا لجهة تنفيذية كما قيل لى للأسهام في الجهد الثقافي ؟ لم يجب ، وصمت ..

ولفت نظرى في هذا الوقت ،ايضـا ،الدور الحيوى الذى يقوم به بعض رجـال الاعمـال العرب ممن ينتمون الى الاسـرى المالكة فى السعودية خاصة حين جاء الى مصر وسعى ليلعب دورا فى الظاهر بدا ثقافيـا وفى الباطن بدا دمرا ملتويا الى حد بعـيد وقد كنت من سعة الصدر ان رحت اضع امام القارىء الصورتين : صورة مـا يقدم عليه رجل الاعمال العربى وصورته هو من وجـهة نظرة الشخصية حين اراد ان يعرضـها للجمهور العربى ..

وقد سـعـيت بجـهد كـبير لاكون مـحـايدا ومن اول براهين هذه الحيدة مـا كـتبتـه هنا وما سـمـحت به لرجل الاعمـال العربى ان

يعترض على ما اقول بل تركت له مساحة كافيه ليقول مايريد ؛ وقد يكون من المهم هنا ان اثبت هذين الرأيين هنا طلبا للحيدة وسعيا لفحص وتأمل هذه الظاهرة ظاهرة رجال الاعمال فى الزمن العربى الردىء حين يتحالف رجل الاعمال باحلامة المالية بالسياسى باحلامه السلطوية ..

وليسمح لى القارىء الكريم ان اثبت ما كتبته بالاهرام فى ٤-١١ يونيو ٢٠٠٢ على هذا النحو :

عن هؤلاء الاثرياء...و الفكر العربي

امتلأت الصحف ووسائل الاعلام في الايام الماضية بكثير من الاخبار عن هذه المؤسسة التي اعلن عنها اخيرا في القاهرة....

ورغم ان اعضاءها يتوزعون بين اقطار عربية: كالسعودية وقطر وعمان والكويت ومصر... ورغم ان اليومين الماضيين ـ السبت والاحد ـ زخرا باخبار هذه المؤسسة... فان حقيقة ما اعلن وما لم يعلن حتي كتابة هذه السطور يثير فينا كثيرا من الاسئلة والقلق ،ويدفع بنا إلي كثير من الغموض والحيرة أكثر منه الي الاستراتيجية التي تذهب اليها هذه المؤسسة..

وربما كانت الصورة التي ظهرت بها مثل هذه المؤسسة هي التي دفعت البعض ليبدي حيرته في دهشة أو استغراب كما فعل

زميلنا صلاح عيسى في القاهرة قبل أيام ،ومع ذلك أو ورغم ذلك، فان هذه الصورة التي ظهرت بها تدفع دفعا إلي التوقف عندها لمحاولة فهم ما جاءت من اجله ،فالهموم الثقافية(التي هي نتاج لتراكم اقتصادي وسياسي وفكري...) زادت حتي تكسرت النصال علي النصال كما ذهب عمنا ابو الطيب المتنبي ،فاصبح البحث عن بصيص امل وسط دياجير الظلام المترامي ينعش الخاطر ويرمش العين التي كادت تتعود ليل الظلام ودوام الغيوم...

فلنقرأ في اوراق هذه المؤسسة ،ولنستعيد تصريحات اصحابها في اللقاءات السريعة التي اجريت والجلسات الافتتاحية او الختامية التي اقيمت قبل ان نعاود النظر إلي المؤسسة ونسأل :

من هؤلاء الأثرياء

وما هي هذه المؤسسة

(٢)

ربما كان اكثر ما يلفت النظر في أصحاب هذه المؤسسة(التي اعلن عنها في شكل دعوة تقدم بها الامير خالد الفيصل) انها تغاير هذه المؤسسات التي يعلن عنها من آن لاخر في الصحف اليومية.

... انها لا تنتمي في اصحابها الي من يطلق عليهم الآن

برجال الاعمال أو ,ومن ثم ,يتنافي الحديث ـ بداهة ـ عن القضايا التي انتشرت اخيرا في الواقع العربي من قضايا الاستيلاء علي المال العام والتربح او الانفاق الجنائي كما اننا لسنا امام انحرافات من مثل ـ نواب القروض الذين افرج عنهم ومالبثنا ان عشنا في صمت القبور او مافيا البورصة التي قدم من اجلها اخيرا في مجلس الشعب استجواب كان عنوانه(هيئة سوق المال وبورصة الاوراق المالية... حلقات متتابعة من اهدار المال العام وتخريب الاقتصاد الوطني)...

نقول اننا لسنا امام ظاهرة تنتمي للاقتصاد ,بالقدر الذي تبتعد ـ كما تبتعد عن الطاعون ـ عن الثقافة او العمل الخيري, كما انه لم يطرأ في اوراقها او اشير ضمن نشاطاتها إلي عمل مثل هذه الاعمال الخيرية والثقافية التي نسمع عنها من آن لاخر في دول الغرب ,ربما كان اخرها ما تقدم به بيل جيتس بالملايين لاعمال خيرية ,وملايين اخري للجامعات من اجل هدف علمي...

وعلي هذا النحو ,فنحن امام جماعة اطلق اصحابها علي انفسهم اسما مغايرا تماما هو(مؤسسة الفكر العربي)...

وتحت الشعار الرئيسي كتب شعار تفسيري اكثر دقة ـ ربما ـ هو(مبادرة تضامنية بين الفكر والمال للنهوض بالامة العربية

واستعادة مكانها اللائق بين الامم) ويزيد من اهمية المؤسسة ان الرئيس مبارك استقبل الامير خالد ,كما حضر المقابلة كل من سلطان وبندر خالد الفيصل ,ثم السفير السعودي بالقاهرة السيد إبراهيم البراهيمى ,كما لم يخل من معني اللقاء مع امين عام جامعة الدول العربية ,وشهدت الأهرام لقاء ثقافيا وعلميا ضافيا للامير خالد الفيصل ,واحتفي به كثيرا

اذن الامر مغاير تماما ، الامر جد لا هزل ،الامر يرتبط بالثقافة والمصير اكثر ما يرتبط بالاقتصاد والقروض ؛ ثم ان الامر ـ كما نري من الشعار المطروح ـ يجمع بين الفكر والمال ,وهو ما يذكرنا بيت الشعر المعروف: بالعلم والمال يبني الناس ملكهم.. الخ.

غير ان الامر ,رغم بداهة طرحه ,وفجائيته مازال يترك فينا اثار دهشة عالقة.

أو هي دهشة مثيرة

او شيئا يعمق احساسا مغايرا لما عرفناه من اغلب رجال الاعمال والمال في بلادنا العربية اليوم

انها الدعوة المغايرة(لماهية) اصحابها الذين يعملون ـ في غالبيتهم ـ في عالم المال والذين لا يعرف ـ في اقلهم ـ من الفكر الا القليل

ان اصحاب الدعوة من الاثراء والمليارديريات ,واغلبهم ـ إلي هذا ـ يجمعون بين المال والسلطة في بلادهم ,وبعضهم ـ إلي هذا ذلك ـ يجمعون بين السلطة والمال والشعر او الفن أو النثر.

وهو ما يدفع بنا دفعا للاقتراب اكثر من بعض ما قالوه ,ومن بعض ماسطروه في ملف كبير امامنا ونحن نسأل:

من هؤلاء الاثرياء؟

وما هي هذه المؤسسة؟

(٣)

ربما كان من المهم ان نشير قبل أن نستطرد أكثر أن صاحب هذه الفكرة أو المؤسسة هو الامير خالد بن فيصل حين دعا إليها في مؤتمرالثقافة العربية الذي عقد ببيروت منذ عدة اشهر ,ومن ثم فان اكثر ما حرص عليه ان يدعو إلي الخروج من عصر العولمة بعمل نحقق فيه وحدة الفكر والثقافة الفاعلة وهو ما يحتم اجتماع أرباب الفكر العربي,

وبعد ان يستطرد اكثر حول هؤلاء يحدد نشاطهم بأنه يكون مظلة مؤسسة فكرية عربية ,تعني بالعلوم والاداب والفنون, وبتشجيع الابداع وتكرم المدعين وتسهب الدعوة اكثر في هذا النشاط بانه يتحدد في رصد الجوائز وتنظيم الاحتفاليات السنوية

وتكريم الشخصيات الفكرية.

غير ان رصد الجوائز وتنظيم الاحتفاليات السنوية والاحتفاء بالمبدعين او المفكرين... إلي غير ذلك امور تتبناها أكثر من مؤسسة عربية الآن: رسمية وغير رسمية ,نسأل

اذن ما هو الجديد

يسأل المرأ نفسه هنا ,ولا يلبث ان تصل إليه الاجابة من الكلمة نفسها حين تجمع بين الفكرة والعمل ,ان التكريم لا يذهب الي أي مبدع ,وانما تحديدا إلي اولئك الذين يتوجهون بنشاطهم لخدمة فكرة التضامن العربي ولم الشتات ويسقط في يد المرء ثانية ,انه حتي التكريم من مؤسسات عربية موجود وقائم ,ومع ذلك ,فان المرء لا يلبث ان يعود لينظر من جديد إلي الهدف المعلن عنه: انه التضامن العربي في بداية الالفية الثانية.

انه التضامن العربي في عصر(العولمة) حيث يطلب من اصحاب العولمة الا يتوحد الاخرون الا عبر تنميط المشروع الراسمالي ,والا يكون لجماعة فيما بينها(مهما تكن عوامل التجانس بينها) اي مشروع متماسك او متوحد قط ,اللهم عبر المركز العنصري النيو ـ ليبرالي ,وهو ما يعود بنا الي حسن الظن بفكرة المشروع أو المؤسسة ,انه التضامن العربي اذن...

التضامن العربي اذن هو يتحدث عنه المبادرة صراحة.

التضامن العربي :اذن هو ما تتحدث عنه المبادرة صراحة في عصر العولمة ؟

ان الامر الذي يلفت النظر هنا هو(الشأن العربي) ـ هكذا ازاء مأزق الشتات في عصر التجمعات والتكلات ـ هكذا ـ وهنا نصل اكثر مع ورقة العمل والدعوة التي طرح مناقشتها في اكثر من جلسة او مؤتمر امس وقبل امس ,والتي تلخصت في الخروج من هذا كله الي الدعوة الي قيام(مؤسسة عربية.. تتولي رعاية هذا الفكر ودعمه وتوظيفه لمصلحة الامة العربية) ولا نغفل اكثر من تصريح او عبارة طارت في اكثر من مرة هنا وهناك تتلخص ان تكون هذه المؤسسة العربية(أهلية)...

وقد يكون من المهم هنا ان ننقل فقرة كاملة في الملف الذي بين ايدينا تحت عنوان(صفة المؤسسة) ,نقرأ:

(المؤسسة اهلية ,ليس لها ارتباط بالانظمة او التوجهات الحزبية او الطائفية وتدار بواسطة ادارة من الاعضاء المؤسسين ويتناوبون رئاستها بصفة دورية ,و....)

اهلية ,اذن ,فهي ليست تابعة لحكومة عربية ,وهي لن تكون استنساخا مشابها لجامعة الدول العربية او عدد جديد من لجانها

او طرح قديم قراراتها التي اعلن عنها منذ الاربعينيات ومازالت قائمة علي الورق فقط(هل نذكر محكمة العدل العربية)

ويعود المرأ ليقلب الامر علي اكثر من وجه ,والسؤال لا يبارح اذهاننا

من هؤلاء الاثرياء؟

وما هذه المؤسسة؟

(٤)

إن اصحاب هذه المؤسسة راحوا ـ بكل ما يملكون من مال ومنصب وتأثير كبير في حياتنا السياسية والاقتصادية ـ يلتقون بكثير من المسئولين ,وعديد من المفكرين ويقيمون هذه الجلسة, ويثبتون في هذا اللقاء ,ومع هذا ,او ورغم ذلك ,فان السؤال او الاسئلة التي تلح علينا هنا ,والآن مازالت هي هي:

من هؤلاء الأثرياء ؟

وما هذه المؤسسة؟

فى هذه الفترة فوجئت بالأمير خالد الفيصل – وكان فى القاهرة – وهوصاحب فكرة مؤسسة الفكر العربي ورئيسها المنتخب يطلب مقابلتي ؛

عرفت ان الاميريريد أن يوضح الصورة أكثر أمام الرأي ويرد

علي الاستفسارات حائرة كثيرة كنت قد طرحتها هنا وطرحها البعض في السر والعلن. والواقع أني بمجرد أن جلست إليه صارحته بأن ما كتبته هنا إنما جاء انعكاسا لحيرة الرأي العام- المثقفين والقارئين- الذين لايزالون يفتقرون إلي معرفة كافية بالمؤسسة التي اعلن عنهااخيرا.

.. وبدأ الحوار.. من أنتم وما علاقة أصحاب المال بأصحاب الفكر ؟ وماذا تريدون ...؟

وتوالي طرح الأسئلة لهذا الأمير الذي يقوم الآن بدور رجل الأعمال ، وان كان رجل أعمال من نمط خاص ، طرحت الأسئلة عليه بالاهرام ، ونشرت ردوده بالتفصيل؛ بيد ان السؤال الذى ظل حائرا ، وهو السؤال الذى طرحته في حضرة الأمير أمام جمع كبير من المثقفين هو:

هل يستطيع المثقف ان يلعب دورا في المجتمع العربي او هل يستطيع المثقف الحائر ان يلعب دوره الآن بعد أن فقد هذا الدور او كاد لم تعد فيه كثير من المؤسسات والجمعيات الأهلية لتستطيع ان تقوم بهذا الدور ,كما كنا في الزمن البعيد .

وعبورا فوق كتابات كثيرة او حوارات بيني وبين الأمير سواء فى الندوات التى كان يعقدها للمثقفين في افخم فنادق القاهرة ،

او عبر الصحف ، تركت الأمير، وتركت الزمن ليحدث فى تحولاته المصائر ، مصائر النيات والاجتهادات والوعود التي اسمعها من القاهرة ومن عواصم عربية اخرى

انها الأسئلة التي يجب ان تجيب عنها مؤسسة الأمير ومؤسسات اخرى ننتظر ان تلعب دورها في الحياة الثقافية والفكرية ، فى المستقبل ..



وظللت اشير من آن لاخر هذه السنوات الى الدور الغائب لرجال الاعمال .

حتى فوجئت فى العام ٢٠٠٥ بان جائزة كبر لرجل اعمال قبطى تمنح لكاتب عال الصوت من النوبيين وانه ..لا اريد الاطالة ،فقد كتبت مقالة الخص فيها كل هذا المناخ وطريقة وصول جائزة من رجل اعمال قبطى لرجل ادب نوبى سافر الى الكونجرس ليلقي بيانا عاتيا ضد مصر ، وهو سيقوم بعدة مشروعات - فيما بعد - تنتمي لفكر رجال الأعمال المعاصرين ..

اقول لا اريد الاطالة فقد كتبت مقالا نشر بالاهرام فى ٢٦ ديسمبر من نفس العام فى صفحة الكتاب التى اكتب فيها من

سنوات لاسجل هذا الوجه االواضح لرجل الاعمال فى إذكاء عملية الطائفية وأثراء"الفوضى الخلاقة" بالتعبير الامريكى الصادق !!!
اؤكد فيه هذا المعنى :

....

(٤)
جراح آخر العام.. الجوائز!

لم يكن ليمضى العام ٢٠٠٥ دون ان نعبر عبورا عاما على اهم صور حول الفكر والثقافة من ناحية ورجال الاعمال من ناحية أخرى..

على هذا النحو ، ففى نهاية ديسمبر من هذا العام اكدت ان العام لايريد ان يرحل - هكذا - دون ان ينكأ جراحا كثيرة في قلوبنا... من ذلك جرح الجوائز.

وعلي الرغم من ان قضية منح الجوائز ومؤسساتها يصعب المرور عليها(سنتمهل عندها فيمابعد).. فاننا هذه المرة سنتمهل عند(حالة) واحدة تمثل في نهاية هذا العام أمرا لايمكن اغفاله قط ,ونقصد به منح جائزة بعينها لكاتب بعينه مما يضيف الي التراكم المحزن تراكما اشد حزنا وقتامة ,خاصة ,حين يتجاوز الامر عملية(تدجين) هذا المثقف او ذاك او(لتعظيم) شأن هذه المؤسسة او تلك ,وبالطبع ,فإن الامر لايخلو احيانا من تصويب جاء في مكانه ,غير ان الامر في الغالب لايخلو من غرض يشذ عن القاعدة ,ويعمم الظاهرة حتي ليصبح منح الجوائز في الغالب مشوبا بمرض يصعب الشفاء منه. ؛ . لقد عرفنا جميع درجات

الطيف في منح الجوائز من جائزة نوبل الي اخر جائزة يعلن عنها في نهاية هذا العام ,فاذا شئنا التحديد ,فاننا سنتمهل عند الجائزة التي اعلن عنها اخيرا في قصر المانسترلي وحصل فيها الكاتب حجاج حسن ادول علي جائزة الرواية..

وعبورا فوق احقية هذا الكاتب بالجائزة من عدمه ,فان الجائزة تثير في الامر- كالعادة- دهشة ماتلبث ان تتحول إلي استنكار وغرابة ممايصل بنا إلي حد الريبة في الامر..

وبعيدا عن توجيه اسهم الاتهام لاصحاب الجائزة(فقد منحت الجائزة لجنة منتقاة)او لصاحبها(فهو رجل اعمال له دور معروف في التنمية الأجتماعية).. فان الامر لايخلو- كما نقول- من دهشة, تتحول الي عجب وريبة ممايحدث نهاية هذا العام..

فمايلفت النظر هنا الكثير...

ان الحاصل علي هذه الجائزة كان يعلن عن اسمه قبلها بفترة بسيطة- وهو النوبي الذي يحمل رؤية شوفونية للنوبيين المصريين..

كأن يعلن في بيان يلقيه في واشنطن(في المؤتمر القبطي العالمي) في الفترة بين١٦-١٩ نوفمبر ,وهو وقت يقترب كثيرا من اقتران اسمه بالجائزة ,نقول راح يعلن في بيانه عن رؤية تكرس لقضية الاقليات وضرب كثيرا من قيم الوعي والتضامن الطبيعي

للشعب المصري الذي يجب- وينبغي- ان تظلله سحابة واحدة من التضامن في عصر سعي القوي الامبريالية في عصر العم سام للتفتيت ,واعادة النظر لوطننا العربي بمنظور مريب تتشابه معه اتفاقية" سايكس بيكو" ,بل ان مشروعات العم سام في(الشرق الاوسط الكبير) ومجموعة الثماني- فيما بعد- يتضاءل بجانبها نتائج اتفاقية(سايكس بيكو) في بدايات القرن العشرين ,وان ما يحدث الان من تقسيم و(لبننة) و(شرذمة).. وما الي ذلك من المضي قدما في الاستيلاء علي عالمنا العربي في ظل هجمة وخطة شرسة تهتبل فيها مطالب الاقليات في الوطن العربي ,فتعزلها عن المناخ العام ,فاذا بنا امام لوحة(موزاييك) كبيرة للمنطقة.

وهذا البيان الذي نشرته اخبار الادب في١٨ ديسمبر يصعب الاشارة اليه لا لطوله ,وانما لكم التعصب المريب المخادع للنوبيين,

البيان يتحدث الينا بلغة عنيفة(اسمعوا وعو..نحن شعب نوبي صرنا من ضمن الشعب المصري ,قدمنا تضحيات لم يقدمها اي قطاع مصري ,لذلك يجب ان ننال حقوقنا كما لم ينلها قطاع مصري ,وان لم ننل حقوقنا كاملة فسوف نقوم بانتزاعها ,فلا مهادنة ولا تنازل..)!!! ونضع نحن علامات التعجب هذه من عندنا لهذه اللغة الغريبة التي يطلقها احد المصريين في مؤتمر(للاقليات)

وفي مؤتمرخارج حدود مصر(واشنطن) ولهذه المطالب التي لا ينفرد بها النوبيون فقط فكل الشعب المصري بكل اقلياته وطبقاته تنال منه الظروف القاسية مثل النوبيين,بل يمكن ان نجد اكثر من النوبيين من الفئات من ينالها ذراع الغبن ,غير ان ذلك يحدث في ظروف تعاني منها مصر ,كما تعاني فيها اقطار الوطن العربي من جروح كثيرة يمكن ان نرصد عمرها باكثر من خمسة قرون حين بدأت الكشوف الجغرافيه الاستعمارية في القرن الخامس عشر حتي اليوم..

والبيان مليء ايضا بما ينال مستمعه هناك- ثم قارئه هنا وهناك- بالدهشة ,ان لم يكن سوء الظن بصاحبه ,وهي حالة منفردة لاتمثل القطاع النوبي الوطني المصري الاصيل ,فالبيان يستطرد فيطالب(وعلامات التعجب من عندنا) بالاعتراف بحقوق النوبيين! ويطالب بفتح ملف التعويضات النوبية البخسة بعد تهجيرهم لبناء السد العالي!!ثم يطالب بمعاملة خاصة للنوبيين(معاملة الاولي بالرعاية في التعليم والوظائف والمخصصات المالية والعينية)!!! ثم يطالب بتدريس التاريخ النوبي والثقافة والتراث النوبيين ,والاغرب من ذلك كله انه بعد اللوم والغضب وطلب المحاكمة يتحدث عن(الترانسفير للشعب النوبي)!!!!

علامات التعجب من جديد ، ويمكن للقارىء الكريم في هذا الوقت ان يقوم ويلاحظ هنا المصطلح(الشعب النوبي) ,ثم يقوم بالربط بينه وبين المواضيع التي تربط بينه وبين العنصرية الصهيونية المكشوفة..

الاخطر من هذا كله انه- وكما لاحظ مواطنه يحيي مختار- يتحدث كثيرا عن هذا(الشعب النوبي) فإن هناك واسمع واعجب معنا(.. شعبا نوبيا واقعا تحت الاضطهاد من المصريين, وان هناك تطهيرا عرقيا قائما علي قدم وساق من المصريين ,وان عملية التهجير التي تمت لبناء السد العالي ليست غير عملية(ترانسفير) بشع لا انساني ولا أخلاقي ..,نلاحظ مرة اخري هنا تعمد استخدامه لمصطلح(الترانسفير)!.. وهو مايجعل العديد من المصريين يستنكرون هذا ربما كان ابرزهم حتي الأن المصري النوبي يحيي مختار والنوبي المصري عزت القمحاوي .. وكل منهم يحمل من الهم الوطني والوعي اكثر مما يعرفه..

الدهشة ,بل قل الالم يعتصر قاريء(او سامع) هذا البيان, فمايقال هنا لايمكن السكوت عليه ,فان الغرب المعادي في عصر العولمة باجهزته واستراتيجيته لم يستطع ان يقول ماقاله مواطن مصري في واشنطن..

ولايمكن لمصري واع ان يردد ما نسمعه ,وما اخذ يردده داخل القاعة(في الكونجرس) وخارجها حتي اصبح لطول ترداده كانه الواقع الذي لا يأتيه الباطل من امامه او خلفه..

انه يتكلم لغة الاقليات التي تفاقمت فاصبحت تتراكم لتصنع تمزقا لهذا الوطن الواحد الذي نعيش فيه جميعا,انه يردد(الشعب النوبي) ولنا ان نستعيد ترديدات اخري نسمعها(الشعب القبطي) ولما لا نقول أيضا(الشعب البدوي) في سيناء ثم لماذا لا نقول ايضا وايضا: الشعب السكندري والشعب الشرقاوي والشعب الاسيوطي والشعب الاسواني.. الخ والامر يصل في بشاعته الي درجة(الكوميديا السوداء) التي تبعث علي الالم ان لم يكن البكاء الشديد علي احد كتابنا العرب في مصر(ليس النوبي فقط) وعلي انفسنا في زمن كان الاجدر بنا التنبه الي الخطرالخارجي الذي يحيق بنا من التفتيت الذي لحق بالعراق ويلحق ببقية اقطارنا: من لم يسمع عن(اللبننة)ومن لم ير ما يحدث في السودان(الجنوب ودارفور.. الخ) ومن لم يعرف مايدبر لكل اقطارنا فنصبح جزار ومحارق في عصر(الترانسفير) في وقت لا يخفي فيه العدو هذه(الاستراتيجية) التي تتضاءل امامها- كما قلنا- اتفاقية(سايكس بيكو) ,فليست القضية الان قضية تقسيم ,وانما قضية(تفتيت)

يسعي اليها خصومنا بدون عناء.وهو تفتيت لايصنعه اعداؤنا بل نصنعه نحن!!

نعم ,نصنعه نحن ومن لا يصدق ,ليعد لمواطننا و(بيانه) الجارح الدامي في واشنطن..

....

وهنا تنتهي المقالة ليبدأ غضب رجل الاعمال مرسلا الى عبر عدة رموز ووسائل فمرة يرسل لى بشكل يبدو طبيعيا مع صديق يعمل بالاعلانات انه غاضب ؛ ومرة اخرى اكتشف ان مقالى لاينشر بحجة ان الصفحة كلها الغيت لكثرة الاعلانات فى هذا اليوم ..

وقد سمعت من مسئول كبير بيقول لى وهو يضغط على الكلام وهويردد ان سبب عدم النشر غريبة اليس كذلك ؟

وهو لا ينتظر اجابة ويضيف وهو يتصنع الدهشة لا اعرف لماذا فى يوم الاثنين بوجه خاص ؟ اليوم الذى تكتب انت فيه لاتنشر صفحة الكتاب..؟انه لامر غريب .ولم اتنبه الى ماوراء هذا الكلام فقد ظننت انها قضية الاعلانات ..

غير ان الامر لم يمض كما يجب اذ اننى شهدت من مضايقات تحول بين ما اكتب عن رجال الاعمال ، وتسعى

لاسترضائهم ، لكن من اين ؟ كانت الطعنات خفية ، وبصمت شديد في العهد الماضي ..

وعرفت ساعتها ان من وراء هذا كله نفوذ رجل الاعمال الكبير برؤوس اعوانه فى الداخل وما اكثرهم وما اقواهم..

عجبت واشهد انني ظللت ليومين ١٣-١٤ مايو من هذا العام ٢٠٠٦ في حالة من الحزن الشديد .. لا لفعل رجل الاعمال وحسب وانما لغدر البعض ؛ لقد حاولوا ان يحيطوا الموقف كله بشكل طبيعي غير ان علامات الغدر الشديد كانت توحي برموز كثيرة ربما كان اكثر مالاحظها الصديق د . وجدى زيد بجامعة القاهرة لاقترابه من هذا العالم من ناحية واقترابه منى بشكل ودى اثير من ناحية اخرى ..

وكانت دهشته كبيرة غير ان حزنه على مايحدث كان طاغيا على حواراته المتوالية معى ..

على اية حال انني الان وفى صباح اليوم ١٦ ادهش لما حدث واحاول ان اسجل بعضه بعضه القليل فالكثير فى عقلى وفى اعترافات بعض من حولي وفى تاكيدات البعض الاخر .وهو ما اوثر ان اصمت عليه هنا واكتفى هنا بالملاحظة العامة التي اشرت اليها فى بداية هذا الموقف وهى انه اذا كنا نتحدث

كثيرا عن العلاقة بين المثقفين والسياسيين فقد اضيف اليها فى حالتى هنا..هذه العلاقة بين المثقف (الذى هو انا) ورجال الاعمال الانتهازيين الذين يسعون بكل الامكانات للنيل ممن يحاولون الكشف على علاقاتهم بسواهم ؛ ممن يحملون وعيا دافقا كمثقف واع ضد الطبقة الانتهازية الجديدة ..

انهم سعوا للنيل منى فى الاستحواذ على مقالتي ؛ ولكنى ، لا اخشى غير الله عز وجل ، فاصرارى يزيد حتى لو كانت النهاية انتصار رجل الاعمال الذى يملك امواله وهيمنة وانتهازيه دون المثقف الذى لايملك غير قلمه.. والحمد لله من قبل ومن بعد ..

حتى لو كانت الهزيمة ستحيق بى .. فان المعركة لن تنتهى وان الامر لم يتوقف بعد ..



و على أية حال ، فانه لم تمض ساعات على تسجيل هذه السطور حتى حدث فى اجتماع اتحاد الكتاب (مجلس الادارة) - وانا عضو مجلس الأدارة - ان عرض رئيس الاتحاد لخطاب ياتى من رجل الاعمال(س) طالبا من الاتحاد ترشيح ما يريده من الروائيين ..

وعلى الفور وجدتنى ادخل فى(نوبة) غضب شديدة محذرا

المجلس كله من ان رجل الاعمال هذا يعرض جائزة مشكوك في نزاهتها وهي لاتعلى فوق مستوي الشبهات خاصة منذ ان منحها لاحد النوبيين الذى جعله يرحل الى الشمال على حسابه الخاص ليلقي هذا الكاتب النوبي المشار اليه سابقا خطابا عنيفا ضد المصريين وكان النوبة التى ينتمى اليها تنتمى الى قطر اخر غير مصر ..

وحين راح البعض يدافع عن رجل الاعمال ورجال الاعمال بحسن نية(اسميها بلادة حسن وفكر) رحت اعيد عليه وعلى المجلس تحذيراتى العنيفة من ان الجائزة وصاحبها تقوم بالادوار التي يقوم بها رجال الاعمال الان خاصة وان التشكيل الوزارى الاخير – هكذا صحت – يدمج فى تشكيله الجديد قرابة سبع من رجال الاعمال ومن هنا فلايجب ان نتصور ان رجل الاعمال هذا سوف يمنح جائزة هكذا لنزاهته او لتشجيعه للانسان المصرى وهو المعروف– على العكس من كل مايقال ومن تتبع رصيده واملاكه المشكوك فى تحصيلها بنزاهة تجافى العم سام – .. المعروف بميله المريب لكل الاقليات التى يمكن ان تلقى فى ابار الاقلية التى يزعم انه ينتمى اليها الاقلية القبطية رغم ان الاقباط في مصر لايمثلون اقلية بأية حال وانما هو الانحياز السافر او

المخفى غير الاخلاقى لمواقف مريبة ..

غضبت ، فقد كان تدخل رأس المال باهداف مغايرة للواقع يحول بيننا وبين اردهار العمل الثقافى ولايمكن ان نرى رجال الاعمال الذين يتسربون العمل الثقافي يقوم بدور الرعاية المثالية ، كما يجب ان نلتفت لنقارن بين رجال الاعمال او بعض رجال الاعمال من ذوى الاهداف المريبة يمكن ان يقوموا بادوار ايجابية مثل مؤسسات نظائرهم من الغربيين من امثال الانشطة الثقافية الثقيلة التى يقوم بها مؤسسات ضخمة لهم مثل فورد ولوكفورد..

راحت بعدى البعض يردد ما اقول كان منهم د. حامد ابو احمد وفاروق عبد الله غير ان التصويت الاخير للجائزة للاسف الشديد ليؤكد على ان مثقفينا من الجالسين هنا فى اتحاد الكتاب فى مجلس الادارة وفى خارجه على امتداد العالم العربى غافلون عما يدبر لهم بليل ..

وقد يكون من المهم هنا ان اسجل اننى كتبت فى هذه الفترة مقالة طويلة بالاهرام الخميس ١٩ ابريل بعنوان النوبة ..(النوبة) اكدت فيها على الموقف النزيه لغالبية النوبيين من الكتاب او المناضلين الذين لايحلمون بارض تعكس الاحلام الموغلة فى التاريخ من استرداد النوبة التى تضم نوبة جنوب مصر ونوبة

شمال السودان فى دولة واحدة تحكى دولة (الاكراد) الذين يريدون اعادتها من شمال العراق واجزاء اخري من ايران وتركيا ..الخ .. وقد يكون من المهم ان نعود لهذه الرسالة مرة اخرى..

على اننى بعد ايام قلائل اليوم على سبيل المثال ٢٦ مايو رحت اكتب مقالة اخرى كان مقدرا لها النشر فى الخميس التالى تحمل ايجازا لعنوانها الذى وضعته حتى الان (الاحتقان .."النوبة" والنوبات) وفيها (بينت نعيش حالة الاحتقان التى اشرت اليها من قبل فى (النوبة) فى اكثر من نوبة بل نوبات تحمل اعراض تشنجية (بالمعنى الطبى) اذ ان النوبة التشنجية Sei-zures تعكس تغيرا لا إراديا مفاجئا في الاداء الوظيفي لشخص ما تسببها شحنة كهربائية غير طبيعية من خلايا المخ والنتجية هي ظهور مفاجيء لأعراض من الجهاز العصبي وتشمل (تبعاً لنوع النوبة هنا) أحاسيس مضطربة حركات تشنجية غير قابلة للسيطرة تغيراً أو فقداً للنشاط العضلي وفقداناً للوعي .

قد تحدث النوبة التشنجية كنتيجة لتوتر حاد بالمخ مثل اصابة الراس الالتهاب السحائي التهاب المخ اضطراب الكتروليتي أو ورم وهذه تسمى النوبات العرضية أو المحفزة غير ان النوبة التى نقصدها هنا التي تحدث تلقائياً(وبواعز معروف..) و تسمى

النوبات ذات العلة أو غير ..).



أقول ، كدت انشر هذه المقالة لولا ان اعلن عن الحكم الاول فى قضية حريق بنى سويف الحكم على رئيس الثقافة الجماهيرية وعددمن المسئولين دون ان يصدر حكما مباشرا عن السبب الاول في المحرقة ادبيا على الاقل وهو وزير الثقافة ومن ثم فقد كان مقالى التالى ٢٦ مايو يحمل عنوان (المحرقة /تحية الى قضاء مصر) رحت احذر فيه من ان هذا الحكم تغافل عن المسئول السياسى الاول على مستوي الوزراء وزير الثقافة و المسئول السياسى الاول على مستوي المحافظين محافظ بنى سويف - وحين جاءتنى ردود الافعال الكثير من الاثير والفضاء التخيلى .. وما الى ذلك .

عدت الاسبوع التالى لاؤكد هذه المسئولية الكبري وخاصة ان هذه المسئولية تقع على عارض الوزراء ورجال الاعمال فى زمن اصبح الحراك الاقتصادى والحراك السياسى فيه يفوق كثيرا (الحراك الثقافى) واصبحت المسئولية تقع على راس مسئولين آثروا ان يظلوا فوق القمة بغض النظر عن احساسهم بالمسئولية .. واشهد اننى كتبت عن المحرقة بشجاعة وصدق شديدين سعيت

الى نشره دون جدوى ، وسعيت فى ذلك لفترة طويلة ليعود الي من اكثر من دار حتى ضمنت خطوطه العريضة هنا و؛ لقد عاينت بألم شديد كيف لم يتم نشره بسبب تحكم الكثير من المسئولين الكبار في منافذ النشر وبسببب تخوف الكثير من الناشرين من النشر عن (المحرقة..) التى تؤكد جنايتهم على الانسان المصرى والثقافة المصرية لولا انهم لايحاكمون رغم انه يوجد فى مصر قانون معطل منذ فترة الوحدة بين مصر وسوريا (قانون محاكمة الوزراء رقم ٧٩ لسنة ١٩٥٨) ..

ورغم ان القانون معطل منذ فترة الوحدة فان اهميته تعود فى المقام الاول الى انه يؤكد ان الوزراء لايتعاملون ماليا او تعاقديا مع الحكومة وهو مايتناقض مع الوضع الحالى كما اشرنا حيث اذا طبق فانه يحاكم الوزراء الكثيرين الذين يتورطون فى كثير من الجرائم ضد الشعب بدءا من وزير المالية وصولا الى وزير الثقافة مارا قبل هذا وبعده- وهذا هو المهم هنا بوجود وزراء رجال اعمال اصبح لهم السيطرة العظمى على القرار والاقتصاد المصري بشكل مخيف ..

وهو ما مثل مشهدا هائلا إخر من سيرتى الفكرية ، نصل اليه ، حين نصل الى المحرقة ..

(٥)

الاتجاه النقدى .. سيرة غائبة

لا يمكن ان تمر السيـرة الفكرية دون ان نتمـهل عند النقـد ؛ النقد الادبى

فـفى حين لم يكن صاحب هذه السطور يسـعى الى ممارسـة النقـد بشكل صـارم او يسـعى الى توجـهـه الاكـاديـمى بشكل نموذجى، فأنه كان يسعى –فى المقام الاول – ليرسم مشـهدا اخر من تجربته النقدية عن الكلام الفاعل في النقد او بتعبير ابو حيان التوحيدى عن النقد من انه" علم الكلا م على الكلام"، وهذا حاصل الوعى بالواقع الثقافى الذى عاش فيه منذ بداية الثمانينات من القرن العشرين .

اى انه مـر فى تجربتـه النقديةبيهـو الفكر الصـارم والوان الطيف النقدية ؛ سواء اكانت متراكمة ام متباينة ..

والواقع ان ممارسته للنقد لم تكن بالشكل السائد تماما ، وانما كان – الواقع الذى جاء منه والذى صار فيه – يؤثر المعنى العام – لا المتوسل بنظريات او دوجما غريبة عن واقعه – ، ففى فترة دراسته لفلسفة التاريخ في الفترة الجامعية حاول ان تكون

علاقته بالنقد الأدبى هى هى علاقته بالنقد التاريخى، والنقد التاريخى هى هى علاقته بالواقع ورحابة الذائقة النقدية وعدم الخروج بصرامة عن (خطاب) النقد الادبى في هذه الحقبة .. وقد صرح بشكل غير مباشر على هذا فى احد كتبه (اتجاهات النقد الروائى لمعاصر : "ج١")

وقبل ان نتمهل عند هذا الاتجاه الحضارى يمكن ان اضع بين يد القارىء تصورا للمنهج النقدى كما رآه صاحب هذه السطور في دراسة صدرت قبل سنوات- فى بداية التسعينات بعنوان (البنية الشعرية عند فاروق شوشة) ..

وهو ما ننقله هنا بالحرف

....

لم يكن مفهومى النقدى، قط، هو توجيه الاتهام للنص أو حتى - تفسيره - وحسب، وإنما كانت محاولاتى، دائما، تنطلق من ضرورة وضع النص فى مكانة أولى، وارسال الحاسة النقدية فى مكانة تالية، فالخطاب النقدى هو (قراءة تالية) تختلف عن القراءة الأولى اختلاف الشاعر عن الناقد.

إن هذه القراءة الثانية يمكن أن تتغير لدى كل قارىء. غير أنها تستمد وجودها من المحاولة الخاصة، ومن طبيعة استخدام

العلاقات الوثيقة داخل النص في محاولة للتعريف بها. ومن ثم تكون محاولة كشف اللثام عن (شفرتها) بمثابة وضع اليد على بعض الملاحظات التي تسهم، مع غيرها، في استكشاف لغة النص و(رسالته) من خلال الأبنية الداخلية.

غير أنه يجب التشديد هنا على أن يكون الخطاب (النقدى) هنا خطابا موازيا (لا ثانيا). بمعنى، ألا يذوب قط فى تضاعيف النص وفى ثناياه الداخلية، وبشكل آخر، فإن الفهم النقدى لايذوب تماما فى بنية النص، وانما تكون له بنية (لا واعية)، مستقلة، عن النص، تستطيع أن تجرى مع هذا النص جدلية للفهم من خلال التفكيك واعادة البناء بشرط مهم، هو، أن تكون الأدوات النقدية نابعة من الرؤية الذاتية.

إن للنقد هنا حلما لايتماس مع حلم الابداع وانما يوازيه فى الوقت الذى لايفقد فيه خصوصيته النقدية بأية حال:

وعلى ذلك، حرصت على ألا أتمسك بمنهج خاص من المناهج النقدية، كما لم أتردد في تلمس بعض الأدوات (البنائية)، فعمدت ألا أتوقف عند أية مدرسة يمكن أن أتحول فيها إلى احدى أدواتها التى تكشف عن (النظام اللغوى) فى هذا النص أو ذاك دون أن تحدد بواعثه ومساراته الحقيقية.

لقد اكتشفت بعد سنوات من الممارسة النقدية ، وخاصة حين قرأت مدارس النقد الفني وصولا الى رولان بارت مع جامعيين فرنسيين عاشوا في مصر لسنوات -أنى أمارس الأدوات (البنائية) دون وضعها فى (دوجما) التطبيق الحرفى، وهو ما استنتجت معه، أن حرص الناقد العربى فى التعرف على (البنائية) يجب أن يكون فى اطار الحاجة الابداعية العربية، ومن هنا، فإن اعادة النظر فى أدواتى ارتبط بإعادة النظر الذاتى إلى المنهج .

ومهما يكن، فسوف أحاول أن أوجز مفهومى النقدى فى عدد من النقاط لكشف بعض رموز نصوص فاروق شوشة وسوف يكون هذا على النحو التالى:

١- لم أتوقف عند منهج خاص بذاته سواء المنهج الأخلاقى أو الرومانسى أو النفسى أو الاجتماعى أو الشكلى، وانما حاولت الافادة من (جدلية) المدارس النقدية فيما أحاول قراءته من (نص) فأوليه عناية خاصة.

٢- عرفت (البنائية)، كما عرفت التيار الأحدث منها فيما يسمى (ما بعد البنائية) Deconstructuion وبعض محاولات الشكليين غير اننى لم اسقط اسيرا لأى منها قط، فلم أتأثر كثيرا ببارت أو سوسير أو كلر أو هارتمان أو غيرهم.. ومن هنا،

فإننى فى الوقت الذى أمنت فيه على مقولة المدرسة الجديدة للنقد من أن النقد هو «هجر كل ما له علاقة بخارج النص وتركيز الاهتمام على العمل الأدبى ذاته»، فإننى أوليت العناية نفسها للجانب الأخلاقى خارج النص. وهذا يعود الى اقتناع خاص، همؤداه ، أن أى تحليل بنيوى من داخل العمل من طبيعة الرمز واللغة والصورة الشعرية والموسيقا وما إلى ذلك دون الاهتمام بالمضمون أو تعدد بنية المعنى، إنما لايرتبط بروح البنيوية الحقيقى، إذ أن الاهتمام بخارج النص هو تحليل بنيوى ضمنى أغفله كثيرا من عرفوا هذا النقد الجديد، وهو مايجعلنا ننحاز إلى ملاحظة الدكتورة سلمى خضراء الجيوسى فى مؤتمر المربد السادس حين أكدت على عبث (البنيوية) وحدها، فضلا عن أن هذا التحديد يقوى الرأى الآخر، من أن هذه (البنيوية) انتهى زمنها فى مكانها الأصلى ـ فرنسا ـ فإذا جاءت الآن فلابد أن ترتبط بالواقع العربى وتمتزج فيه، لاتتعالى عليه وتتعامل مع مجرداته.

٢ـ فى الوقت الذى لم آل فيه جهدا للبحث عن (الأنساق البنيوية) وعلاقاتها ببعضها بوصفها ضرورة ملحة فى الاطار الذى أوضحت.. فإننى، لم أغفل، بالتبعية، الافادة من بعض منجزات

(البنائية) ومقولاتها التى تحرك النظرية محاولا الاسهام، بالتبعية، فى انتاج النظرية الخاصة بنا.

٤ـ حاولت الافادة كثيرا من بعض اجتهادات أصحاب الفنون التشكيلية، إذ رحت أبحث عن الأساليب الحكائية عند هذا الكاتب أو ذاك بما يكرس للبنية الفنية، ومن ثم، آمنت، بمقولة بارت، بأنه يجب (حل الشيء لاكتشاف اجزائه والوصول من خلال تحديد الفروق القائمة بينها إلى معناها، ثم تركيبه مرة أخرى حفاظا على خصائصه التى توضح لنا أن أى تعديل فى الجزء يؤدى إلى تعديل فى الكل) ـ أبحاث نقدية ـ وقد كان هذا باعثا لى للبحث عن مساحات الصمت والكلام وكثير من الأشكال الفنية التى لاأستطيع تجاهلها.

٥ـ جهدت كثيرا كى لا أتعامل مع مصطلحات غير نامية فى بيئتنا العربية، ولم يطرحها الواقع العربى أو التراثى. فالمصطلحات التى لم تكن نتاج تطور طبيعى إنما، هى، بنت بيئتها، وحين نطبقها على نصوصنا الابداعية إنما يكون باستخدام العقل النقدى العربى فى الحكم على النص العربى. باختصار تعاملت مع (البنائية) تعاملا جدليا بالمعنى الفلسفى ولا أرغم أننى حاولت تعديل مسارها إلا بالقدر الذى حاولت معه

محاولة اذابة خيوطها فى نسيج النقد العربى وضرورته.

٦ـ هذا المفهوم النقدى لايرتبط باتجاه خاص، كما لايرتبط بما يمكن أن يسمى بنظرية (النقد المحايد) التى يمكن استخلاصها من كتابات سانت بيف، فإذا كانت نظرية سانت بيف تعتمد على العلاقات النفسية لشخصياته التى يدرسها، فإنها، هنا، لاترتبط بغير النظر إلى العمل بوجهة نظر (شيئية) أو (باردة) تماما، كما تنظر إلى العمل النقدى بحاسة نقدية تضع فى حسبانها كل النتاج النقدى لهذا الكاتب أو الشاعر. وعود على بد ء ، أننى فى الوقت الذى أوليت فيه النص عناية كبيرة مستفيدا ببعض أفكار (البنائية)، فإننى لم أتعامل معه، على أنه عمل (مغلق) يعبر عن مؤلفه أو عن عصره، فكما هو واضح، فإن النص الأول من هذا الاعتقاد (الاهتمام بالسياق والشفرة) يختلف عنه فى النص الآخر (اهمال السياق والشفرة)، فإنه لايمكن التعامل مع الجماليات وحدها للتدليل بها على تحليل نقدى واع لروح العصر وهو مايبدو جليا من الملاحق. وعلى هذا، فإن (السياق) يعد أمرا ضروريا لفهم (الشفرة) والوصول إلى مكنونها وإلى أسرارها.. وفى حالة فاروق شوشة، فقد حاولت من خلال (العمل) لا (النص)، فهم دلالات هذه القصيدة أو تلك مع عدم اغفال كثير من العوامل الأخرى خارج

النص وداخله.

....

وهو مايعود الى المنهج النقدى الذى كان اقرب الى الاتجاه الحضارى الذى اشاراليه –ضمن الاتجاهات النقدية – في فقد آثر ان يتناول كتابات الاخرين وان يتناول – الآخرون – كتاباته حين اكد في المقدمة لهذا ا فانه اضاف : .ولان كاتب هذه السطور صاحب انجازات فى نقد الرواية آثر ان يترك تقييمها لغيره " ، بل ان تناول هذه الاتجاهات من الكاتب كان يشى الى حد كبير خاصة انه اضاف هذه العبارة " لقد توزعت كتاباته بين اكثر من منهج، وقد استلهم منهجه فى الغالب – من طبيعة العمل نفسه، ففى حين بدأ من " البنيوية التكوينية" لوكاتش وجولدمان، وآثر جرامشى فى الكتابات الفكرية ـ وتلمس احيانا المنهج السيسولوجى، واحيانا مالجأ الى اسلوب تحليل المضمون واستفاد بالمدخل النفسي، واعماله المنشورة المتباينة تشير الى هذا " وراح يعدد كتاباته النقدية خاصة.

بيد انه من المهم هنا ان نسرع الى تحديد هذا الاتجاه الحضارى ، ففى هذا الكتاب(الفصل الحادى عشر) راح يقول انه يبدو اصحاب الاتجاه الحضارى منذ اللحظة الاولى انهم

يتـأبون علـى التـصنيف، غـيـر اننا نكتـشف ، مع الوقت ، انـهم ينتـمـون الـى سـيـاق حضـارى ارحب من اى منهج او اتجـاه بعينه وراح يضيف فى الهـامش هذه العبارة التى تنير لنا اكثر طبيعة هذا الاتجـاه ، لماذا ، تاتى الاجـابة على هـذا النحـو: "..لئـلا يتم الخلط بين هذا الاتجاه - الحضـارى- والاتجاه التكاملى، فانه في حين يعدو الاتجاه الحضارى انه يستفيد من كل الاتجاهات منطلقا من ان النقـد هو" موقف حضـارى" ، فان النقد التكاملى يقـتصر على مـجموع المناهج فى اطار الوحدة الفنية(ل الحضـارية) كمـا يذهب اصحاب هذا الاتجاه التكاملى .."

وعود الى هذا الكتاب - الاتجاهات النقدية - فقد راح يؤكد فـيـه ان اصـحـاب هـذا الاتجـاه يفـسـرون النص الادبى فى ضـوء ظروفه التاريـخية والحضـارية ، وفى ضوء حياة صـاحبه على ان البدء في العمل يكون خلال البناء الفنى" للعمل الذى يريد تحليل مضمونه" على ان يكون الحكم من الدلالة الفنية والادبية ؛ ويفيدنا هنا ان نذكر مايردده البعض من ان العمل ينبع من التاليف الذى يقيمه صاحبه بين حقيقتين متتاليتين" الا ولى ان واقع العمل الادبى متميز عن واقع الحياة، والثانية ، انه تعبير عن الواقع، او قل انه رؤية له" ..

والملاحظ على هذا الاتجـاه انه يـحـاول ان يسـتـفـيـد بمـا يراه مـلائمـا للنص من كل اتجـاه دون الخـضـوع لتـاثيـر هـذا الاتجـاه اوذاك، بل ان هذا الاتجاه- كما يذهب البعض - يجمع بين نظرية (المحاكاة) اونظرية التـعـبـيـر التى تعـد العـمـود الفـقـرى لمعظم الاتجاهات السـيـاقـيـة وبين هـاتين النظريتين ونظرية الخلق التى تنادى بها دعاة " الاتجاه الجمالى" ..

ويمكن لمن يريد استكمال هذا المشهد/ الاتجاه الحضارى ..ان يعود الى هذا الكتاب الاخير ويتمهل عنده اكثر ...

(٦)

دراما المثقف شهادة ليست أخيرة

ونعود إلى دراما المثقف ، فى هذه السيرة .. واعود إلى هذه الشهادة من الواقع العربى فى مصر في الحقبة الاخيرة اعود واتذكر ما حدث ؛ فما كدت اشرف على نهاية البحث فى هذه الجلسة حتى اشتعلت القاعة.. كان المكان هواتحاد الكتاب . وكان الشهداء من مثقفي الدراما والضمير الواعى .. لدراما هذه المرة من داخل النص لا خارجه وكان الباقون ا-لآن - الحاضرون امامى- صفوة من المثقفين المصريين الذين ظلوا بعد حملات الاستشهاد فى الحرائق بعيدا عن منح الجوائز او التضييق بالسكوت او التهديد باخراجهم من اللجان او حرمانهم من المكافآت او التهديد بادخالهم (الحظيرة) مرة اخرى فى تعبير سعادة الوزير ..

اعود واتذكر كيف القيت هذا البحث الطويل رغم الحاح رئيس الجلسة بالفراغ منه فى اسرع وقت ؛ فازاء خوف رئيس الجلسة وأزاء الصمت الغاضب من القاعة الغاصة بالحاضرين والمثقفين

كنت امضى فى سرعة ولا ألبث أن اتمهل فى غضب حتى اذا ما اشرفت الى النهاية ؛ وانتظرت صوت القاعة؛ فاذا برئيس الجلسة - د. صلاح فضل - يسرع فيعلن عن انتهاء الجلسة ؛ وهويحاول تهدئة الحاضرين الغاضبين - يقول أن الكاتب اريك عما نويل شميت (الكاتب الغربى المعروف) ينتظر على الباب لالقاء محاضرته ..

....

رفض اكثر الحاضرين مغادرة القاعة

رفض البعض الآخر ان يصمت الآن ..

راح الجميع رغم أى شىء يستعيد المحرقة محرقة بنى سويف وهو موضوع البحث الذى انتهيت منه توا فى مؤتمر اتحاد الكتاب تحت عنوان (تهميش المثقفين) وفى الاحتفال بثلاثين عاما على انشاء الاتحاد الذى كان يشارك فيه الان كل هذا العدد الذى تزخر به القاعة رغم مساحتها الضيقة .راح الجميع يستعيد ويسأل ويغضب ويصيح ...

....

اعود واتذكر اكثر ماحدث فى هذه الجلسة ..

فحين اعلن رئيس الجلسة انتهاء الجلسة حتى ثار كل من

فى القاعة لابد من اعطاء وقت كاف للمحرقة لابد من الوقوف صمتا على شهدائنا   لابد من منح الديموقراطية فى التعبير الان وقتا لفهم كيف حدث ما حدث من محرقة المثقف وتهميشه و.. وبحركة تلقائية صاح الشاعر سمير عبد القادر وهو يلتقط الميكروفون فيما يجب ان ننتبه اليه فى هذه الفترة ونحن ننظر باسى الى قتلانا وندفع الى المستقبل باهمالنا لابد من التنبه الى تهميش المثقف حيا ومحترقا لابد من التنبه اكثر الى هذا المثقف ونحن نرى مصيره لابد وان نتذكر انه كان يسعى للخروج بنا من الحاضر الى المستقبل وفى الوقت نفسه القبض على الهوية العربية الحصن الحصين للدفاع عن وجودنا وبقائنا فى هذا المكان.. إن المثقف يضيف لم يحرق فى الجنوب فى بني سويف فقط وانما في كل مكان   فى كل قطر فما حدث هناك فى الجنوب يحدث هناك فى الجهات الاربع فى وطننا العربى

وبدا واضحا ان رئيس الجلسة لم يستطع ان يسيطر على القاعة الغاضبة بتجاهل الثائرين ورغم محاولته انهاء الجلسة لأكثر من مرة للخروج من هذا الغضب   وللسماح للزائر الغريب ..صعد مثقف اخر واعيا اشد مايكون الوعى ليلتقط الميكروفون راح احمد عبد الرازق ابو العلا يصيح فى الكتاب و(الكتبة) ان

يستيقظوا .. ماحدث لابد من التنبه اليه فهو درس للذين لم يتنبهوا بالقدر الكافي لمايحدث فى الجنوب المصري وفى كل جنوب عربى في اوطاننا لابد من التنبه والوعي قبل فوات الأوان .

كان الغضب صاعدا متصاعدا لم ار من قبل مثل هذا الغضب لدى من بقي من المثقفين ممن بقى بعد الحريق والتهميش والاهمال ..

كان يعلو فى اذنى رويدا رويدارغم الصخب العاتي صوت نجيب محفوظ وهو يستعرض مشكلة تراجع الكاتب فى بلادنا مؤكدا ومفسرا ان القوى المحافظة (= المستفيدة) تعمل ضد الكاتب وهى القوى التى اصبحت الآن اعلى صوتا وابعدمكانة .

غضب المثقفون الان ولا يستطيع احد ان يوقفهم وكما كان عدد الغاضبين المعبرين عن غضبهم علنيا وعنيفا ؛ كذلك كان كما اسهبت منذ قليل كان رد فعل المتمردين على ماحدث اقل عددا من المهادنين والمترددين والمنافقين والانتهازيين والمستفيدين ..

دفع الى البعض اوراقا على المنصة يسألون هل رئيس الجلسة كان مع /او ضد تهميش المثقف(= وحرقه) فى البيانات التى حملتها ..

حاولت ان استعيد الاجابة من البيانات بين يدى لاجيب طلب منى رئيس الجلسة ان اتوقف كيلا نفقد السيطرة على القاعة ليس الان ليس مهما الان ..

....

لنعد الى البداية اذن

ليعد معى القارىء الكريم .. الى بداية المحرقة خارج اتحاد الكتاب

بعيدا عن عيون الجالسين والنائمين فى حظيرة الوزير ..

قريبا من الغاضبين والمتمردين من المثقفين الواعين

فقد آثرت هنا ان اترك ماقلته او ما حاولت ان اقوله وسط حملة التضييق بين يدى القارىء الآن فكما كنت وكنا على المنصة وفى القاعة من الشهود على ماحدث لاهلنا فى الجنوب كذلك يجب عليك عزيزى القارىء ان تكون ايضا من الشاهدين عما حدث من ادى الى المحرقة ..

هل المخرقة هى حقا بالمصادفة؟

اظن ان عنوان الجلسات التى اتينا اليها تدفع بالاجابة بين ايدينا (تهميش المثقف) وهذا التهميش له طرق كثيرة منها وربما اولها (المحرقة) وتظل ذلالات المحرقة ورموزها تتراكم بين

ايدينا لكل مثقف واع متمرد ..

وكـمـــا تركت هذه الاوراق بـين يدى القــارىء تركت ايضـــا أوراقـاأخـرى هـى تـقـارير لماحـدث وبيـانات العـديد من المثـقـفين لتحديدادوارهم وتعديد افعالهم فى خانة الوعى والشهادة ..

وبالتبعية ، هذه الشهادة التي اتقدم بها الان للضمير العربى فى مصر

وهو مايحتاج العود الي تعريفات شائعة عن المثقف ..

لاحظ اكثر من متابع او صديق انني اولى للمثقف العضوى اهتماما كبيرا.

-الا ترى ذلك؟

دفعني ذلك لأن اتنبه واستعيد السؤال وانا احاول الأجابة ..

كـان الزمن زمن المحـرقـة(بني سـويف) وزمن المحـارق التى نعيش فيها (فى النصف قرن الاخير) غير ان ميلودراما ٥ سبتمبر فى الجنوب دفعت بى الى محاولة الاجابة عن هذا السؤال خاصة واننى كتبت فى هذه الفترة مقالين بجريدةالاهرام فى هذه الفترة عن (المحرقة) استعدت فيهما صورة المثقف التقليدى حاولت ان ارسم ملامح هذا المثقف العضوى المثالى كما عرفته ثم كما يترائى امامي الآن فى عصر العولمة وتغيير الموازين فى بداية

الالفية الثالثة..

حاولت فى هذا كله ان اكون شاهدا ومعاصرا للحدث خاصة اننى كائن اصيب بداء قراءة ومراجعة(كل) الصحف التي تقع في يدى العربية منها والفرنسية خاصة كل مساء .

ومن هنا كانت الأسئلة التى تبحث عن اجابة واضحة :

- كيف ارى صور المثقف العضوى فى المحرقة وبعدها؟

- كيف ارى طبيعة العلاقة بين هذا المثقف فى تحولاته والنظام الذى يمثل رمزا له بشكل ما؟

- كيف تحولت صورة المثقف العضوى المتمرد فى تحولاتها الى صور اخرى: المؤيد المهادن المتردد الانتهازى..الى آخر هذه الصور التى عرفناها ابان الازمة؟

- ثم وهو السؤال المهم هنا:اليس ماحدث فى بنى سويف الرمز هو رمز محارق المثقف المصرى الذى يسعى للتغيير؟



فعلى الرغم من ان الزمن الذى نعيش فيه اصبح فى كثير من مثقفيه اقرب الى زمن السلطات السياسية التى تقترب من

الديكتاتورية او تقبل فكرةالتوريث ؛ فان السمة الغالبة عليه الان هي سمة (العولمة) التى حولت مثقفنا الواعى الى مثال(يرثى) له بعد ان شهدنا امثلة مجيدة وان تكن متناثرة لايجمعها الا الواجب التى تعرفه وتسعى اليه ..

وهو ما يجعلنا نقترب فى رؤية المثقف المعاصر عبورا فوق التاريخ الذى جاء منه الى حقيقة مفزعة تقودنا الى اجتهادات شتى على النحو التالى :

"ان النظرة العجلى للنصف قرن الاخير يرينا ان (المثقف الخبير) -بتعبيرد. محسن خضر- اصبح اقرب الينا من المثقف الواعى الذى شهد وشارك فى عصر الأمبربالية فبعد ان لاحظنا تعدد الظلال لهذا المثقف بتأثير العصر .

الامريكى وع ذلك فاننا ازاء هذا المثقف الذى افرزته الحقبة الماضية مازلنانكتشف اننا امام المثقف العضوى الملتزم (. محسن خضر ظاهرة)الوكلاء الحضاريين للمذاهب الغربية (كما يصفها البعض لم تمنع انخراط المفكر العربى فى قضايا مجتمعة من استقلال وطنى والتنمية والوحدة العربية منذ الخمسينيات وان تصاعدت بتأثير العولمة ظاهرة)المثقف التقنى (وهو نموذج افرزه المجتمع الصناعى اى المثقف الخبير مقابل تآكل دور المثقف

العضوى المشغول بتغيير الواقع.. وهذه السمة سوف تتعمد حيث روجت العولة لهيمنة نموذج ثقافى يسلخ عرى الانتماء القطري او القومي ويعمم النموذج الغربى والفكر الغربى على مستوى العالم مما سيعمق لظاهرة المفكر عارض الأزياء ومروج الموضات الفكرية وبالتالى سيشجع على تغلغل الأنساق الثقافية الغربية الأميركية على حساب البنى الثقافية الوطني جريدة الوطن ١١اكتوبر ٢٠٠١)

وهو مثقف مازال معارضا للفساد الداخلى والامبريالية الخارجية ومن ثم / كانت محاولة الاجابة تتحدد فى حدث معاصرعبر مثقفيه وتتجدد عبر الاحداث التى مرت بى منذ ممارسة ثورة يوليو لعلاقتها مع المثقف وتوابعه من (اهل الثقة واهل الخبرة) ..خاصة والمثقف (العضوى) بشكل اخص

وعلى هذا النحو وجدت نفسى امام هذه القضية التى عرفت ليس فى العصر الأيطالى عصر جرامشى فقط وانما عرفت -وبنظائر محددة منذ العصر الفرعونى- والامثلة كثيرة - ولم تكن محرقة الجنوب الان اكثر من استعادة لنمط معين من المثقفين هو المثقف (التقليدى) ودوره وتحولاته فيمايحدث لنا او حولنا ثم أن المثقف العضوى الايجابى او الذى يجب ان يكون

(ايجابيا لعلاقته بالمجتمع. من حيث هو نظام فى المقام الاول) ومن ثم فان دوره يجب ان يكون ايجابيا او هكذا خيل الى .

بيد اننا قبل ان نغرق فى هذا الجدل لابد ان نسأل :الى اى مدى يمكن ان يكون هذا المثقف (عضويا) ايجابيا؟

والى اى مدى يمكن ان يتعثر هذا النمط ليقع فى "حظيرة" السلطة احيانا كما اطلق وزير الثقافةعلى المثقفين هذا التعبير ووصفهم بعد المحرقة بانهم(مرتزقة)؟

وقبل هذا هومن هو المثقف (العضوي)؟

□□□

وبعيدا عن تعريفات كثيرة اختلط بعضها بالبعض الاخر ابان الكتابة والاسهاب والاغراق فسوف نعتمد مفهوم جرامشى هنا :

-(من هو المثقف التقليدى)

- و هل يستطيع المثقف العضوى حقا ان يلعب دورا ايجابيا؟

ان المثقف العضوى Organic intellectuals عندجرامشي هوما نستطيع ان نجد فيه المثقف الذى يمثل رمزا او (كادرا) واضحا للمجتمع او الدولة وهذا الكادر(=المثقف) يقوم بدوره الواعي تحت مظلة الدولة وليس اسيرا لها بالتبعيه ومن هنا ففى حين تمثل الدولة المجتمع السياسى يمثل مثقفوها المجتمع

الفاعل عبر تحرك فردى او في الغالب عبر تنظيمات او جماعات متضامة عبر(تنظيمات) فاعلة .

وعلى هذا النحو فان المثقف عند جرامشي يتحدد حول مدى تشكيل هذا المثقف رمزا او فئة اجتماعية تتحدد على هذا النحو :

" ان كل فئة اجتماعية ترى النور في بادىء الامر على ارضية وظيفية اساسية في عالم الانتاج الاقتصادى تخلق عضويا في نفس الوقت الذى ترى تانولر فيه شريحة او عدة شرائح ؛ أن المثقفين الذين يزودونها بتجانسها وبوعيوظيفتها الخاصة لا في المضمار الاقتصادى فحسب وانما ايضا في المضمار السياسي والاجتماعي"(Gramsci/dans le texte/e.s.Paris.1977 .(597/598). ،(.

وعلى هذا فان المثقف العضوى هنا يتحدد دوره عبر البنية الاجتماعية ونظامهاالاجتماعي وليس من خارجها ومن ثم فانها ترتبط بهذا المجتمع ارتباطا وثيقا يبدأ من التأثير او التبعية الاقتصادية وصولاالى التاثير السياسى في المجتمع النظامى (الدولة واجهزتها

معنى هذا انه يرتبط المثقف العضوى حسب الوان الطيف المتوالية له بالطبقة الاجتماعية التى تكون هى الطبقة الحاكمة ومن

ثم فان العلاقة تكون عضوية من حيث ارتباطها وهو ارتباط لايكون متجانسا في عديد من الاحيان كما سنرى ..

ويلاحظ جرامشى هنا انه وان كان الارتباط بالمجتمع السياسي مؤكدا خلال التنظيمات التي يعملون بها فان ثمة استقلالية توجد او لابد ان توجد لديهم في قناعاتهم المعرفية والثقافية بشكل جمعي وهو ما يفسر لنا كيف ينتظم افرادهم في تكوينات خاصة بهم اما أن تكون رسمية كوزارة الثقافة التي تحتوى على العديد من هذه التكوينات او عبر الفئات الحرفية الفئوية(كالاتحادات في مجال التاريخ والهندسة والكتاب والأدباء..)الى غير ذلك او عبر الفئات السياسية والفكرية المباشرة (كالاحزاب والنقابات.. الخ)

بل يمكن ان نجد صور هذا المثقف العضوى اليوم في عديد من التنظيمات والجماعات التي لم تعد لتنتمي للدولة رغم ارتباطها الوظيفي بها مثل الجماعات التي ابدت الاعتراض المباشر في انتخابات ٧سبتمبر او في عديد من المناسيات السياسية التي تجد دائما من يخرج عن السرب ويحاول ان يعبر عن رأيه خارج هذه العضوية الرسمية وربما كان ابرز مثال لها في الالفية الثالثة هذه الجماعات او التنظيمات التي تجمعت بسرعة واتخذت قرارات

معارضة في محرقة بني سويف كما سنرى -بما يقترب بها من المثقف الآخر خارج التنظيم الرسمي

الذى اطلق عليه جرامش بالمثقف التقليد ى وهو مثقف يمثل مع غيره فئة اساسية تغاير في اصولها ومواقفها الفئة السابقة وان اتت من البنية الاقتصادية"التى كانت فيها عبر التاريخ" (Gramsci/dans,P33,40)

وقد يكون من المهم هنا ان نسرع بالقول ان هذا المثقف التقليدى لم يكن دائما خارج التصنيف الذى وضع له وانما يمكن ان نجده ينتمى حينا الى المجتمع الذى ينتمى اليه اجتماعيا كما انه ينتمي احيانا الى المجتمع الذى ينتمى اليه مدنيا وهو ما يصل بنا الى نتيجة مؤداها انه كثيرا ما نجد هذا المثقف التقليدى يقف فى خندق المثقف التقليدى وربما شاركه فى عديد من قناعاته كما سنرى..

ان الواقع اصبح يغير قناعات الكثير من الفئات التى ينتمى اليه المثقف خاصة اننا فى عصر العولمة الذى عرفه العالم منذ التسعينات وما تبعه من (عسكرة العولمة) وكثيرا ما نجد تغييرا فى سمات هذا النمط او ذاك..

وهو ما يعنى ان التصنيف الى عضوى وتقليدى ليس جامدا

وانما هو حيوى من حيث الحدث السائد ومن حيث التغيير الحاد الذى اصبحت تفرضه على شعوبنا العربية الامبريالية الامريكية اليوم

غير ان جهدنا الان سينصرف الى النمط الاول (العضوى) لاهميته في السياق ولتكوينه التاريخي الذى يخرج منه من آن لاخر تبعا للظروف العصيبة التى تعيش فيها امتنا العربية .

وهو مايجب ان نعود من حيث جئنا

فلانه لايهمنا هنا االمثقف التقليدى فهو فى الغالب - خارج التاثير على الطبقة التى ينتمى اليها بتعبير الفكر الاشتراكي الذى جاوزه جرامشي فسوف نتمهل هنا عندصور المثقف العضوى المنتمى للنظام والذى يجد نفسه فى اغلبه متعارضا معه ..

وهى ظاهرة تبدو اكثر بروزا في الحقبة الاخيرة حيث شهدت المنطقة مع كثير من التغييرات عديد من الظواهر التى تعبر عن نفسها حينا وتحوز الحد العلمى (كما فعل جرامشى فى كراسات السجن) أو الاجتهادى كما عرفنا فى ميلودراما بنى سويف .

انه (وعى)المثقف العضوى وهو وعى ينتمى هنا الى

الفكر(الجمعى) وليس الاجتماعى التقليدى كما حاول ان يصوره لنا آباء الاشتراكية

فلنر بعض صور المثقف العضوى فى هذه الميلودراما

□□□

نحن امام عدة صور لهذا المثقف العضوى نقترب منها عبر حادثة او مأساة هذه المحرقة التي اثارت الكثير وما لبثت ان غابت تحت ركام المحارق والاحداث الاخرى التى تشهدها منطقتنا ..

فى هذه الفترة التى شهدنا فيها(المحرقة) وقد كنت احد شهودها اذكر اننى كتبت عن ذلك وانا اطرح السؤال الذى عاد ليشغلنى دون ان اتعمد او ابحث عنه :

هل يستطيع المثقف العضوى حقا ان يلعب دورا ايجابيا

رحت اعجب بالم من هذه الحادثة المروعة او (الميلودراما) التى شهدها اهلنا فى الجنوب .. وانا ابحث عن صور المثقف فى المحرقة....

لقد اقيم عرض درامى فى معرض للفنون التشكيلية (تصور)!

وتصورت كيف تنال يد الاهمال من قاعة ليست لها علاقة بالدراما ليس بها الا بابان احدهما مغلق بالجنازير و الاخر مغلق

بيد موظفى الامن الذين قاموا بايعاز من المخرج بتغيير القاعة الضيقة الكئيبة فتتحول الى قاعة قاتمة تذكرنا بقاعات السجن حيث تلطخ بورق مرشوش بالاسبراى القابل للاشتعال.. وحين بدأت المسرحية وانتهت كانت النيران نتيجة لاهمال بشرى معروف- تلتهم اجساد اكثر من خمسين فنانا ومثقفا

كان حديثى يتحدد حول هذا المثقف الذى ينتمى للنظام ويرتكب من صور الاهمال ما لم يكن ليخطر على بال اكثر الكتاب مأساوية ..رغم انه ينتمى الى النظام..

ورحت اعجب للمسئول الاول عن الثقافة فى مصر الذى تجرى فى عصره المحرقة بعد المحرقة

راح محدثى يسر الى فى صمت الاجابة التى كنت انتظرها بعد فجيعة (حديقة الحيوان) !! -عنوان النص الذى كان يعرض فى قصر ثقافة بنى سويف- فى يوم هو اقرب الى محرقة لاناس ينتمون الآن لكاتب المسرحيةادوارد البى حيث كانوا يتواجدون ليقوموا فى خاتمة المسرحية بدور لم يخطر على بال احدهم.

.بل ان مصير قرابة خمسين فنانا ومثقفا فى هذا الديكور المعتم الذى لم يكن لينتمى الى عالم(كافكا) منه الى عالم اى كاتب او مسئول مصرى آخر اسهم فى الاعدادا لنهايةالمسرحيةاكثر من

الاحتفاء بها ..

ماهذا السيناريو الاسود الذى لم يكن ليفكر فيه اى كاتب مسرحى بهذا الشكل المريع..

عدت أسال متحيرا عن المثقف الذى يتواجد بيننا ولا يلتزم بسمات المثقف الذى يلتزم به المثقف العضوى Organic intel-lectuals بتعبير جرامشي عن هذا المثقف الذى يمثل عنصرا عالما مفكرا من طبقية اجتماعية تنتمى فى الغالب الى النظام القائم وتعمل من خلاله وربما دافعت عنه وهى توجه اليه السهام .. ورحت أسال وسط هذا كله

هل نحن فى حاجة لاعادة طرح مفهوم جرامشى عن هذا المثقف الفاعل الآن والنار قد اشتعلت ولم تسكن الا بعد ان حولت اكثر من خمسين مثقفا الى كتل من الفحم ..

كيف يستطيع المثقف العضوى حقا ان يلعب دورا ايجابيا

العلاقة اذن بد ت اكثر وضوحا بين هذا المثقف العضوى والمثقف الموظف الذى يفترق الان فى توجهه الاخير عن المثقف التقليدى ان هذا المثقف (الموظف) فى تعبير قريب من الدقة هو الذى لعب هذا الدور الرئيسى منذ البدايه منذ استطاع صياغة القانون ٦٧ ثم استطاع ان يعيد طرحه عبر عملية (وظيفية)

كبيرة ا ستطاع النظام من خلالها فتح انفراجه ديموقراطية فى حائط الحكم تم من خلاله اتاحة الفرصة لترشيح عشرة من المواطنين انفسهم للرئاسة لاول مرة فى تاريخنا العربى

رحت الوم مثقف جرامشى لاعود اليه من جديد فلايمكن ان نتهم كل المثقفين الجالسين هنا خلال الندوة بمثل هذا الاهمال الجسيم الذى ارتكبه المسئول الاول عن الثقافة بالطبع.. انما هو المناخ السئ فاهمال احد اولئك المسئولين لايحول دون وجود مثقفين اخرين ينتمون عضويا ايضا للدولة ويعملون بكد وجد شديدين ولدينا من الامثلة الكثير ..

المثقف العضوى اذن نجده فى اولئك الشهداء الذين جاءوا الى هناالى مسرح بنى سويف بعيدا عن العاصمة ليقدموا هذا العرض للجمهور ويقوموا ومنهم الفنان والناقد والمثقف .. الخ – ليؤدوا دورهم المسئولين عنه بعيدا عن العاصمة..

المثقف العضوى ايضا وجدناه فى بيان عدد كبير من المثقفين عقب هذا الحادث اشار الى هذا السيناريو المؤلم للأحداث الذى تخلله تقصير واضح من اجهزة الاطفاء والاسعاف التى وصلت المسرح بعد اكثر من ٦٠ دقيقة ونقل المصابين فى سيارات اسعاف سيئة للقاهرة و"لاخلاء مستشفى بنى سويف حتى يراه

وزير الصحة نظيفا! وتقصير الاطباء فى مستشفيات بنى سويف واحمد ماهر والمنيرة وغيرها من المستشفيات التى استقبلت الجرحى واعتداء الامن على اسر الضحايا امام مشرحة مستشفى بنى سويف"

البيان الذى اصدره المثقفون طالب بمحاكمة وزير الثقافة

غضب المثقفون من هذا الاهمال للدور الذى يوليه المسئول عن الثقافة فى العاصمة دون الاقاليم .

غضب المسئولون من هذا التقصير المريع كمثال للتقصير العام

عرفنا ان الوزير راح يقدم استقالته..

قام الوزير بجمع اوراقه ومتعلقاته من الوزارة

راح البعض يسأل هل الاستقالة تعنى البعد عن المساءلة

ام هى اخلاق فرسان الثقافة فى زمن انفراجات الديموقراطية التى تشهدها الدولةالان

شغلت عن هذا كله مرة اخرى بدور المثقف العضوى..

وعدت الى كوكبة تنتمى الى هذا المثقف -_العضوى- تلعب ادوارا حيوية اليوم

وعدت لاطرح السؤال من جديد :

هل يستطيع هذا المثقف حقا ان يلعب دورا ايجابيا ؟

ورحت اعدد صور المثقف العضوى فى بلادنا ولما تمض خمس سنوات فى الالفية الثالثة..

بيد انناقبل ان نشيرالى صورة المثقف العضوى بشكل ايجابى لابد وان نشير الى صورة هذا المثقف داخل المحرقة بشكل واع ؛ فلاشك فى ان العدد الكبير من محترفى الدراما من المثقفين الواعين فى المحرقة يمكن ان نجد فيهم هذا النموذج الايجابى للمثقف.

لقد ذهب هؤلاء ليمارسوا فن الدراما وهو فن ايجابى بروح المثقف الملتزم الذى يمكن ان يكون(شهيدا) من اجل دفع التنوير والوعى الى عقول مشاهديه ..

وعلى هذا تتداعى امامنا الصور والانماط ..

(١)
المثقف المتمرد

بدا المثقف الغاضب يعبر عن نفسه فور تبين مدى خسائر المحرقة اذ اعلن عدد ليس صغير من المثقفين غضبهم ومطالبهم التحقيق ليس مع وزير الثقافة وحده وانما ايضا مع عدد آخر من الوزراء المسئولين(وزيرى الداخلية والصحة).

من اولئك المثقفين اعلنت اوراق الغضب التى طارت الى وكالة

رويتر انها تحمل اسماء مثل يوسف شاهين

ومن بين الموقعين على البلاغ الذي اعلن انه سيقدم للنائب العام الى جانب شاهين من المخرجين علي بدرخان ومجدي احمد علي ومن الروائيين صنع الله ابراهيم ومحمد البساطي وعزت القمحاوي وبهاء طاهر وابراهيم عبد المجيد وعلاء الاسواني وسحر الموجي وسلوى بكر.

و من الشعراء الشعبيين احمد فؤاد نجم وسيد حجاب والناشر محمد هاشم ومن الفنانين عبد العزيز مخيون وخالد الصاوي

ومن الفنانين التشكيليين عادل السيوي.ومن الكتاب والشعراء الشبان احمد العايدي وحمدي ابو جليل وابراهيم دواد والنقاد بشير السباعي وصبري حافظ.

وتكررت هذه المواقف وصدرت عنها البيانات الغاضبة المتشابهة فى التمرد على ماحدث المطالبه بالتحقيق والقصاص كبيان "حركة ادباء وفنانون وكتاب من اجل التغيير" الذي صدر مساء السبت التالى للحادثة.

لقد وصل عدد الموقعين عليه الي ما يتجاوز ٤٥٠ فنانا وكاتبا ومفكرا بينهم احمد فؤاد نجم يوسف شاهين حسن سليمان بهاء طاهر محمد البساطي صنع الله ابراهيم رضوي عاشور محمود

حميدة سيد حجاب علي بدرخان عبد الوهاب المسيري عفيفي مطر عبد العزيز مخيون محسن حلمي خالد يوسف عبد الهادي الوشاحي جميل عطية ابراهيم بشير السباعي سيد البحراوي.

وبدا صنع الله ابراهيم اكثر المثقفين غضبا لما حدث رغم انه ينتمي الى شريحة "المثقف التقليدى" الذى لم ينتم للنظام السياسى غير ان غضبه لم يجعله يتمهل فى التعبير وانما راح يصرح هنا وهناك بهذا الغضب وبالاشتراك فى البيانات التى قدمت ضد الوزير ..

وعلى الفور تكونت عدة جماعات او تنظيمات من المثقفين لعل اولها كانت حركة

٥ سبتمبر((جماعة ٥ سبتمبر)هذه ومالبث ان خرج اصحابها فى مظاهرات وحملوا لافتات وشعارات مندددة بالنظام غير ان اهمية المثقف الغاضب هنا فى هذه الحركة كان انها نجحت فى البيان الذى اعلنت فيه مطالب اساسية ضد مايحدث وذلك بأحداث رد الفعل لما حدث والاهم منه انها نجحت ان تضم اليها عدة حركات شعبية اخرى مثلت المعارضة منذ (الانتخابات) الاخيرة والتعديل الخاص بالمادة ٧٦ .

والواقع انه من الصعب الاشارة الى هذا المثقف العضوى

الملتـزم دون ان نشـيـر فى نفس السـيـاق الى تحـالفـه الواعى مع المثقف الاخـر الاتـى من الجماعات والحركات التى شـهدت تعديل المادة ٧٦ وحاولت ان تعمل ضدها بروح واعية

معنى هذا ان جماعة المثقفين الغاضبين استطاعوا الارتباط "بحـركات المعارضـة الجديدة " فـى مصـرالتى تكونت من حـركـة كـتـاب وأدبـاء وفنانين من أجل التـغـيـيـر وحـركـة نسـاء مـن أجل الديمقـراطيـة المعروفـة باسـم "الشـارع لنا" وحـركـة أطبـاء من أجل التغيير وحركة شباب من أجل التغيير والحركة الشعبية من أجل التغيير.

كانت حركة كفاية اذن من الحركات المعارضة.

ورغم انه لم يكن قد مضى زمن على تأسيس ظاهرة المعارضة الجديدة فى مصروعلى الرغم من انه لم يكن قد مضى عامان على تأسيسها كما اسلفنا فانها اصبحت على حد قول احمد منيسى (ملف الاهرام الاسـتراتيـجى- السنة١١- العدد١٢٩ - سبتمبر ٢٠٠٥) واحدة من اهم حـركات المعارضة على المسرح السياسى وتشكل كفروع لها او على شاكلتها تنظيمات مختلفة داخل اوساط او فئات عديدة من المجتمع المصرى فتشكلت على سبيل المثال حركة صحفيون من اجل التغيير وأطباء من اجل التغيير وادباء

وفنانون من اجل التغيير ومثقفون من اجل التغيير كما لاحظنا من الجماعات التى انضمت اليها اثر محرقة بنى سويف

وقد كان رد فعل الوزير الاعتراض على البلاغ وراح يتهمهم بانهم اصحاب مصالح بل راح يهاجمهم هجوما حادا ويتهمهم " بالسادية" ..

وحين اعلن الوزير لامتصاص الغضب الاستقالة لم تتمهل جماعة المثقفين الواعين فراح عدد كبير منهم يرون فى الاستقالة مجرد مناورة كاحمد عبد المعطى حجازى واحمد عبد الرازق ابو العلا .

ويبرز دور هذا المثقف العضوى اكثر عقب هذه الاستقالة(= المناورة) حيث راح هذا المثقف خلال حركة(ادباء وفنانون من اجل التغيير) ومجموعة ٥سبتمبر ان الاستقالة "مجرد مناورة سياسية خبيثةلامتصاص غضب المثقفين وهو موقف المثقف الغاضب ضمن مجموعة اعلنت عن نفسها(مثقفى وفنانى الاسكندرية -) HTTP://Fiveseptember.blogspot.con/ ، ترحيبها بالاستقالة ومطالبة بالمزيد من استقالات وزير الصحة وزير الداخلية ووزير العدل وغيرهم بل طالبوا بالتحقيق الفورى مع جميع المسئولين .

بل اعلنت حركة ٥ سبتمبرانه تشكلت هيئة دفاع قانونية لمتابعة التحقيقات في قضية حريق قصر ثقافة بني سويف والمطالبة بحقوق المجنى عليهم من المحامين الذين ينتمون الى السلطة القضائية والتى تتعرض دائما لعنت السلطة السياسية (٦).

بل كان غضب المثقف العضوى قد بلغ مداه فى كتابات اولئك فاحمد عبد المعطي حجازى تساءل :

- هل يكون هذا الخراب المنظم قضاء وقدرا

راح يجيب على الفور:

- ولقد كنا نخدع انفسنا او نعزيها بهذا القول المريح لو ان حريق بنى سويف كان هوالحريق الاول او لو ان قصور الثقافة كانت هى وحدها التى تحترق لكننا لانستطيع ان نظفر بهذه الراحة المشتهاة لأن الحرائق مشتعلة منذ سنين عديدة فى كل المؤسسات الثقافية " (١٤١ سبتمبره٢٠٠٥و٢٨سبتمبره٢٠٠٥) ؛ وهو ماراح يردده بشكل اكثر قسوة بعد ذلك .

وراح احمد عبد الرازق ابو العلا يقول بوضوح شديد " أستطيع أن أقول أن هؤلاء الذين بايعوا الوزير دفاعا عن مصالحهم ومنافعهم بايعوه - للأسف الشديد - على حساب

أرواح الضحايا ومشاعر أهلهم وأصدقائهم وذويهم دون أدنى اعتبار لمسئولية المثقف الحقيقى فى مواجهة الفساد والانحلال والتنطع.

لن أتحدث عن هؤلاء وسوف يقوم الواقع بعملية فرز طبيعية وتلقائية لكل المثقفين الرافض والمؤيد والمحايد منهم ولن أتحدث عن الفروق التى يجب أن نحددها لكل من المسئولية السياسية والجنائية تجاه ماحدث فى محرقة بنى سويف فمن الواضح أن المسئول لايريد الاعتراف بمسئوليته السياسية تجاه ماحدث بحجة أن الأمر رهن لتحقيقات النيابة والنائب العام وهذه النظرة تحصر ماحدث فى مسئولية واحدة فقط هى المسئولية الجنائية والمسئولية السياسية أشد وطأة وأكثر تأثيرا لأن المسئول يمكنه تلافى مثل هذه الكوارث لو اهتم بوضع خطط حقيقية تنبع من سياسات محددة فى أطار إستراتيجية واضحة المعالم وهذا الأمر لا يتحقق بالفعل"(العربى،ع٩٧٩-٢ اكتوبر٢٠٠٥)

الاكثر من هذا ان دور المثقف العضوى لم يتوقف عند الكتابة او الغضب في تجمعات وانما تبلور فى تظاهرات غاضبة نقلتها لنا الصحف الخارجية والقنوات الفضائية.

وهى فى اغلبها لم تخرج عن هذا المثقف العضوى المنتسب

سياسيا واقتصاديا للنظام الغاضب فكريا وعمليا منه (مظاهرة لاكثر من خمسمئة مثقف مصرى تطالب بمحاكمة المسئولين عن المحرقة - العربى ٢٠٠٥/٩).

ولم يتوقف المثقف المتمرد على هذا فحينما راح الوزير يقوم بمناورة الاستقالة وراح على اثر ذلك عدد كبير من مثقفيه يناشدون الرئيس لعدم قبول هذه الاستقالة كما سنرى عاد المثقف العضوى المتمرد الواعى ليرفض هذا ويدينه فدعا عشرات المثقفين المصريين على رأسهم المخرج يوسف شاهين والروائي صنع الله ابراهيم والشاعر أحمد فؤاد نجم في بيان اصدروه بشكل متسارع الى تحميل وزراء الثقافة والداخلية والصحة المسؤولية كاملة عن حريق بني سويف منددين بموقف بعض المثقفين الذين طالبوا الرئيس المصري برفض استقالة وزير الثقافة.

وأعرب البيان الصادر عن حركة "أدباء وفنانون وكتاب من اجل التغيير" عن دهشته لقيام "تيار محسوب على الثقافة المصرية بمناشدة مؤسسة الرئاسة عدم قبول الاستقالة المسرحية لفاروق حسني" بسبب مسؤوليته عن الحريق الذي وقع في مسرح قصر ثقافة بني سويف وذهب ضحيته حتى الآن ٤٦ مثقفا وفنانا وناقدا

وصحافيا فيْ السادس من أيلول/ سبتمبر الحالي على حد تعبير البيان .

بيد ان هذا المثقف العضوى المرتبط بالنظام فى مصالحه المعبر عنه فى طموحه عرف صورة مغايرة للصورة السابقة فاذا كنا قد راينا موقف المثقف الواعى الغاضب المؤيد لاستقالة الوزير الداعى الى اجراء المحاكمات المتوالية من اجل هذه المحرقة (كنموذج) فان صورة اخرى سرعان ما حاولت ان تتقدم الاطار العام اذ ظهر صورة المثقف المهادن للوزير

اذن فان صحف هذه الفترة وفضائياتها وتجمعات التنظيمات فيها دللت على ان المثقف المعارض لحق به المثقف الآخر المتآذر مع الوزير الرافض لاستقالته المؤيد.

(٢)

المثقف المؤيد

فى هذا الجانب الاخر نشطت جماعات المثقفين المؤيدين للوزير فى بياناتهم او فى بعض الصحف التى تعبر عن وزارة الثقافة مثل صحيفة الأهرام البيان الذى صدر من اكثر من ٢٠٠ من كتاب المثقفين والكتاب"= الكتبة، البيان منشور بالاهرام ١٧ سبتمبر، والقاهرة ٢٠ سبتمبر ٢٠٠٥) و (القاهرة) او الصفحات

المؤيدة له المستفيدة به فى الصحف القومية لتناشد الرئيس عدم قبول استقالة الوزير وقد جاء فى البيان تبريرات هزيلة مثل ان يقول :

(.. ويرون ان المسئولية العامة عما حدث ليست مسئولية فرد بقدر ما هي مسئولية مجتمع يتطلب حشد كل القوي والامكانيات للحفاظ علي حياة وحرية وكرامة كل مواطن. واذ يقدر الموقعون علي هذا البيان مبادرة وزير الثقافة الفنان فاروق حسني بتقديم استقالته وتحمله المسئولية السياسية عما حدث لا يوافقون ان يتحمل الوزير وحده تبعات ما جري ,ويطالبونه بسحب هذه الاستقالة ليواصل مسئوليته الوزارية في حماية وإتمام المشروعات الثقافية الكبيرة التي قام بها. ويناشد الكتاب والمثقفون الموقعون علي هذا سيادة الرئيس محمد حسني مبارك بعدم قبول استقالة الوزير ليستمر في تنفيذ مشروعاته الثقافية الحضارية.)

او ماجاء فى موضع آخر :

(.. فإننا تحفظا منا علي أساليب جلد وتعذيب الذات بحق أو بغير حق ,نري أن استقالة السيد وزير الثقافة ليس مما يعالج المشكلة. بل بالأحري يفاقمها ,وآية ذلك أن سفينة ضربها إعصار من قدر أو إهمال مهمل ,ليس مما ينبغي لطاقم السفينة أو

المشـاهدين علي البـر أن يطالبـوا بتنحـيـة الربان ،بل وليس مما ينبـغي لهـذا الربان أن تؤدي به الضـغـوط لإتخـاذ قـرار سلبي. لاسيما وأن الخطأ لم يكن خطأه)

وقد كان عددهم هائلا واسماؤهم تدل على انهم من هذه الفئة التى تنتمى فى الغالب الى المثقف العضوى لكنها فى الواقع راحت تبحث عن مصالحها وتؤكد انتهازيتها فراحت تهادن فى هذا الموقف وتغلو فيـه بشكل يسىء الى صورة المثـقف بشكل خاص.

راحت تؤيد بغض النظرعن اية تحفظات يقتضيها الموقف..

كما كان تأييدها ينطلق من التاكيد للوزير انهم تحت امرته وهم (..تحت الطلب)فى كل مايريد مهما يكن .

وعلى هذا النحـو كـان من الطبـيـعى ان يتـجـه الوزير الى انصاره من هذه الجماعة المستفيده بوزارته الأكثر من هذا ان رصد هذه الفترة ترينا انه اقيمت غرفة عمليات في بيت الوزير تحت ادارة الشاعر عبد الرحمن الابنودى لتجهيز فريق المدافعين عن فاروق حسنى ليبدو الامر كما لوكان هناك انقسام بين المثقفين حول استقالة الوزير"(جريدة الفجر ١٧-١٩ سبتمبر٢٠٠٥).

ويبدو انه لم تكن هناك مفاجأة فى القائمة التى هتفت لفاروق

حسني.

ولا اسم مفاجأة فكلهم"اما رجال الوزير او مثقفين "تحت الطلب" ..او نوع ثالث كمايلاحظ ينظر للثقافة نظرة فاخرة تبهرها اضواء المهرجانات..

انه ببساطة- المثقف المهادن صاحب المصلحة والانتهازية في علاقته بالوزير .

لم يتوقف الامر عند مثقفين معروفين بولائهم المطلق للسلطة من امثال: فوزى فهمي ورفعت السعيد وصلاح عيسى وانيس منصور وجابر عصفور وصلاح منتصر وسمير سرحان وزاهي حواس ومفيد فوزى.وغيرهم وانما امتد الامر من المثقفين والاثريين الى التشكيليين اذ يصدر فى نفس الفترة بيان من نقابة الفنانيي التشكيليين يؤيد الوزير- شكليا في تقديم الاستقالة لكنه فى السطر التالى يرفض الاستقالة "لانوافق ان يتحمل الوزير المسئولية وحده, ٠ و).و ونناشد سيادة الرئيس ان يستكمل الوزير الفنان فاروق حسنى عطاءه الواضح للحركة الثقافية والحضارية المصرية .. "(القاهرة ، السابق)

وعلى هذا النحو يضاف الى اسم كانيس منصور الذى يمثل المثقفين اسم مصطفى حسين ليمثل نقيب الفنانين التشكيليين

ولينين الرملى ليمثل المسرحيين..الى آخر الخانة التى وضع فيها اسماء المستفيدين من الوزير والوزارة ..

ويمضى فى هذا السياق ان يورط البعض نجيب محفوظ وهو الذى يغيب عن الحياة الثقافية والادبية لسنوات طويلة بسبب اصابته الجسيمة بمدية فى بداية الثمانينات فضلاعن ضعف عام في عينه واذنه ووعيه بكل مايحدث حوله وقد جاوز التسعين بسنوات وهو موقف من بعض المثقفين يصفه سعد هجرس بانه موقف وصل فيه بعض هؤلاء الى هذا الدهاء الجهنمي وإلى حد المتاجرة باسم نجيب محفوظ ونشر عناوين بالبنط العريض عن انضمام الأديب الكبير إلى طابورالمبايعين .

وطبع هذا البيان ووزع لتأكيد ما قاله نجيب محفوظ لتأييد موقف الوزير.

ورغم ما فى مقدمة بيان نجيب محفوظ من حيدة تذكر لعميد الرواية العربية ؛ ففى نهاية هذا البيان تاييدا صريحا للوزير ولبقائه فهو يقول منذ البداية هذه العبارة التى تلقى فى تيار التاييد والمداهنة وهى تمضى في طريق لم يكن ليدركه نجيب محفوظ فى محنته نقرأ مقدمة هذا البيان :

لقد أعادني فاروق حسني إلي عصر الديمقراطية في شبابنا

وتذكرت محمود شاكر باشا الذي كان مدير عام السكك الحديدية فقد حدث أن وقع حادث لقطار بسبب إهمال أحد الخفراء الذي نعس في إحدي الليالي أثناء نوبة عمله فلم يتنبه لضرورة إغلاق المزلقان عند مرور القطار ولقد أحس شاكر باشا علي الفور بمسئوليته الأدبية والسياسية عن الحادث فلم ينتظر أن يستقيل الوزير الذي كان يتبعه بل بادر هو بالاستقالة وحين سئل في ذلك قال: إذا قصر موظف بالسكة الحديد في عمله حتي ولو كان خفيرا فأنا المسئول وعلي كل مسئول أن يتحمل مسئوليته

إنني أحيي الفنان فاروق حسني من أعماق قلبي تحية إكبار واحترام علي تلك الخطوة النبيلة والشجاعة برغم أن مسئوليته فيها سياسية وليست جنائية .

واذا كنا نلاحظ هنا ان بعض خصوم فاروق حسنى يصبحوا من المؤيدين الآن فان هذا يفسر انتهازيتهم الذين ارادوا بها التأييد وقت الازمة ثم اهتبال الفرصة بعد انتهائها لصالح الوزير!!.

وهو ما يفسر به كيف جاء هذاالبيان وكتب ثم وزع على الوكالات والصحف وهو يفسر تكوين الوزير نفسه فى علاقاته بالمثقفين من امثال اولئك..

كانت علاقة الوزير بالمثقفين هى علاقة توصف من البعض بان صاحبها (صاحب نظرية فريدة يقول صاحب كتاب " مثقفون تحت الطلب" هنا " واذا كانت السياسة بلا اخلاق طبعا فقد رايت فاروق حسنى صاحب نظرية فريدة تنص على عدم الفصل بين "الاخلاق والسياسة" فى احيان كثيرة فهو يستعين بمن اختلف معهم سياسيا واداريا فى مواقع قيادية فى وزارته ؛ "الانصارى" لم يغادر رئاسة دار الاوبرا الا بسبب "الخلاف/ السياسة" لكن ان يعيده "الوزير- السياسى" الى رئاسة هيئة الكتاب فهو يكسب "بالاخلاق الكثير من السياسة ومصالحها والحال نفسها مثلا حدثت مع الكثيرين "(مثقفون تحت الطلب، محمد عبد الواحد،)

وهو ما كان يفسر موقف الكثير من المثقفين ..انهم يختلفون معه بشراسة وهو الوزير- السياسى ؛وهو يحاول ان يستقطبهم بمهارة وهو الوزير المانح ، أن الاخلاق كانت تصل به الى تاكيد مايريده على المستوي السسياسى وليس الهدف اخلاقى بالطبع وانما يظل(وسيلة) للوصول الى المثقفين المؤثرين فى عصره ..

وكما نرى فان المؤيدين للوزير يحاولون الافادة من كل شىء حتى لو كان من اديب لم يعد ليعى كثيرا ما يحدث حوله لكنه

يقـول مايـريده الوزير عـبر بعض اولئك الذين يبـدون تأييـدهم الان وهـو ما يشير الى ان حجم التأييد وصل الى حـالة متقدمـة وحماس منقطع النظير لتأكيد موقفهم المؤيد للوزير وبأية وسيلة .

وهو مايفسر دوافع كل هؤلاء المثقفين المؤيدين له فى محنته

واذا لم يكن للوزير(شلة) مـحددة بالمفهوم العام فانه كان من الادراك بحيث يمكنه الافادة من كل مـا من حوله فـى براجمـاتيـة تحـفظ له نجـاح مناوراته التى اسـتطا ع الاحـتفـاظ بـهـا فى الوزارة لقرابة عشرين عاما..

وقد كنت على المستوى الشـخصى طيلة متابعة هذه التوقيعات على مثل هذه البيانات التى تناشد الرئيس عدم قبول الاسـتقالة والتـبرير لوزير الثقافـة .. اقـول كنت على المسـتوى الشـخصى اتساءل :

- هل كان يستطيع مسئول يتربع على رأس مؤسسة ضـخمة او كاتب مستفيدا من الوزارة او فنـان يسـتفيد من رضـا الوزير ..الخ ان يرفض التوقيع

- وهل كـان يجرؤانتـهـازيا من شلة(مـثـقـفون تحت الطلب)ان يعارض فى اى اجراء قد يتخذه الوير

الاجـابة مـع كـثـيـر من التـأمل بالطبـع كـان يمكن الا يوقع

موائما بين مسئوليته وبين ضميره

واعود لأسأل :

وهل كان يستطيع ان يفعل ذلك فى دولة مركزية يحتل فيها الوزير رأس الفرعون

وكيف كان يستطيع المثقف البرهنة على شجاعته بعدم التهادن فى زمن كزمننا

اترك الاجابة للقارىء او المستمع .. لكننى لا اترك القلم لاشير الى هذه (الطغمة) المستفيدة من النظام ومن ثم تمضى مع المسئول ايا كانت مكانته فى طريق التاييد والمهادنة والصمت بل والعمل عبر(بيان) كما رأينا بمايشير الى خيانة المثقف العضوى احيانا لدوره اذا اشتبكت مصلحته مع مبادئه فى دولة مركزية لم تعرف تقاليد الديموقراطية بعد ..

وقد يكون جزء من الاجابة هنا وفى نفس السياق اننى لاحظت ان البعض الذى كان منذ البداية متمردا علىَ الموقف الانسانى للمحرقة وكتب البيانات ووقع عليها مالبث ان آثر ان يتخذ موقفا مترددا ليغلو فى التهادن مرددا بوعى كامل انه لايعرف من ذهب به الى هذا البيان او ذاك .

وهو مايختار معه صورة المثقف المتردد المهادن .. نمط آخر فى المحرقة

(٣)
المثقف المتردد

من الملاحظ هنا ان نوعا من المثقفين بين المتمرد والمؤيد بدا واضحا بل اكثر وضوحا فى هذه الازمة وبعد ان كنا نلاحظ الموقف النقدى بين طرفيه اصبحنا ونحن امام مثقف من نمط ثالث يمكن ان نطلق عليه اسم (المثقف المتردد) او المهادن الذى لم يستطع ان يأخذ موقفا معارضا او نقديا واضحا منذ البداية او الذى سقط فى احبولة السلطة ايضا بدون مواربة .

وهذا المثقف نلتقى معه كثيرا الآن فى الادبيات السياسية التى عرفناها فى التاريخ الانسانى القريب لعل اقرب مثال له مثقف ايمانويل لوسيو الذى عرف فى الستينات فى الغرب حيث برز هذا النوع من المثقفين الذى اطلق عليه ميشيل فوكو ؛ هناك نمط المثقف النوعي الذي وضع نفسه في خدمة معارك خاصة استخدم فيها كفاءاته التكنولوجية وحوافزه الايديولوجية وهكذا انفتح باب الاختصاص عريضا مع النجاحات الكبيرة التي حققتها العلوم الانسانية بمختلف فروعها

اي المثقف المختص بدلا من المثقف العام بالموازاة مع الطبيب المختص والطبيب العام .(Pouvoir Intellectuel)..او

المثقف المهادن الذى لايعمل لقضية ولا ينتمى للفعل الايجابى الذى يدفعه اليه دوره ، ويلاحظ البعض هنا تبدل العصر فى الغرب كما نلاحظ نحن تبدله هنا الى حد كبير مع وضع فى الاعتبار مدى التقدم الذى وصل اليه الغريب فى تحديد موقف المثقف فهو يرى عديدا من التغييرات التى حدثت فى الفترة المعاصرة "وقعت بالعديد من المثقفين الى الانتماء ولعصرهم والدخول في استثمارات حيث يمكن للمكاسب ان تكون مؤكدة وكبيرة اي في دوائر السلطة وشبكاتها. ومن هنا يأتي عنوان هذا الكتاب. إن المؤلف يؤكد بهذا الصدد بأن العادات والأخلاقيات الأدبية والصحفية والثقافية عامة في فرنسا قد عرفت في الآونة الأخيرة بتبدلات كبيرة وان السائد اليوم في هذه الاوساط هو الدخول في تحالفات ودوائر نفوذ وتسوية حسابات واقتسام المكاسب والمكافآت.. وبالاضافة الى هذا كله اصبحت الثقافة السائدة هي اعلامية بالدرجة الأولى حيث ان الأكثر أهمية والأكثر نفوذا هم اولئك الذين يظهرون أكثر ويمضون اوقاتا أطول امام الكاميرات التليفزيونية.. هذا مع العلم بأنهم ليسوا الأكثر أهمية او الأكثر تعبيرا عن الثقافة الاصلية في مشارب اهتمامهم.. هذا وكان الكاتب الفرنسي هنري دومنترلان قد اشار الى مثل هذا الواقع

بالقول منذ عقد الستينيات الماضي بأن الذين يحتلون الصفحات الأولى ليسوا هم بالضرورة الأكثر أهمية"

ورغم اننا عرضنا لهذا المثقف من قبل فاننا كنا نصفه بدقة اكثر على انه المثقف الخبير(دراستنا :المثقفون وعبد الناصر) وهو المثقف الذى ليس له اية علاقة بمايحدث حوله اللهم اذا تعلق الامر لمصلحته الذاتية ..فاذا به في الغالب لايحرك ساكنا لمايحدث حوله واذا رصدنا رد الفعل له فسوف نجده مترددا فى اتخاذ القرار الذى يتعلق بالمجتمع السياسى الذى يعيش فيه ومن ثم فان هذا المثقف اصبح اكثر وضوحا فى عصر العولمة حيث افرزت لنا التقنيات الحديثة وصدرت لنا الجهود الامبريالية هذا النمط الذى لم يعد ليعنيه غير ما يريده بشكل شخصى وحسب ..

اننا امام هذا المثقف المهادن او المتردد امام نماذج اخرى غائبة عن الوعى بارادتها او مغيبة بارادة الاخرين وفى النهاية فان فعلها يظل مهددا بالندب ابان الموقف الذى يقدم الينا باسمها الآن .ولنضرب عدة امثلة على هذا..

اننا امام نماذج تتعدد فى مواقفها وعلى سبيل المثال اننا اذا دققنا فى البيانين ؛ البيان المتمرد والبيان المؤيد لراعنا ان هناك اسماء تتكرر هنا وهناك .. وعلى سبيل المثال لقد نفت بعض

الاسماء الموقعة علي بيان تأييد وزير الثقافة علمها بالبيان او الاطلاع عليه او التوقيع وقد تحدثت القدس العربي الي الكاتبة فتحية العسال احدي الموقعات علي البيان فنفت علمها بالبيان الا من الصحف وعبرت عن اعتراضها الكامل علي فكرة مناشدة الرئيس الابقاء علي فاروق حسني وراحت فى عديد من الصحف الاخرى مثل(العربى) تنفى ذلك :

" انا لم اوقع اى بيان اصلا ولا ادرى من وقع بالنيابة عنى ..(و) .. "

ويبدو انها ترفض استقالة وزير الثقافة قائلة:اننا يجب ان ننتظر التحقيقات وما ستسفرعنه وإنها ستتابع بنفسها التحقيقات التى سيجريها النائب العام وساعتها يحلها الحلال .

أما الأديبة سلوى بكر التى وقعت على رفض الاستقالة كانت وقعت قبله بيانا يطلب الاستقالة مبررة وهى تشير إلى أنها فى بيان تأييد الوزير قد غرر بها وذلك عندما اتصل بها أحد الأشخاص هكذا قالت بالحرف– الذى يقال إنه من مكتب جابر عصفور أو أحمد نوار راجيا منها أن توقع على بيان رفض الاستقالة لأن هناك تخوفا من الإتيان بمصطفى علوى وزيرا للثقافة فى حال قبول استقالة فاروق حسنى وإنه فى سبيل ذلك

يقوم بجمع أكبر عدد من التوقيعات..

وهناك وقعت المسكينة مدفوعة بحسها الوطني الذى يدفعها للتمسك بفاروق حسنى الذى ترفضه حتى لا يأتى وزير للثقافة من لجنة السياسات

أما د. أسامة الغزالى حرب رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية وعضو لجنة السياسات فيزيدنا حيرة انه يقول بوضوح :

- إن توقيعى جاء عن طريق عملية استدراج إنسانية نصبت لى من أحد أصدقائي فاضطررت للتوقيع لكن عندما فطنت لما حدث رحت أبحث عنه لسحب توقيعى فلم أجده

مسكين غزالى هو الآخر غرر به.. !!

أما الأغرب من كل هؤلاء هو د.مختار الكسبانى أستاذ العمارة الإسلامية بكلية آثار القاهرة الذى كان حتى عام ٢٠٠١ من أشد معارضى الوزير وسياساته واتهمه فى أكثر من محفل وفى عشرات الجرائد والمجلات ومنها جريدة العربى بإنه دمر ثروة مصر الأثرية بل ورفع ضده مع آخرين أكثر من قضية منها قضايا لمنع سفر الآثار للخارج.. واتهمه بشكل واضح وصريح أنه تسبب فى حرق قصر المسافرخانة وغير ذلك الكثير.

الآن وبقدرة قادر تحول إلى مدافع عن الوزير وسياسته

وانجازاته فى مجال الآثار وذلك بعد اشتراكه فى مشروع تطوير القاهرة التاريخية عندما سألته عن تأييده للوزير مؤخرا قال: لأنه قام بانجازات عديدة فى معبدى أبوسمبل والكرنك ومتاحف الأقصر وكذلك مشزوع تطوير القاهرة الفاطمية. "

وجاء فى صحيفة العربى ايضا انه لما واجهنا د. أشرف زكى رئيس البيت الفنى للمسرح باندهاشنا من توقيعه للإبقاء على الوزير رغم أنه كان من أوائل المسئولين الذين ذهبوا لبنى سويف بعد الحادث ورأى كم الاهمال الذى تعرض له الضحايا مما عرضه للضرب من رجال الأمن المركزى قال: أنا أشعر بالحرج الشديد من التحدث فى هذا الموضوع لأسباب خاصة ولا أريد الإعلان عنها (العربى، *السابق*)..

الاكثر من هذا ان مثقفا واعيا مثل اسامه الغزالى حرب يردد مثل هذا بشكل مفزع اذ نقرأ له وهو رئيس تحرير مجلة السياسة الدولية وعضو لجنة السياسات هذه العبارة "ان توقيعى جاء عن طريق عملية *استدراج* إنسانية نصبت لى من أحد أصدقائي فاضطررت للتوقيع لكن عندما فطنت لما حدث رحت أبحث عنه لسحب توقيعى فلم أجده "

هل الامر جد أم هزل؟

ام هو نوع من الخداع الذى يقع فيه مثقفونا؟

ام هو التردد فى الاقبال على هذا البيان او ذاك؟

الاكثر من هذا غرابةان جماعة خمسة سبتمبرتؤكدتحت عنوان (تكذيب) على أن أبو "الحسن سلام" الموقع ضد الوزير علي موقعنا وبياننا كذلك ليس هو د. أبوالحسن سلام !!

وهو ما يثير العجب الى حد بعيد (

وهو ما يصل بنا فى نهاية الامر الى يقين واحد هو ان مثقفينا - وحتى الواعين منهم وحتى لوكان غرر بهم كما يقولون فانهم يقعون جميعا فى المحرقة ؛محرقة بنى سويف وغيرها !!



بيد اننا قبل ان نصل الى نهاية الامر نتمهل اكثر ماهى النهاية حقا هل اسدل الستار على المحرقة واحداثها المفجعة ون ان تمتد يد العدالة الى مرتكبيها .. ما هو مصير التحقيقات التى راحت تجريها النيابة الادارية فى الحريق خاصة انها عرضت على رئيس مجلس الوزراء(٢١) وتبعتها محاولات كثيرة من يوم الحريق فى ٥ سبتمبر٢٠٠٥ والى بدايات العام ٢٠٠٦(مرور اربعة اشهر) دون ان نجد نتيجة ايجابية للتحقيقات التى تجريها النيابة الادارية مما دفع البعض(جماعة ٥ سبتمبر) للدهشة والحث على

توجيه الاتهام علنا للتحقيق العادل والجاد مع كل من :

أولا: التحقيق العادل والجاد مع كل من

*وزير الثقافة بصفته

*رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة بصفته

*مدير الفرع الثقافى ببنى سويف بصفته

*مدير قصر ثقافة بنى سويف بصفته

*رئيس الإدارة المركزية للشئون الفنية بهيئة قصور الثقافة

*وزير الداخلية بصفته

*مدير أمن بنى سويف بصفته

*مسؤل الدفاع المدنى ببنى سويف بصفته

*وزير الصحة بصفته

*مدير مستشفى بنى سويف العام بصفته

*محافظ بنى سويف بصفته

ويجدر بهؤلاء المسئولين فى حالة ثبات تورطهم المرجح تقديم استقالتهم وتحميلهم تهمة الإهمال الجنائى الجسيم غير المتعمد والذى أودى بحياة زملائنا.

ثانيا: على سبيل التعويض الرمزى لكافة الأخطاء والجرائم السابقة فى حق قتلانا نرى من الضرورى منح الراحلين تكريما

ماديا ومعنويا بمنحهم صفة شهيد وكل ما يترتب عليها من حقوق والتزامات ومزايا تجاههم وما يوازيه من حقوق بالنسبة للمصابين

وهو ما دفع البعض الايرى فى بطء التحقيقات والصمت المريب غير موقف متعمد لهذه الفترة الطويلة التى لم تعلن فيها النيابة العامة عما أسفرت عنه التحقيقات بشكل واضح بما يفتح المجال لتأويلات عديدة أخفها هو (الانطباع بمدي دقة وصعوبة هذه التحقيقات وبالتالي حجم الكارثة وغموضها) بالإضافة إلي تأويلات أخري تصل إلي اعتبار أن طول الوقت مراهنة علي أن يفقد المهتمون بالقضية من جماعات الشارع هذا الاهتمام (وهو ما لم ولن يحدث) فإذا أضفنا إلي ما سبق ما يحدث من وقائع جديدة مستفزة لمشاعر الجميع ومنها ما وقع في المستشفيات خلال فترة العلاج الهزيل والذي أفقدنا أكثر مما فقدناه في الحادث ذاته وعليه فقد قام الأهالي بتقديم طلبات للتحقيق فيما حدث في مستشفيات الدولة من إهمال جسيم أودي بحياة ذويهم إلي نيابة إستئناف بني سويف (حسب توصيات النائب العام المساعد خلال لقائنا به في ١٢ نوفمبر الماضي .

وعلى هذا النحو فان رصد بيانات المثقفين وجماعاتهم تعبر عن نفسها لهذا الصمت المريب خاصة مع اهمال المتابعة

للتحقيقات وفقد العدد الاخر من المثقفين الجرحى على اسرة المستشفيات فى صمت مما دفع العديد من المثقفين والمهتمين بما آل اليه حال المثقف والمثقفين و"الانسان" الواعى فى هذه الفترة الى ان يربطوا بين كل مايحدث وبين الفساد الذى تغلغل فى كثير من حياتنا .

والفترة الاولى من عام ٢٠٠٦ شهدت ظواهر تؤكد بطء التحقيقات حيث تشير المعلومات الى ان هيئة النيابة الادارية بادرت فور تلقيها البلاغ بالحادث الى ارسال خطاب رسمى حمل صفة"سرى" في اليوم التالى مباشرة الى مجلس الوزراء وبالتحديد امين عام المجلس وقد طلب الخطاب كما اشرنا ان يتولى المجلس تشكيل لجنة فنية محايدة على مستوى عال تضم عناصر متخصصة فى كافة الامور المحيطة بالحادث ويمضى الخطاب فى التفصيل حين طلبت النيابة العامة لاكثر من مرة التحقيق ومع ذلك لم تتلق اى رد من مجلس الوزراء لكن ماحدث كان امرا اخر تماهت معه الحرائق بالصمت بالتغييب الى الوصول الى واقع مر يؤكد انه لم يتم تشكيل اى لجان من لجان مجلس الوزراء ويقى على المحققين فى النيابة ان يعملوا على تشكيل عدة لجان منفصلة لبحث كل واقعة من وقائع الحادث فى صورة قضية فى حد ذاتها .

بما يطيل امدالتحقيق الى اجل غير معلوم وهكذا كان يمكن تفادى ذلك وكانت محصلة الامر انه لم تجد النيابة بدا من ان تسلك الطريق الوعرة حيث امرت بتشكيل لجان فنية ومازالت اللجان تفحص ومازالت التحقيقات " وستظل" تسير ببطء شديد فالمسئولين بمجلس الوزراء"قرروا فقط المتابعة عن بعد دون المساهمة فى اطفاء نيران المحرقة "

وعلى هذا النحو ، غاب المثقفون فى المحرقة وغابت التحقيقات التى وصلت الى مجلس الوزراء فى اللجان ولم تعد فى حاجة الى تجسيد اللغز امامنا فقد تم كل شيء لافلات المتسبب اداريا وفنيا فى وقوع هذه المحرقة ..

وبعد لايبقى غير عدة ملاحظات يبقى ان نتنبه اليها بالاضافة الى ماسبق ونلخصها على

النحو التالى ..

- المثقف هنا هو المثقف العضوى وهو مثال المثقف الذى يجب ان يكون واعيا لطبيعة انتمائه غير ان الواقع يؤكد ان اغلب رموز هذا المثقف العضوى سقط مع سقوط الطبقة الوسطى فى زمن العولة والامبريالية .

لقد وجد المثقف العربى العضوى نفسه فى مجتمع مغاير

عما سبقه وزاد هذا التغيير مع غياب الديموقراطية وفشل برامج التنمية ولم يجد امامه غير أثنين ما السقوط فى الطريق وإما اللحاق بالفئات الجديدة الصاعدة من رجال السياسة او رجال الاعمال او"النوفو ريش" بعد الانخراط في دوامات الفساد ..

وعلى هذا النحو وجدنا صورة هذا المثقف وقد اصابها البلل والخضوع لقانون المجتمع الجديد .

وعلى هذا النحو لرأينا كيف توالت صور المثقف(التقليدى) عند جرامش لتتحول الى صور مغايرة فى زمن آخر ففى حين وجدنا صورة النمط المتمرد - وهى فئة ليست كبيرة وجدنا صورا اخرى تمثل النقيض: المثقف المؤيد والمتردد والمهادن والانتهازى الى آخر هذه الانماط التى عثرنا عليها فى عصر العولمة السعيد ومواد القوانين التى يعاد صوغها من الدستور..

- يلاحظ هنا ان المثقف المتمرد وان بدت نسبته العددية اقل من غيره فانه احدث تاثيرا لايمكن انكاره خاصة انه لم يراهن على اولئك المثقفين المستفيدين من النظام او من (الشلة) الوزارية او جماعة المصالح السياسية وانما استطاع ان يتعاون مع حركات المعارضة الجديدة فى الشارع المصرى عقب تعديل ٧٦ .

وعلى هذا يمكن القول ان الصورة الغاضبة للمثقف كانت اكثر وعيا بتعاونها مع منظمات المجتمع المدني والافادة من امكاناتها في الشارع او على الشبكة الاليكترونية

- رغم ان المثقف الاخر (التقليدى) هو الذى يصور نفسه على انه منفصل عن النظام ومستقل عن الفئات الحاكمة اى عدم الارتباط باى نظام والتعبير عنه و الافادة منه فان هذا الاستقلال شهد امثلة عبرت عن نفسها تعبيرا فريدا قبل ٥ سبتمبر تاريخ المحرقة وبعدها وراحت تسهم حركات المعارضة الجديدة التى دخلت ميدان السياسة(عبر تحولات مهمة شهرتها تحولات كثيرة من ابرزها التعديل الخاص٦٧ الذى فتح الباب لانتخابات رئاسية وما اثار حوله من لغط وغضب..

ويمكن ان نجد ابرز مثالا لهذه الصورة من المثقف التقليدى صنع الله ابراهيم

الواقع ان المثقف(التقليدى) فى كثير من الاحيان لم يكن ليمثل فئة كبيرة فاعلة لكنه ظل يمثل خيوطا بسيطة فى النسيج العام لكنهاتظل خيوطا متمايزة ؛ فصنع الله ابراهيم الذى بدا اكثر غضبا وعنفا فى بلاغه مع غيزه للنائب العام رغم انه ينتمى الى شريحة "المثقف التقليدى" راح يصرح هنا وهناك

بهـذا الغـضب وبالاشـتـراك فى البـيـانات التى قـدمت ضـد الوزير.وبالبغضب الذى عبر عنه بشكل وا ع

- رغم ان جماعة المعارضة صورة المثقف "العضوى المتمرد بدت اكثر غضبا لما حدث فى (بنى سويف) فان هذه المحرقة الاخيرة مثلت فى التحليل الاخير رمزا لمحارق كثيرة تعرفها بلادنا منذ نصف قرن او يزيد حيث صور الاهمال او الفساد الذى اصبح سمة سائدة نعرفها فى سقوط كتف ابى الهول او حرائق الاوبرا او حتى خارج وزارة الثقافة حيث تشتعل النيران فى قطار الجنوب ليحترق قبل سنوات اكثر من ٤٠٠ مواطن او تساقط العمارات بشكل لافت للنظر بالاسكندرية بسبب الاهمال فى منح تصريح او الغش خاصة فى المبانى التعليمية .. وما الى ذلك .. وهو ما كان يحرك المثقف الغاضب

لم تكن المحرقة فى بنى سويف غير رمز للفساد الثقافى فى كل مكان وهو اليوم فى احدى الوزارات المهمة(وزارة الثقافة) الذى يتربع عليها وزير لمدة تصل الى عشرين عام لم تتوقف فيها المحارق او تتراجع ..

- واخيرا قد يكون من المهم ان نشير ان هذا المثقف الغاضب هو هو الذى راحفى حينة للمحرقة فى بنى سويف

فمن غاب هناك هو ذلك المثقف الواعى فى حقل الدراما والذى يحمل قدرا هائلا من الحلم بالتغيير ومن هنا فقد بدا للجميع خاصة المثقف المتمرد ان صاحبه المثقف المتمرد وهنا يتماهى صور المثقف المتمرد الحى والمثقف المتمرد خلف الحريق- فاذا الغضب يعبر عن حقيقة ماثلة في الاذهان ان السنة الحريق امتدت بغير حوادة الى هذا المثقف فى المحرقة ..

وفى جميع الحالات فان محرقة المثقف المصرى على جميع صوره الواعية تمثلت في احدى الدراما و الميلودراما بالجنوب ..

المثقف "العضو" او " التقليدى" الواعى هو هو المثقف الذى تفحم تماما فى هذا البناء الذى سمى مسرح ودارت فيه احداث اودت بالبعض الى المحرقة ومازال البعض الاخر خلف المحرقة يهاجم وزير الثقافة ويطالب بمحاكمته ويناشد الرئيس الا يقبل استقالته التى بدت فى طور "المناورة" الخبيثة .. وينتظر التشكيل الوزاريالجديد- وهو على الابواب - كيلا يظل وزير المحرقة فى مكانه..

بقى ان ننتبه ونقول اما بعد ان الحقيقة التى يمكن انشير اليها الان ونحن نشير الى الصواب هى :ان مثقفى مصر جميعا كانوا هناك فى المحرقة .وكانوا هنا/هناك فى المحرقة ايضا ..



المشهد قبل الأخير

في الوقت الذى كان يعقد فيه مؤتمر الادباء والكتاب العرب فى جامعة الدول العربية فى نهايات عام ٢٠٠٧، كان مشعلوا الحرائق يتمددون في كل اتجاه الي درجة ان وزير الثقافة نفسه – الذي بدأ الثقاب الاول – لم يستطع ان يكون حاضرا في المبني الكبير ..

وفي الوقت الذي كانت تعلو فيه الاصوات داخل القاعة الضخمة في بيت العرب ، كانت مظاهرات الغضب تمتدفي المجالس النيابية وبين الاحزاب والهيئات وافئات عديدة من الشعب حول القضية الوهمية –قضية الحجاب –والتصريحات التي تضخمت..

الاكثر من هذا ، انه عقب تصريحات الوزير المعروفة عن الحجاب زاد التصريحات بالشكل الذي يمكن ان نميز فيها فئات معروفة بعدائها للتصريحات التي ادلي بها وفئات معروفة بولائها للوزير ، غير اننا بين الغضب الجارف والدفاع المحسوب كان من الممكن ان نميز فيها فئتين من المثقفين :المؤيد والغاضب ...

المثقف المؤيد لتصريحات الوزير أيا كانت ؛ والمثقف الغاضب لهذه التصريحات .

والواقع ان المؤيدين للوزير، الذين زاد عـددهـم عن ٣٠٠(اي والله اكثر من ثلثمائة) يقفون مع الوزير ويؤيدون رأيه أيا كان- اليس هو مـواطن حـر - وخاصة انه لم يمس العقيدة - اليس المواطن يحمل رأيا حرا -وهو مالفت النظر هنا ..

فمن بين الفئات او الاشخاص التي تعرضت للوزير او وقفت معه كان من السهل ان نتعرف منها علي فئة اطلقت علي بيلنها (بيان المثقفين) راحوا يدافعون فيه دفاعا مجيدا عن الوزير المثقف (اضيف الي بيانهم بيان آخر لعد دكبير من اساتذة كلية الفنون)،

ويبدو ان المثقفين والكتاب تتناسخ بين كل ازمة واخرى

ويبـدو ان الميـراث لا يتـوقف عند المال وحـسـب ، وانما عند المصالح والمواقف الشخصية ..

وهنا نتمهل عند نمط المثقف المؤيد لمصالحه..

لقد اصدر اولئك من المثقفين رأيا هكذا قرأنا في بيانهم الذي ظهر في اكثر من جهة - رفضوا فيه " سياسة استغلال الدين" من قبل بعض القوي السياسية التي استغلت رأيا خاصا لوزير الثقافة فاروق حسنى عن الحجاب لاشاعة مناخ من الارهاب الفكري"!! وعلامات التعجب من عندنا .

الاكثر من هذا اننا نقرأ في البيان ان "قوى سياسية..دأبت

التحدث عن الدين بأعتبارها وصية عن الاسلام ومحتكرة استنباط الاحكام الشرعية في محاولة لتحقيق اغراضها السياسية راحت تبحث عن معارك وهمية....." واعلن في نهاية البيان ان الموقعين علي البيان عن" القلق امام تلك الهجمة التي تستهدف تحقيق اغراض سياسية مستغلة الدين ممايندر بشيوع مناخ من الارهاب الفكري ويعوق حرية الرأى وينذر بمخاطر تهدد الوطن وتحول دون ان يتبوأ العقل مكانته اللائقة"

هكذا ينتهي البيان ، ونعتذر عن التمهل عنده كثيرا، فهو يذكرنا ببيان سابق وملابسات سابقة ، وكلاهما - البيان والملابسات - تتشابه علي مانحن فيه الآن ..

وهومانقترب فيه من بيان الامس ، عند محرقة بني سويف ..

ان بيان اليوم يقترب من بيان الامس بالفعل ، فاذا كان بيان اليوم يطلق كلاما يدافع عن الوزير، فان بيان الامس- ونحن نذكر محرقة بني سويف جيدا - -راح يطلق عبر ماماًئتين من المثقفين او من كبار المثقفين والكتاب - كما اطلقوا علي انفسهم حينئذ -.. كلاما مثل هذا الكلام الذي عرفناه في البيان الذي صدر اخيرايدافع عن الوزير ، راح مثقف اليوم يبرر ما حدث ويدافع عن الوزير وينافح عن عصره وقيمه..

وعبورا فوق ردود الافعال في مضبطة مجلس الشعب واراء اعضاء احزاب الوطني والغد والوفد وبيانات الاحزاب خارج المجالس النيابية وداخلها .. فاننا امام هذا البيان الاخير الذي يذكرنا بالبيان السابق عليه حين راح مثقف(محرقة بني سويف) لايرى ان التخلي عن الوزير يمكن ان يحقق التواصل في الافادة مما يبذله الوزير لهم، ومن ثم ، راحوا يناشدون الرئيس عدم قبول استقالة وزير الثقافة- هكذا -(والبيان منشور بالاهرام ١٧ سبتمبر والقاهرة٢٠ سبتمبر٢٠٠٥)..

ان وزير اليوم - كما الامس - يغضب ،يرفض الاستقالة ،.

ويأتي المثقفون اليوم -كما الامس- ليرددوا خطاب الوزير بشكل اكثر منه .

ان بيان اليوم يبدي القلق الشديد امام تلك الهجمة ضده ، وبيان الامس يعرب عن عدم موافقتهم - المثقفين - " ان يتحمل الوزير وحده تبعات ما حدث، وكلاهما -بيان الامس وبيان اليوم - لمثقفين من نمط واع يرفض ان يبتعد عن هذا المناخ الذي يستفيد فيه من مكتسبات عديدة...

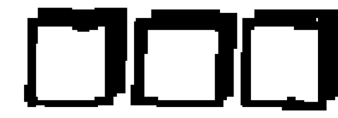
ماذا ايها الجوزاء؟

- واشهد أنني تعلمت من القاريء الكثير..

من ذلك ,اكتشفت انني لم استطع ان اتخلص من قراءاتي المتواصلة للشعر والتراث الطويل لسنوات طويلة ,وهو ما يبدو اثناء كتاباتي النقدية- النقد بمعناه العام او الادبي- ,وهو ما بدا في عدة ملاحظات سمعتها بشكل عام ,لكنها تاكدت عندي من عدد من البريد الاليكتروني الذي كان يجيئني من آن لآخر: ان نرجو ان تكون اللغة المكتوب بها اقرب الي القاريء العادي ,وان اقلل من المصطلحات او المفاهيم التي لا تهبط الي القاريء العام ,ان اقرب(الخطاب) الذي اريد ايصاله بشكل سهل.. السهل الممتنع..

ولا انكر انني حاولت كثيرا ان اخضع نفسي لشيء من هذا, كنت احذف واضيف ,واعيد الكتابة ,واعيد التفسير ، من ذلك, اسجل هذه الرسالة التي جاءتني فيما يبدو من احد الطلبة ومضمونها يؤكد الي اي مدي كان رد فعل القاريء الذي احترمه كثيرا ,ولا اريد الا الوصول اليه، قاريء الشارع ,، البسيط ,الذي التهمته الشاشة الزرقاء- التليفزيون- بمحطاته الارضية والفضائية ,واجهز عليه حملات الرياضة المتوالية والمنظمة ,وكاد يقضي عليه تماما من حملات الالهاء والاغماء التي تتسلط عليه

علي هذه الشاشة بشكل مستمر(واقول مدروس) لتغييب الذاكرة.



وانا ايضا للقاريء- هذا القاريء- بتغيير كثير من مفاهيمي الخاصة ,ولم اعمد قط لاتمسك بما اريده واحولها إلي(دوجما), فكثيرا ما كنت- عقب كل مقالة دورية) اعود الي رسائلي البريدية او الاليكترونية لاري رد فعل القاريء الذي اكتب له..

والمتابع لمقالاتي الدورية- في الاهرام اليومي في مصر او اعمدتي التي استمرت لسنوات ايضا في الاهرام الدولي او(الطبعة العربية) في شتي انحاء العالم العربي ,يلاحظ انني كنت اقوم بحوار مع(كل مايجيئني) فاحيانا كنت اشير الي الافكار المغايرة ,ودائما ما كنت اضع النص الذي استقبله كما هو في مساحة كبيرة ,لاعقب عليه تعقيبا بسيطا في نهاية السطور

ويستطيع من يعود الي بعض كتبي في السنوات الاخيرة يدرك انها-ان هذه الكتب- هي حصيلة اهتمام الكاتب- شخصي- والقاريء الكريم(علي سبيل المثال هناك كتب: حقيقة الغرب/ الذاكرة المثقوبة/ مستقبل الجامعة في مصر..) فضلا عن ان هناك العديد من الكتابات الاخري(اقول العديد والعديد جدا..) التي قمت فيها بفتح ما اتيح لي من مقال دوري لجمهور القراء..

بل انني مدين بتصحيح العديد من افكاري ,من ذلك- وهذا مثال واحد- انني كتبت مقالة بعنوان(عن الذين يقولون وداعا للعروبة) في٦يناير٢٠٠٢ ففوجئت بمن يكتب لي- اكثر من قاريء- من شتي الفئات التعليمية- ليقولوا في دهشة بالغة ,انني اتحدث عن العروبة والغرب دون ان اتلامس مع التاثير الداخلي في اجهاض هذه العروبة او النيل منها ,ولا احب ان اشير الي بعض هذه الكتابات بشكل عام ,وانما اضع هنا رسالتين اخترتهما بشكل عشوائي من بريدي الاليكتروني علي هذا النحو:

والمعرفة

ولانني من مواليد نهاية الاربعينات ,فانني لم اعرف من الاعلام في سنواتي الاولي غير الراديو ,وكان جدي- لامي- قد اشتري راديو ,وكحال ابناء الطبقة الوسطي في هذا الوقت ,فانه راح يصنع له مقطع مربع من الخشب ويقوم بلصقه جيدا علي الحائط الي اعلي بشكل لا يصل اليه الاطفال..

ومع هذا ,فانني اتذكر في بدايات الخمسينات انني كثيرا ما كنت انتظر ذهاب الشيخ الي عمله ,وانشغال الجدة باعمالها, واصعد فوق مناضد ومقاعد فوق بعضها البعض بحيث ادير الراديو واستمع اليه وانا اغلق الحجرة..

• وكثيرا ما كنت ارتكب هذا الاثم حتي تكتشف جدتي فتنهرني..

ومع ذلك ,فانني اذكر انني في كثير من الليالي لم يكن يقارب جفني النوم الا علي صوت الراديو الذي كان ينهي برامجه في ساعة متاخرة من الليل في الغالب ؛ وقد ظلت هذه العادة معي حتي اليوم ,فانا لا استطيع النوم- كم اكره النوم بغير ان يكون راديو- وقد اصبح صغير الحجم له تقنيات عالية- تحت راسي, واظل اتابع الموجات العربية احيانا والاجنبية دائما حتي ياتيني النوم ,والفارق الآن كان مختلفا عنه اذا عدت الي الوراء..

كنت في بداية الخمسينات اتهيأ للنوم مع نهاية الارسال- اي نهاية اليوم في الثانية عشر او بداية اليوم الثاني ,وغالبا ما كنت اظل ساهرا بعد ذلك الي الصباح لتكويني ,اما اليوم ,فانني كثيرا ما اظل ساهرا مع هذه الموجات التي اتتبعها هنا وهناك حتي ينبلج الصباح او ياتيني النوم وفي الغالب ,كنت احس بالم جسمي وهو يتقلب طويلا حتي الصباح ,جاءت الموجات او لم تات فاقوم مفتعلا اي شيء لا نصرف الي عملي مثقل الراس مهدود الجسد..

علي اية حال ,اتذكر الراديو في السنوات الاولي من حياتي في احد احياء القاهرة ,في الدور العلوي من احد الابنية ,حتي اذا ما جاءت الستينات حتي بدأنا في التعرف علي التليفزيون ,عرفناه

طويلا في الميادين العامة او لدي الاثرياء ,ثم تعرفنا عليه في فترة متاخرة بعد ان اصبحت اسعار الشاشة الزرقاء في متناول امثالنا في حالة(القسط) وعرفت الشاشة الزرقاء ولكنني لم اركن اليها طويلا ,فقد كنت في الجيش المصري قرب منتصف الستينات الي قرب منتصف السبعينات..

وتطورت وسائل المعرفة اكثر معي ,من الراديو والتليفزيون وتليفزيون الكابل والفضائيات خاصة مع حرب الخليج الثانية في بدايات التسعينات ,غير انني اذكر جيدا انني منذ بداية الستينات, كنت قد استطعت الاتقان الضرب علي(الآلة الكاتبة) ومن ثم, فانني ظللت منذ الستينات استخدم آليات المعرفة العصرية ,فبعد ان جاوزت فترة الراديو الي التليفزيون حتي كنت اجاوز فترة(الآلة الكاتبة) الي الكومبيوتر

واذكر انني لم استخدم قلما منذ منتصف الستينات حتي الان بدءا من الضرب علي الآلة الكاتبة وصولا علي التعرف علي الكومبيوتر ,واصبحت لقرابة نصف قرن حتي الآن لا اجيد غير الكتابة والتفكير باصابعي علي الحاسب الاليكتروني في صوره المتطورة حتي اليومن

وقد اضفت هذه الفترة- في بداية الالفية الثالثة- حاسبا

شخصيا ,لا استطيع التفكير الا من خلال اصابعي..

كما لا استطيع ان اتوقف في المعرفة عند الكتاب- وابناء جيلي جميعهم لا يعرفون حتي الآن الا القلم والورق ,وكثيرا ما يتحدثون بنشوة الي رائحة الورق والوان الاقلام ,لقد عبرت هذه الفترة بزمن بعيد ,لقد اضفت الي وسائل المعرفة التقليدية الشبكة او الانترنت..

اصبح الكتاب لا يقل اهمية عن الانترنت..

واصبحت الشبكة تملك من الامكانيات بقدر ما يملك الكتاب

وعلي هذا النحو مضي الشخصي مع العام،، او مضي الذاتي مع العالمي..

وراقبت نفسي طويلا اثناء غزو الامريكيين للعراق وانا ابحث عن الاخبار بعيدا عن الوسائل التقليدية ,فرغم انني اطالع(كل الصحف) التي تقع تحت يدي العربية منها والفرنسية ,فقد اكتشفت انني اتابع بالقدر نفسه- وربما اكثر- شبكات تليفزيونية كثيرة بعضها عربي واغلبها اجنبي..

ومع الوعي الكامل للخطاب التي تقدمه شبكة مثل(سي.ان.ان.دوت كوم) فانني لم اتردد في الاقتراب منها والتعرف علي مافيها .وهو مايقال علي قنوات غربية اصبحت اتعرف عليها بحذر شديد هذه الفترة من مارس٢٠٠٣ علي وجه الخصوص من

مثل: ايه.بي.سي.نيوز.دوت.كوم وايضا ام.اس.ان.بي سي. دوت كوم كذلكسي.بي. اس.نيوز.دوت كوم ثم مايقدمه موقع من مثل فوكس.نيوز.دوت كوم..

تطورت المعرفة لدي ونضجت بشكل شخصي اكثر من جيلي..

مازال ابناء جيلي- دون استثناء- يستخدمون أقلامهم, ويتحدثون عنها بشوق ,ويحملون الاوراق ويتحدثون عنها بشبق.. لكنني استطعت ان انزع هذا كله عني منذ فترة مبكرة ,ايمانا مني بان العيش في هذه الحقبة المتوترة الصعبة من التاريخ العالمي لابد ان تشهد تطور الانسان وتقدمه معها والا سينتهي به- كما يريد الغرب والسادة الغربيين الذين يعيشون بيننا- لنا..



ماذا ايها الجوزاء!! مالي اراك قاتما ,قاتما في حسك العام, حزينا واجما في اكثر الاحيان.. وجدتني احدث نفسي بهذه العبارة اليوم ,كانت ليلة مثل اغلب الليالي الذي ازادت قتامة مع تقدم السن ,؛ ,وها هو القلق لايريد ان يتراجع ,وها هي الاحداث لا تريد ان تتوقف ,وها هو النذير بالخطر من الهم والحزن القاتم الصامت يسيطر علي ,اليوم هو٢٢ ديسمبره ٢٠٠٥ كما تشير الصحف امامي..

حاولت ان اجلس امام الكومبيوتر مساء دون جدوي ,كانت ابنتي الزهرة البريئة تحاول ان تزرع لي اكواخ الامل ,او احلام الشباب دون جدوي ,هند.. هو اسمها الذي اصررت يوم مولدها ان اطلقه عليها ,رغم رفض الاخرين ,وهو رفض بدا باهتا امام اصراري ان اطلق علي ابنتي الصغيرة مثل هذا الاسم الذي يحمل رموزا كثيرة ودلالات جمة من التاريخ ,هكذا اطلقت الاسم ,ورغم معارضة الكثيرين حولي ذهبت في ثالث يوم مولدها لأدونه رسميا في السجلات..

حاولت أن ابتسم لئلا تحس باحساسي الحزين ,حاولت ان اكون دمثا ,حاولت ,غير ان كم الالم الحزين والتشاؤم والقلق الرهيب في اعماقي مازال يفور.. فضلا عن لذعات البرد التي استولت علي رأسي تماما ,حاولت الاغفاء قليلا بعد ان احتسيت كما كبيرا من الماء بعد ان ابتلعت عدة اقراص من المهدئات..

استيقظت بعد قليل وانا اعاني هذه(الحالة) التي لم استطع التخلص منها قط ,؛ القلق والحزن القاتمين.. حاولت ان اتغلب علي هذا الكابوس المروع في اعماقي دون جدوي ,كان الجو قارسا, حملت اثقال من البطاطين فوق ظهري وخرجت الي الشقة الاخري, التي تنام فيها كتبي واوراقي القديمة.. واشياء اخري تزحم المكان,

جلست امام الكومبيوتر ,حاولت العود الي الموضوع الذي شغلني في الفترة الاخيرة عن محرقة بني سويف ,سعيت الي اختيار عنوان ثابت لها بعد ان اضفت اليها عشرات من البيانات والتقارير لادفع بها الي ناشر واع ,اخترت العنوان الرئيسي(محرقة المثقف العربي) ,وسعيت الي التنسيق الي حد بعيد ,لم استطع ان اجد ما افعله ,فما يمكن ان افعله كثير جدا ,غير ان هذه الوحشة والضيق داخلي من كل شيء يسيطر علي..

تركت كل شيء وهبطت ,ابتلعت كميات كبيرة من الاقراص قبل الماء البارد الذي عمدت ان يكون كثيرا لتعمل الاقراص..

سعيت الي النوم ,مثل كل مرة ,منذ وعيت علي هذا الكون.. نوم مشتعل بالقلق كل برهة ,قلق مشتعل بالهم الاسود كل برهة, نوم كاليقظة المؤلمة...

وكالعادة كان علي ان استقبل(بكل هذا وغيره).. يوم جديد في الصباح..

حاولت ان ابتسم لابنتي الحالمة الصغيرة..

حاولت ان ابتسم لنفسي لكنني لم استجب كثيرا

ذهبت هند الي زوجتي حيث تقيم من فترة مع عائلتها بعد ان اصيبت بمرض لعين في القلب لم يستطع اطباء القاهرة- رغم

مضي ثلاثة اشهر- ان يحددوه او يكتشفوه ؛ وزوجتي ,احزن اكثر حينما اري حالها الذي انتهت اليه فجأة :كنا نسعداء

لا شيء يضيق علينا.. حتي جاء هذا المرض اللعين ليزيد من هذه(الحالة) السوداء التي تمثل كياني او جزءا من كياني .

ذهبت الابنة الي امها ؛ جلست وحدي اردد في صمت : ,ماذا افعل تلقيت مكالمة تليفونية تشير الي تطوير في صفحات الادب في الطبعة العربية بالاهرام ,وانا المسئول عن الادب والثقافة العربية في هذه الطبعة منذ بدأت منذ سنوات ، تركت كل شيء لاجلس الي حزني القاتم الكبير ؛ ماذا افعل؟

رددت بيني وبين نفسي ,بينما يلتف حولي هذا الاخطبوط اللعين من الحزن والقتامة..

هل اذهب الي عملي بالاهرام ،/ساقي مازالت تؤلمني .. هذه الساق اللعينة التي بدأت الامها منذ عام تكلما غضبت ؛ ,ورغم ان الالم الخفيف كنت احس به دائما ,؛ غير انني لاحظت في الفترات الاخيرة انني كلما ضيق علي الخناق اكثر احسست بالم حاد في ساقي ,ان الالم النفسي ينعكس بشدة في اطرافي..

لم استطع ان اخضع للاقامة هنا ؟ خرجت لابحث عن باعة الصحف والكتب، عما ينسني هذا كله..

حملت صحفا كثيرة وبعض الكتب وعددت ,كان اول مافعلته ان حاولت ان اكتب هذه الالام او اعبر عنها..

وكما بدأت مقبلا علي هذا ,انا الان اشهد حالة تدفعني الي الفرار منها لا اريد الكتابة.... لا..لا..

ماذا ايها الجوزاء ، ها انت تعود ثانية الي هذا العمل – سيرة فكرية – وها أنت لم تحمل الآم العينين واجها القلب والذهن قط ، اللهم حين تعود الى بروفات هذه السيرة ، سميتها فكرية ، ولكنها تتماس – بالتأكيد – مع الذاتي، لم استطع ان اخلص من هموم الذات وانا اعانى من هموم العام ، واشهد انني تعبت جدا في هذا الكتاب ، فقد كان علي ان استخدم حاستى النقدية الدقيقة ، بشكل غير عادي في المراجعة من آن لاخر ، فاواصل المغرب الي مابعد فجر اليوم التالى–١٨ فبراير٢٠٠٧ –لاعاود النظر في الشاشة البيضاء امامى– الكومبيوتر – واعيد ، وانظر من جديد وادقق في التاريخ هنا وهناك ، واسعي لاضيف رقم او معلومة اخرى .. ومتمنيا من الله – عز وجل –ان اوفق في التعبير عن السيرة التى يختلط فيه الذاتى مع الجمعى .. وهل استطيع ان اخرج من هذا ، هل استطيع الفصل بينهما > لم استطع ..

من الاشياء التي عدت اليها اكثر من مرة دور رجال

الاعمال، وقد اصبحوا - حتى - بين الوزراء عددا هائلا ، وابديت تخوفي الحاد اثناء كتابة بعض الفصول هنا ، ولم اتردد ان اكتب بوضوح تام، مؤكدا اننا يمكن ان نجد هيمنة الراعى علي(معرض الكتاب) - كما رأيناه في هذا العام -٢٠٠٧ - دون ان يصل ادائه الي الوعي والمثالية في التعامل مع الهوية(الثقافة العربية) وحماية مراكزنا وابداعاتنا ، وتمنيت ان يقوم مثل هؤلاء الرعاة بما قامت به بعض المراكز الثقافية ..

ولم لا ، تساءلت وانا اراجع ما كتبت - في اعياء شديد ، والم في الظهر ، وارهاق حاد في العينين - ..اقول ، تساءلت ، لماذا لم نر احدا من هؤلاء - رجال الاعمال الجدد -يقومون بما تقوم به مؤسسة غربية مثل (التاون هاوس) الذي يقوم جهده الكبير علي الفن التشكيلي على سبيل المثال .. ..

لماذا لايقوم السادة عندنا ، وقد اصبحوا- علي عكس رجال الاعمال الباشوات قبل الثورة - يملكون المليارديروليس المليوني ، ويتنمتعوا بحماية عربية وغربية و ليس حماية داخلية وحسب ، ..لماذا يذهبون الي الخارج اكثر ممن يعملون في الداخل .. ولماذا لايراعون الله في امة اكثر من نصفها تحت خط الفقر واغلب النصف الباقى تحت رحمة الاميات : الهجائية والثقافية والرقمية

..لماذا ؟

هل دخلنا عصر رأسمالية الثقافة ؟ هي كذلك ، لكنها رأسمالية طفيلية استبدادية شرسة في ما تقوم به ..

ولا اريد ان اطيل اكثر من هذا ، انما تمنيت لو ان بعض رجال الاعمال من الواعين للعمل في الثقافة والادب العربي ؛ لن يخسروا كثيرا .. وهم يستطعون ذلك اذا رأوا ان مصر تحتاجهم ، تحتاجهم والكثير من الجمعيات الاهلية التي يمضي العديد منها في اتجاهات لا ترتبط بالوعي القومي في هذا الزمن العربي ؛ الرديء ..

ماذاقول .. وعيني تؤلمني ، وحل الالم في الرأس ؛ وصعدت غمامات الارهاق في عقلي .. ..

ولكن ، مرحى ايها الجوزاء ، فلن اتوقف قط ، الله الله ؛ لن اعرف الصمت الابدي ... لن اصمت ابدا وانا اردد الآية الكريمة :

• "إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" – صدق الله العظيم ....

ببليوجرافيا

النقد الأدبي :

- الإتجاه القومي فى الرواية : (سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٩٤,

(حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى ١٩٩٧)

الطبعة الثانية الهيئة العامة للكتاب ،القاهرة ١٩٩٩ ،الطبعة الثالثة الهيئة العامة للكتاب،القاهرة ٢٠٠٥

- نجيب محفوظ الثورة و التصوف :هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٤ الطبعة الثانية الهيئة العامة للكتاب مكتبة الاسرة القاهرة ٢٠٠٢الطبعة الثالثة ن الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥

- الشرقاوى متمردا : دار التعاون القاهرة ١٩٨٧

- قضايا الرواية العربية فى نهاية القرن العشرين: المكتبة اللبنانية المصرية . القاهرة ١٩٩٩

- نقد الذات فى الرواية الفلسطينية : دار سيناء . القاهرة ١٩٩٨

- الغيم و المطر الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الإنتفاضة :دار جهاد ٢٠٠٢الطبعة الثانية الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣

- البنية الشعرية عند فاروق شوشة : الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢

- عنصر المكان في شعر محمد أبو سنة:هيئة قصور الثقافة القاهرة ١٩٩٦

- زكى نجيب محمود "سلسلة نقد الأدب" : الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢

الطبعة الثانية الهيئةالعامة للكتاب القاهرة ٢٠٠٥

- الخروج من التاريخ " دراسة في مدن الملح " : الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٣

- المسرح المصرى فى السبعينات"ج١": الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٧٨

- المسرح المصرى فى الثمانينات "ج٢": الطبعة الأولى دار الوفاء القاهرة ١٩٨٤: الطبعة الثانية الهيئة العامة للكاب القاهرة ١٩٩٥

- فى دائرة النقد : المجلس الأعلى للآداب ١٩٨٤

- اتجاهات النقد الروائى لمعاصر : "ج١": الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١

- الاتجاه الانسانى فى الرواية العربية كتاب الرياض،مؤسسة اليمامة ٢٠٠٦

الأعمال الفكرية:

- –طه حسين و السياسة : دار المستقبل القاهرة ١٩٧٦
- تحولات طه حسين : هيئة الكتاب "جَ٢" القاهرة ١٩٩٠
- طه حسين وثورة يوليو: "ج٣" القاهرة ١٩٨٩
- طه حسين الذى لايعرفه احد ج٤ المجلس الاعلى للثقافة القاهرةر ٢٠٠٥
- المفكر و الأمير العلاقة بين طه حسين و السلطة : الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٧
- المثقفون وعبد الناصر : دار سعاد الصباح ط١ القاهرة ١٩٩٢ ،لطبعة الثانية دار غريب القاهرة ٢٠٠٠
- مثقفون وجواسيس دراسة فى أزمة الخليج : دار الأمين القاهرة ١٩٩٧
- المثقف العربى و العولمة : مهرجان القراءة للجميع الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١
- شهرزاد فى الفكر العربى الحديث : الطبعة الأولى دار الشروق القاهرة ١٩٨٥ ، دار شرقيات ط٢ القاهرة ١٩٩٥
- الجات و التبعية الثقافية : مركز الحضارة العربية القاهرة ط١ ١٩٩٨

: مكتبة الأسرة هيئة الكتاب ط٢٠٠١٢
: مكتبة الأسرة هيئة الكتاب ط٢٠٠٢٣
– الذاكرة المثقوبة نهب وثائق العرب الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٩
– القراءة للجميع دراسة وتحليل : مهرجان القراءة للجميع الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١
– مستقبل الجامعة فى مصر : مركز الحضارة العربية القاهرة ٢٠٠٢
– المراكز البحثية العربية – " مركززايد نموذجا"(ج١) ٢٠٠٥ القاهرة
– المستشرقون الجدد ،المراكز البحثية الغربية صعود الاستشراق الجديد (ج٢)
دار الكتاب المصري اللبناني ٢٠٠٧
– وثائق ومذكرات ثورة يوليو دار اطلس ٢٠٠٥ القاهرة
الرقابة المركزية الامريكية على الانترنت في الوطن العربى، دار العين، القاهرة٢٠٠٦
تاريخ حديث ومعاصر:
– الجبرتى و الغرب دراسة حضارية مقارنة: الهيئة العامة للكتاب

- القاهرة ١٩٩٥
- الفريسة و الصياد الدور الأمريكي في في إغتيال حسن البنا
- مدبولي الصغير القاهرة ٢٠٠١
- مؤرخو الجزيرة العربية: دار الموقف العربي القاهرة ١٩٨٠.
- المؤثرات الفكرية في الثورة العرابية : الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٢
- حقيقة الغربيين الحملة الفرنسية والحملة الامريكية

مركز الحضارة العربية القاهرة ٢٠٠١: الطبعة الثانية الهيئة العامة للكتاب مكتبة الأسرة ،القاهرة ٢٠٠١

- الاوقاف على القدس واكنافها ،الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٧

ابداع مسرحي :

- الحصار : مسرح شعرى الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٤
- الخروج من المدينة : مسرح شعرى الثقافة الجماهيرية القاهرة ١٩٩٥
- اللاعب : مسرح شعرى الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٦
- عودة الفرعون ، تحت الطبع
- الطريق الى النمر، تحت الطبع

أدب الرحلة :

- جسر الجمرات . دار الكتاب المصرى اللبنانى، القاهرة ٢٠٠٢
- مشرق ومغرب، دار الكتاب المصرى اللبناني، القاهرة ٢٠٠٧
- خدعة الحوار العربى- الاوروبى، تحت الطبع

تراجم :

- أحمد بهاء الدين سيرة قومية : دار هلا القاهرة ١٩٩٦ (حصل على جائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦ بمعرض القاهرة الدولى للكتاب).
- إعترافات عبد الرحمن الشرقاوى : المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ١٩٩٦
- عمالقة و عواصف : دار الجهاد القاهرة ١٩٩٨

الترجمة :

- الودا ع : ترجمة أخر أشعار آراجون : هيئة الكتاب القاهرة ١٩٨٦

سيرة ذاتية :

- قبل الخروج : مشاهد من سيرة حياة

١- السيرة الذاتية ، كتاب الهلال ج١، عدد فبراير٢٠٠٧

٢- السيرة الفكرية. كتاب الهلال ج٢، عدد مارس ٢٠٠٧

معاجم :

- معجم مصطلحات التاريخ العربى الحديث و المعاصر الهيئة العامة للكتاب ط١/ القاهرة ٢٠٠٢

فهرس

تقديم : مشاهد أولية ٣
مشاهد غير أولية ١٣
(١) دراما المثقف المعاصر ...شهادة ٧٦
(٢) سيناريو الحزن .. وادي النيل ٩٧
(٣) لعبة الجوائز . شهادة أخرى ١٢٣
(٤) جراح آخر العام .. الجوائز ! ١٦٧
(٥) الاتجاه النقدي.. سيرة غائبة ١٨١
(٦) دراما المثقف – شهادة ليست أخيرة ١٩١
المشهد قبل الأخير ٢٤٣
ماذا أيها الجوزاء؟ ٢٤٧

مجلة الفكر والثقافة الأولى في مصر والعالم العربي

مارس ٢٠٠٧

الثمن ٤ جنيهات



عدد القضايا الساخنة

مجدى الدقاق يكتب من غانا عن مستقبل إفريقيا

[ملف العدد : الدين والسياسة]

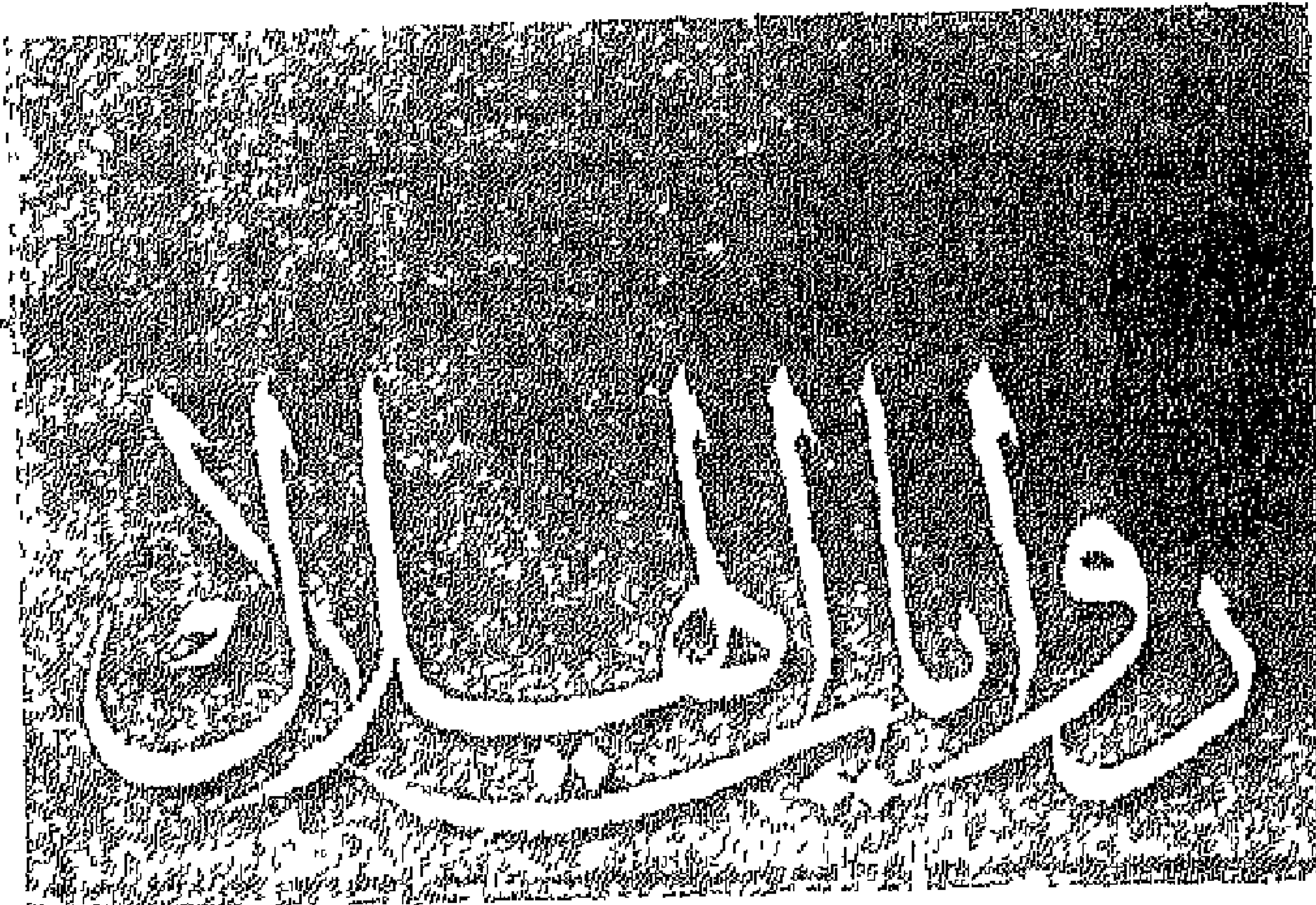
- د. مراد وهبه : إعمال العقل
- د. رفعت السعيد : مرجعية متأسلمة
- د. عاصم الدسوقي : استدعاء الدين
- د. محمود اسماعيل : تسييس الإسلام
- د. عبد المعطي بيومي : التفسير بالنص
- د. رمسيس عوض : محاكم التفتيش
- أحمد علي بدوي : النهضة من قبل ومن بعد
- د. سيد عشماوي : الخلافة
- د. وائل غالي : خطر على الثقافة
- حماده إمام : التحالف مع امريكا
- مجدى الدقاق : الدين لله

عدلى رزق الله - ياسر شعبان - د. يوسف زيدان
أحمد حسين الطماوي - د. عثمان حسن إبراهيم
فاطمة خير - شادي رفعت - د. مريم المهدي
د. ماهر شفيق فريد - محمد إبراهيم أبو سنة
د. سامي منير عامر

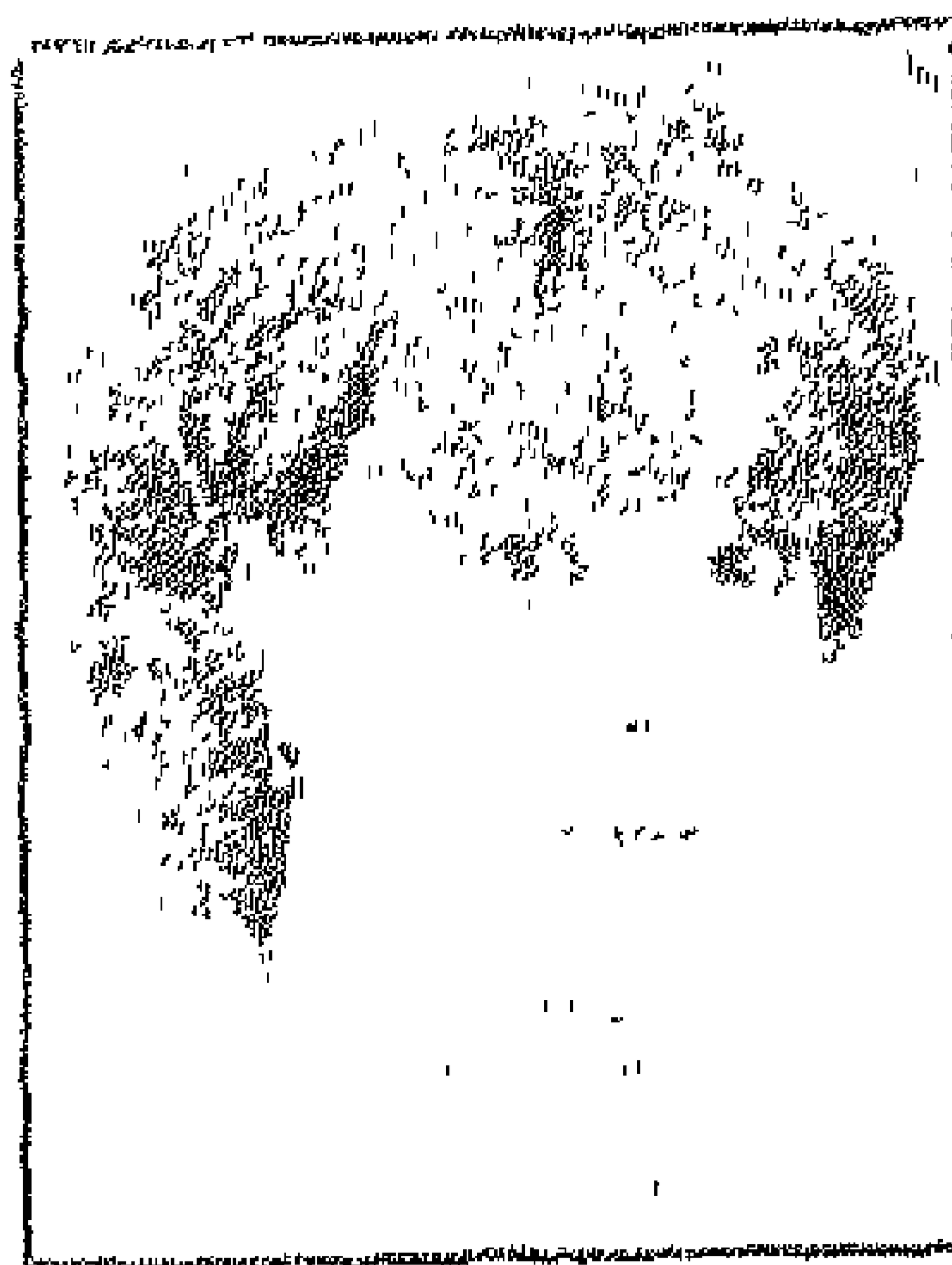
فريد أبو سعده - عاطف عبد العزيز - أمجد ريان
عبد الوهاب العودي - نجاة علي - زينب سعيد
جمال زكي مقار - منال السيد - هدى توفيق
منتصر القفاش - نانسي سمير - محمد القشري
أسامة عرابي - إبراهيم محمد حمزة

رئيس مجلس الإدارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق



نبيذ أحمر



للكاتبة المصرية: أمينة زيدان

تصدر: ١٥ مارس ٢٠٠٧

أحدث إصدارات كتب الهلال عام ٢٠٠٦ - ٢٠٠٧

السنة	الشهر	المؤلف	اسم الكتاب
٢٠٠٦	مارس	لبنى عبدالمجيد	اعترافات أدبية
٢٠٠٦	أبريل	د . أنور عبدالملك	الصين فى عيون المصريين
٢٠٠٦	مايو	خيرى منصور	ثنائية الحياة والكتابة
٢٠٠٦	يونيه	سليمان الحكيم	شهادات فى الفكر والسياسة
٢٠٠٦	يوليه	محمد هيكل	مواطنون اختاروا الوطن
٢٠٠٦	أغسطس	حامد الشناوى	حكايات مسافر
٢٠٠٦	سبتمبر	رجائى عطية	الأديان والزمن والناس
٢٠٠٦	أكتوبر	د. عبد الغفار مكاوى	النبع القديم
٢٠٠٦	نوفمبر	د. ماهر شفيق فريد	أجمل قصص الحب
٢٠٠٦	ديسمبر	فريدة النقاش	أطلال الحداثة
٢٠٠٧	يناير	عبد المنعم رمضان	الصعود إلى المنزل
٢٠٠٧	فبراير	د. مصطفى عبد الغنى	قبل الخروج (١)

هـذا الكـتاب

هذه محاولة لكتابة السيرة الفكرية: وهي محاولة تسعى كسابقتها – الذاتية – إلى استعادة أهم ما شغلت به على المستوى الفكرى المعاصر، فمن المعروف أنه يصعب الفصل بين الذات والعام بأية حال ومن هنا.. فإنها تمثل «سيرة حياة لمثقف» فى هذه الفترة الصعبة من تاريخنا العربى.

ويجب الإسراع هنا بالقول – كما أشرت فى الجزء الأول من– السيرة الذاتية –أنه لا يمكن اكمال هذه السيرة – الفكرية – دون إحاطة القارىء لأعمالي كلها، فكاتب هذه السطور أكثر من غيره وعيا أن ما يكتبه أو يعبر عنه فى نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الحادى والعشرين يمثل (شهادة) على هذا العصر.

وإذا كانت هذه الشهادة تركز على المثقف العربى، فإنها راحت ترصد منذ البداية لعديد من المشاهد من خلال هذا المثقف (عالم الدين فى تراثنا)، ففى هذه الحقبة الأخيرة من تاريخنا المعاصر عرفنا المثقف عبر مشاهد شتى: دراما المثقف، وسيناريو ما يحدث لنا فى هذه المنطقة (وادى النيل) فضلا عن مشاهد ميلودراما «لعبة الجوائز» لما فيها من دلالة محزنة، ثم ملامح المشهد النقدى العربى، قبل العود، من جديد حين تتحول الدراما إلى ميلودراما دامية للمثقف العربى فى شتى ألوان الطيف: المتمرد والمؤيد والمتردد والمهادن.. إلى غير ذلك من الأنماط المعاصرة وكلها أنماط عرفها الكاتب وتعامل معها ورصد لها عبر هذه (الشهادة) على مدى نصف قرن أو يزيد.

ومن هنا تظل سيرة حياة – فكرية – شهادة على هذا الواقع المعاصر ورصداً لها فى الوقت نفسه.

في إطار التخطيط المبكر
واستعدادا لموسم حج عام ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

ترجو مصر للطيران
شركات السياحة والجمعيات الدينية والهيئات

سرعة التقدم لحجز المقاعد المطلوبة على رحلاتها في موسم الحج حتى يتسنى تلبية الطلبات في وقت مناسب .. وحرصا على راحتكم.

إعتبارا من ٢٥ فبراير وحتى موعد غايته ٢٥ مارس

- على أن يحدد في الطلبات المواعيد المطلوبة لرحلات السفر والعودة.

- مع العلم بأنه سيتم تحصيل مقدم يعادل من ٢٠٪ إلى ٥٠ ٪ من قيمة التذاكر عند التعاقد والتي ستختلف حسب مواعيد السفر والعودة

- تقدم الطلبات لإدارة الحج والعمرة / ٦ شارع عدلي بالقاهرة

ت: ٣٩٥٨٦٢٦، ٣٩٠٠٩٩٩ - فاكس: ٣٩١١١٦٠
البريد الالكتروني: hajj_omra@egyptair.com

مصر للطيران .. مع السنين نتجدد



أول شركة طيران في الشرق الأوسط وافريقيا وسابع شركة عالمياً

egyptair.com



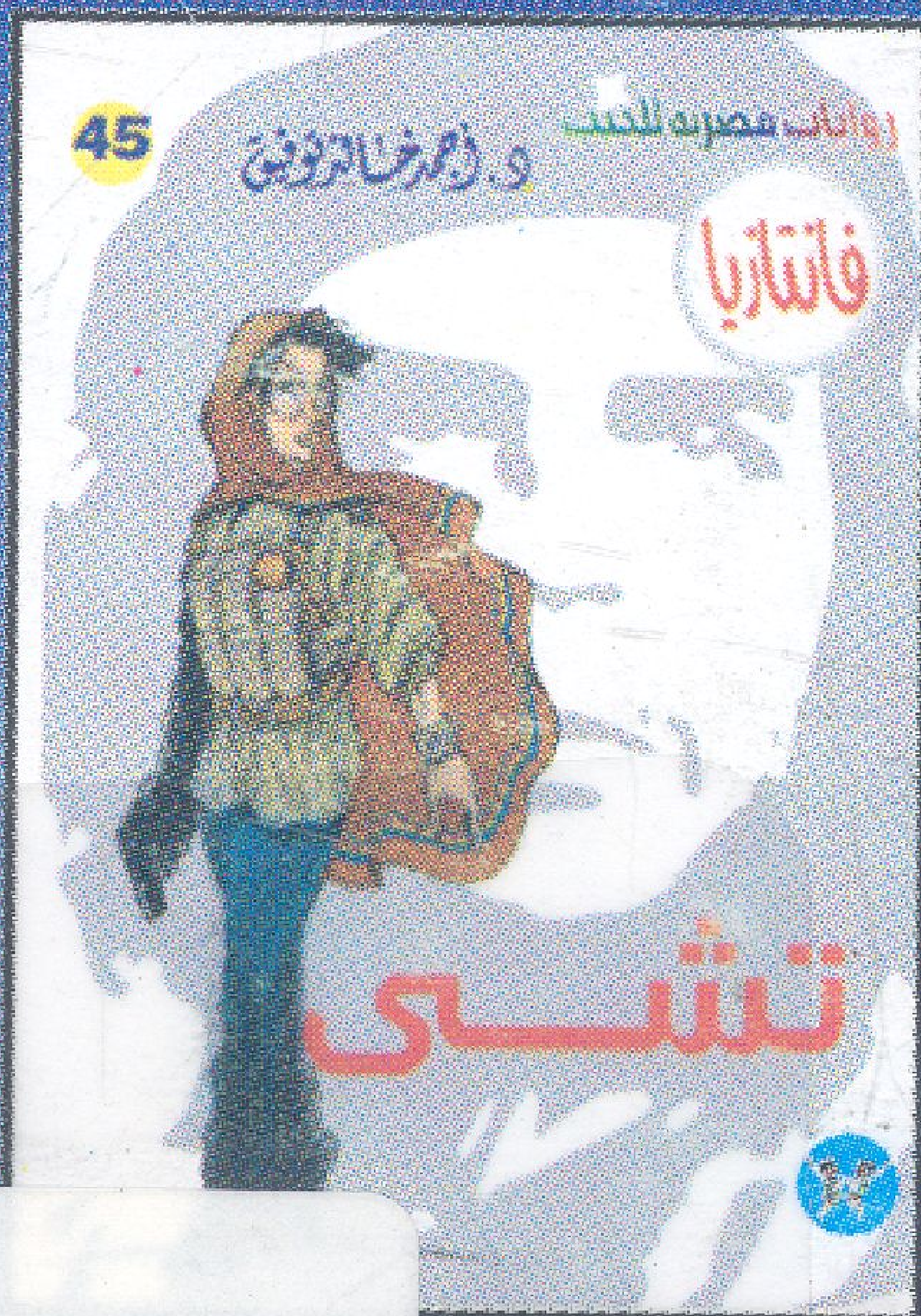
روايات مصرية للجيب

لا ترجمـــة لا اقتبـاس

لا تقليد تأليف مصرى ١٠٠٪

مائدة حافلة مشتهاة ، من أروع ما أبدعته أقلام الصفوة المتميزة من المؤلفين الشبان .







روايات مصـ

النغمة الجميلة

فى طول العالم

لفتح آفاق الثقا

فى عقول الناشـ





طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع ... ية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠ ، ١٦ ش كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية ... ة - القاهرة : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٥٩٦٦٥٠ - ٦٨٢٧٠٠٢ / ٢٠٢ ج.م.ع ٤ش بدوى محرم بك - الإسكندرية .